غُربة القرآن

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة

مجدي الهلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن يا كريم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده ليكون للعالمين نذيرا، وللمؤمنين نورا وهدى وشفاء وبشيرا، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذه بفضل الله وعونه صفحات جديدة أكتبها عن القرآن العظيم، ذلك:

الحاضر الغائب

القريب البعيد

أكتبها والأمل في الله يحدوني بأن يجعلها سبحانه سببا -مع غيرها - في استثارة العزائم والهمم نحو الانتفاع الحقيقي بالقرآن في تحصيل التغيير الجذري الشامل للفرد، ومن ثم الأمة؛حتى يعود مجدها وعزها وأستاذيتها للبشرية .. أستاذية الهداية وإقامة العدل: {**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِوَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**} [آل عمران: ١١٠]

وكأني أشعر بك - أخي القارئ – وأنت تتمتم قائلا:

"وماذا ينبغي علينا أن نفعل مع القرآن أكثر مما نفعله؟ .. إننا نهتم به اهتماما عظيما؛ فالمصاحف في كل مكان، وحلقات التعليم والتحفيظ تملأ ربوع العالم الإسلامي، والإذاعات تبثه ليل نهار، وحفّاظه بمئات الآلاف بل بالملايين.. فماذا تريد منا أن نفعل مع القرآن أكثر من ذلك؟!"

الجواب على ما قلته – أخي - يتمثل فيما أخبرنا به الله جل شأنه بأن من صفات القرآن أنه روح {**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**} [الشورى: ٥٢]..

ومن المعلوم أن الروح هي سر الحياة، وأنها هي التي تميز الحي عن الميت.

فالقرآن روح بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالات ومعان..

روح تحيي القلوب وتنقلها إلى عداد الأحياء..

روح تُخرج من الظلمات إلى النور، ومن المادية إلى الربانية، ومن الهم والغم إلى السعادة والهناء {**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا؟**} [الأنعام: ١٢٢]

قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: {**وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**} [الأنعام: ١٢٢] هو القرآن.[١]

فإن قلت: وأين نجد هذه الروح؟ أليست كامنة في ألفاظ القرآن؟!

جاءك بفضل الله الجواب بأن ألفاظ القرآن تُعد بمثابة المبنى أو الوعاء الذي تحل فيه الروح، وعندما تغيب عنه فإنها تُصبح كالجسد بلا روح.. ألفاظا نرددها فلا تؤثر فينا، ولا تحرك قلوبنا أو تحييها، وهذا يُجيب عن تساؤلات البعض حول عدم التغيير أو الشفاء؛ على الرغم من كثرة تلاوة القرآن وحفظ ألفاظه.

ومما يؤكد أن روح القرآن ونوره قد لا ينتفع به كل من يقرؤه؛ قوله صلى الله عليه وسلم في الدعاء: "**اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي**"[٢] .

والربيع – كما يقول ابن القيم - : "المطر الذي يُحيي الأرض.. شبه القرآن به لحياة القلوب به"[٣].

فطلبه صلى الله عليه وسلم من ربه بعد هذه المقدمة الطويلة في الثناء عليه وإظهار الافتقار التام له أن يجعل القرآن ربيع القلب ونور الصدر وجلاء الحزن وذهاب الهم؛ يدل على أن هذه الآثار العظيمة للقرآن قد لاتتحقق في العبد؛ ومن ثم كان من الضروري إلحاحه على الله لتحصيلها من خلال القرآن.

وعندما نقرأ قول النبي صلى الله عليه وسلم: "**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين**"[٤]ثم ننظر إلى واقع الأمة فسنتأكد بأن القرآن لم يرفعنا، وذلك بالرغم من الاهتمام الواضح بالقرآن من خلال الإذاعات والفضائيات التي تبثه ليل نهار، ومن خلال المدارس

---

[١] تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ١٦٠/٢، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٣٥٣/٣ لمسند عبد بن حميد.

[٢]أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأدعية:٩٧٢، والحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح: ١٨٧٧، وقال: صحيح على شرط مسلم، وصححه الأرناؤوط..

٣ الفوائد لابن القيم ص ٣٩.

[٤]رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه: ١٩٣٤.

والجامعات والكتاتيب التي تعلم ألفاظه، ومن خلال ملايين المصاحف التي تُطبع، والمسابقات التي تُعقد..

فأين الخلل؟!

هناك حلقة مفقودة في تعاملنا مع القرآن؛ لذلك لا نرى أثره.

لقد أنزل الله القرآن كأعظم نعمة تلقاها بشر، وذلك لكي يكون كتاب هداية وشفاء وتغيير، وعندما لا يتم التعامل معه على هذا الأساس فإن عقوبات متوالية ستصيب الأفراد وتعم الأمة: {**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**} [الأنفال: ٢٥]

قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب.[١]

والواقع الذي نحياه يخبرنا بتحقق ذلك الوعيد، فقد أصبحنا في ذيل الأمم على الرغم من خدمتنا للقرآن واهتمامنا بعلومه، بل إن الأمر لا يقتصر على ذلك ؛ فلقد وردت أحاديث صحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم تؤكد أن القرآن العظيم سيرفع في آخر الزمان، منها قول النبي صلى الله عليه وسلم: "**يَدرَسُ[٢] الإسلام كما يَدرَسُ وشيُ الثوب، حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، ولَيُسرى على كتاب الله عز وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبيروالعجوز؛ يقول: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة (لا إله إلا الله) فنحن نقولها**"[٣].

والملاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم في معظم أحاديثه التي وجهها لأصحابه في هذا الشأن لم يحدثهم بطريقة توحي إليهم بأن هذا الأمر خاص بآخر الزمان، وأنهم في منأى عنه، بل كان يحدثهم على أنهم هم المخاطبون به، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "**يا أيها الناس ما هذه الكتب التي بلغني أنكم تكتبونها مع كتاب الله؟ يوشك أن يغضب الله لكتابه فيُسرى عليه ليلا، لا يُترك في قلب ولا ورق منه حرفا إلا ذهب به**، فقيل: يا رسول الله: فكيف بالمؤمنين والمؤمنات؟ قال: "**من أراد الله به خيرا أبقى في قلبه لا إله إلا الله**"[٤]..

---

[١] رواه الطبري في التفسير ٤٧٤/١٣.

[٢] يدرس: لا يبقى منه شيء، يسرى: يذهب بالليل، الوشي: النقش.

[٣] أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم: ٤٠٤٩، والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم: ٨٤٦٠، وقال : إسناده صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

[٤] أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٢٨٧/٧، رقم ٧٥١٤. قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٥/١) : "فيه عيسى بن ميمون الواسطي وهو متروك وقد وثقه حماد بن سلمة".

لقد كان صلى الله عليه وسلم يرقب باهتمام بالغ أثر القرآن في المسلمين باعتباره المقصود الأعظم من نزوله، ففي يوم من الأيام دخل المسجد وقال: "**هذا أوان يُختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء**" **فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه ولنُقرئنه نساءنا وأبناءنا، فقال صلى الله عليه وسلم: "ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعُدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تُغني عنهم؟!!"**.

قال جبير بن نفير – راوي الحديث عن أبي الدرداء - : فلقيت عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قلت: ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يُرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلا خاشعا[١]

تأمل قوله صلى الله عليه وسلم: "**حتى لا يقدروا منه على شيء**" فالفائدة العظمى للقرآن تكمن في أثره الذي يحدثه في ذات الإنسان من هداية وشفاء وخشوع وتغيير واستقامة على أمر الله، فإن لم يقدر المسلم على تحصيل ذلك من القرآن فإن مصيبة كبرى قد حلت به، وهذا ما كان يحذره صلى الله عليه وسلم، وبخاصة مع كثرة دخول الناس في الإسلام.. وكان ماثلا في ذهنه حالة بني إسرائيل وانحرافهم وغضب الله عليهم واستبدالهم على الرغم من وجود التوراة والإنجيل بينهم.

ولقد سار صحابته الكرام على نهجه صلى الله عليه وسلم، فقد كانوا يُحذِّرون مَن بعدهم ويخوفونهم من عدم التعامل الصحيح مع القرآن، والذي من شأنه أن يستدعي العقوبات المتوالية والمتصاعدة من الله عز وجل على الأمة، والتي تنتهي بالمصيبة الكبرى والكارثة العظمى وهي: "**رفع القرآن**".

ومما يؤكد على ضرورة التشمير للانتفاع بالقرآن أننا بالفعل محرومون من أثره وروحه، فألفاظه أمامنا ولكننا لا نقدر على تحصيل الخشوع والتغيير والشفاء منها، وبمرور الوقت تصورنا أن ما نفعله مع القرآن، وما نُحصله منه من تأثر ببعض آياته هو غاية الانتفاع به.

ولعلك أخي القارئ تعرف مثل ما يعرف الكثيرون من تلك القصص الواقعية التي تطرق أسماعنا وأبصارنا، والتي تحكي فصولها وتشرح قدر ابتعاد العلم عن العمل، وانفصال الممارسات الحياتية لبعض قُرّاء القرآن وحُفّاظه ومُعلمي ألفاظه ومعانيه عن أخلاق القرآن وآدابه، وهذا يدلل على

[١] أخرجه الدارمي في سننه، باب من قال العلم خشية: ٢٨٨، والترمذي في سننه، كتاب أبواب العلم، باب ما جاء في ذهاب العلم: ٢٦٥٣ وقال: حديث حسن غريب، وأخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب العلم:٣٣٨، وقال : إسناد صحيح من حديث البصريين ووافقه الذهبي.

أن ما ورد في فضل أهل القرآن ليس على إطلاقه، ولا يشمل كل من يتعامل معه، فالاتصاف بصفة "**أهل القرآن**"، أو "**صاحب القرآن**"، ليست بالسهولة التي يظنها البعض، فلكل قول حقيقة، ولهذه الصفة علامات علينا أن نتعرف عليها لندرك حقيقة موقعنا من القرآن، وعندها سنُفاجأ بأننا قد أدرنا ظهورنا للقرآن، وأن المسافة التي بيننا وبينه كبيرة كبيرة، وأننا لو بقينا هكذا فستتوالى علينا عقوبات الإعراض عن آيات الله كما أصابت مَن قَبلنا، إلى أن تكون الخاتمة: خاتمة السوء: أن يرفع الله كلامه، وينسخ القرآن ويعود من حيث أتى..

واعلم أخي أن الدافع الأساس لطرح هذا الموضوع هو استثارة الشعور بالخطر، ومن ثَم التشمير الجاد للعودة إلى القرآن والانتفاع الحقيقي به.

هذا، وإن كاتب هذه السطور، لهو – والله – أحوج ما يكون إلى ما تهدف إليه، ويحدوه الأمل أن يجعلها الله عز وجل سببا لاستنفار جهود المشفقين والحريصين على هذه الأمة وعلى هذا الكتاب الذي هو مبعث قوتها وسر عزتها، من أجل إعادة روحه وأنواره وتأثيره إلى القلوب بإذن الله، فيرفعنا سبحانه به في الدنيا والآخرة: {**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**} [الأعراف: ١٧٠]

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله..

الفصل الأول

بل نحن محرومون!!

الفصل الأول

بل نحن محرومون!!

إذا ما أراد الجهاز التنفيذي لمدينة (ما) أن يشق طريقا بين صخور صلبة؛ فإنه يستدعي المتخصصين الذين – بدورهم – يقومون بمعاينة الموقع وتحديد القدر المناسب لكمية المتفجرات اللازمة لإنجاح العملية، وكلما كانت الصخور صلبة وضخمة كانت القوة التأثيرية المطلوبة في المتفجرات أشد.

وكما هو معلوم، فإن هذه المتفجرات لا تُحدث شيئا بذاتها، فالله عز وجل هو الذي أودع فيها تلك القوة التأثيرية الضخمة، وكيف لا، وكل قوة في هذا الكون مستمدة من قوته سبحانه {**لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ**} [الكهف: ٣٩]، فقوة تأثير النيران التي تصهر الحديد، وتُذيب النحاس ما هي إلا أثر يسير من آثار قوته سبحانه، وكذلك فإن قوة تأثير الكهرباء، وأشعة الليزر، والقنابل الذرية هي من آثار قوته سبحانه، فجميع أشكال القوة الموجودة على ظهر الأرض هي ملك لله ومستمدة من قوته {**أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**} [البقرة: ١٦٥].

ولقد أخبرنا صاحب هذه القوة – جل شأنه – أن من أشد أنواع القوى تأثيرا، تلك القوة التي أودعها سبحانه في القرآن العظيم، وضرب لنا مثلا يؤكد فيه هذا المعنى {**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**} [الحشر: ٢١]

فقوة تأثير القرآن لا يوجد لها مثيل على ظهر الأرض.

وعندما طلب كفار مكة من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آيات خارقة تدل على صدقه كان الرد الإلهي {**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ**} [العنكبوت: ٥١].

ولما سألوه أن يجعل ربه – جل شأنه – يباعد بين جبال مكة حتي يتمكنوا من زراعتها، وأن يحيي لهم أمواتهم، وأن يقطع به الأرض، فيقرب بينهم وبين الشام واليمن فنزل قوله تعالى: {**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى**} [الرعد: ٣١]، وجواب الشرط محذوف وتقديره: لكان هذا القرآن، بمعنى أنه لو سمح للقرآن أن يفعل ذلك لفعل[١]، والله على كل شيء قدير؛ بدلالة قوله تعالى بعد ذلك: {**بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا**} [الرعد: ٣١]

---

[١] أخرج ابن أبي شيبة في المصنف (من كتاب المغازي: ٣٦٥٦٩) عن الشعبي، قال: قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كنت نبيًّا كما تزعم فباعد عن مكة أخشبيها هذين مسيرة أربعة أيام، أو خمسة أيام، فإنها ضيقة، حتى نزرع فيها أو نرعى، =

ومع هذه القوة التأثيرية الجبارة للقرآن؛ إلا أن الله جل شأنه جعل مجال عملها ودائرة تأثيرها هي ذات الإنسان، باعتبار أن الإنسان هو موضوع هذه الأرض {**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**} [البقرة: ٢٩] {**وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ**} [الرحمن: ١٠]

فأي تأثير يمكن أن يُحدثه القرآن لو تعرض له الإنسان.. أي إنسان؟!

وأي نتيجة تترتب على دخول الإنسان دائرة تأثير القرآن؟!

ألا توافقني أن زلزالا عنيفا سيحدث له، فيعدل حياته ويصحح مساره ويقوم سلوكه، ويحدث فيه تغييرات جذرية شاملة؟

ألا توافقني أن حاله بعد كل مرة يتعرض فيها لتأثير القرآن ستختلف كثيرا عما كان قبلها؟ {**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**} [الأنفال: ٢]

.. بلا أدنى شك هناك علامات واضحة – لا يمكن إنكارها – لمن يتصل اتصالا حقيقيا بالقرآن ويدخل إلى دائرة تأثيره.. هذه العلامات تشكل مقياسا واضحا ومؤشرا حقيقيا لمن يمكن أن نطلق عليه أنه قد "**أوتي القرآن**"، و "**صاحب القرآن**"، و "**أهل القرآن**"، و"**حامل القرآن**".. وفي المقابل فإن لم تظهر تلك العلامات على شخص ما فلا يمكن أن نُطلق عليه هذه الألقاب مهما كان الجهد الذي يبذله مع القرآن تلاوة أو حفظا أو تعليما، فالبينة على من ادعى.

العلامة الفارقة:

هذه العلامات التي سيتم الحديث عنها بعون الله في الفصل الأخير من هذا الكتاب كمظاهر لحالة النجاح في الاتصال الحقيقي بالقرآن يجمعها أمر عظيم وعلامة فارقة، ألا وهي:

التغيير الجذري الشامل في شخصية المرء، والذي من الضروري أن ينعكس على سلوكه وأفعاله ليصبح: مسلما، صالحا، مُصلحا، متواضعا، مجاهدا في سبيل الله، لا يخاف فيه لومة لائم.

إن الذي يدخل – بإذن الله – إلى دائرة تأثير القرآن، فتباشر معجزته كينونته؛ فمن الطبيعي والتلقائي أن يتغير تغيرا إيجابيا شاملا وعميقا، فيعيد القرآن تشكيله على الوجه الذي يحبه الله عز وجل، {**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**} [الإسراء: ٩].

{**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**} [الإسراء: ٨٢]

وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبي، أو احملنا إلى الشام أو إلى اليمن أو إلى الحيرة، حتى نذهب ونجيء في ليلة كما زعمت أنك فعلته، فأنزل الله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ} [الرعد: ٣١] الآية.

وأخرج ابن جرير (٤٤٩/١٦) عن قتادة وابن زيد قولهم في تأويل قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ} قال قتادة: يقول: لو فعل هذا بقرآنٍ قبل قرآنكم لفُعِل بقرآنكم.

{**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ**} [فصلت: ٤٤]

لذلك لا يُخطئ من يقول بأن أهم علامة من العلامات الدالة على دخول المرء في دائرة تأثير القرآن، ومِن ثَم سريان روحه فيه: التغيير الذي يظهر عليه، ويشمل جميع جوانب شخصيته..

.. تغيير في المفاهيم الخاطئة والمعتقدات الفاسدة والتصورات المعوجة التي تحتل العقل.

.. وتغيير في القلب حيث يقوم نور القرآن – بإذن الله – بقطع علائق القلب بالهوى، ويزيده إيمانا حتى يصبح قلبا حيا سليما أبيض خاليا من الأمراض.

.. وتغيير في النفس، فيزيل آثار تضخمها، ويروِّضها ويلزمها طريق الصدق والإخلاص، ويخلص صاحبها من مظاهر ضعفه أمامها من اعتداد بالرأي، وتفاخر، وتباهٍ، وسعي للصدارة، وشح، وحرص، وتعلق بالدنيا، ... إلخ.

.. هذه التغييرات تظهر آثارها بعون الله على حركة المرء فتجده في حالة دائمة من اليقظة والاجتهاد في الاستقامة على أمر الله عز وجل، يسعى دوما إلى فعل ما يحبه ربه وذلك في كل المجالات الفردية والجماعية.

والخلاصة: أن القرآن ينتج بإذن الله شخصا ربانيا عابدا ورعا متواضعا مجاهدا، نافعا لغيره، متوازنا في أموره كلها.

وأعظم دليل على ذلك هو رسولنا صلى الله عليه وسلم الذي وصل لأعلى مرتبة بين البشر عند الله عز وجل في الإيمان والخشوع والتقوى والخلق والشكر والصبر والاستقامة، كل ذلك كان بفضل الله من خلال القرآن: {**وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي**} [سبأ: ٥٠]

فلقد كان يتبع القرآن في كل شيء، ولا يتبع غيره {إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} [الأنعام: ٥٠]

ولعل أبلغ ما وُصف به صلى الله عليه وسلم أنه: "**كان خلقه القرآن**" وكان: "**قرآنا يمشي على الأرض**".

عن أنس بن مالك أنه سمع خطبة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وذلك الغد من يوم توفى النبي صلى الله عليه وسلم حين بايع المسلمون أبا بكر واستوى على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، تشهد قبل أبي بكر، فقال:

أما بعد، فاختار الله لرسوله الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسوله، فخذوا به تهتدوا، وإنما هدى الله به رسوله صلى الله عليه وسلم.[1]

ومما يؤكد من الناحية العملية على هذه العلامة الفارقة هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تغيروا بالقرآن تغيرا كاملا، فبعد أن كانوا جماعات متفرقة، يعبدون الحجارة، ويأتون الفواحش، ويقطعون الأرحام، ويأكل القوي منهم الضعيف؛ أصبحوا أمة قوية متماسكة، وأصبح كل واحد منهم أمة وحده، ويكفي في وصفهم ما جاء في قوله تعالى: {**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ**} [الفتح: ٢٩].

يقول في وصفهم عبد الله بن مسعود: "من كان مستنا فليستن بمن قد مات؛ أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على الهدى المستقيم"[2].

وقال علي بن أبي طالب: والله لقد رأيت أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – فما أرى اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثا غبرا، بين أعينهم كأمثال ركب المعز، قد باتوا لله سجدا وقياما، يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين. [3]

وقال ابن عبد البر في خطبة كتاب "الاستيعاب في معرفة الأصحاب":

روى ابن القاسم عن مالك بن أنس أنه سمعه يقول: لما دخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الشام نظر إليهم رجل من أهل الكتاب فقال: ما كان أصحاب عيسى بن مريم الذين قطعوا بالمناشير وصلبوا على الخشب بأشد اجتهاداً من هؤلاء.[4]

لقد كان الصحابة – رضوان الله عليهم – يدركون جيدا قيمة القرآن العظيم، ويشعرون بالتغيير الشامل الذي حدث لهم من خلاله، لذلك كانت وصاياهم لمن بعدهم بضرورة الالتزام بالقرآن، فهذا أبو بكر الصديق يقول:

---

[1] رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: ٦٨٤١.

[2] رواه أبو نعيم في الحلية ٣٠٥/١.

[3] أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧٦/١) وابن عساكر (٤٩٢/٤٢) .

[4] الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤/١

هذا كتابُ الله فيكم لا تَفْنَى عجائبُه ولا يُطفأ نورُه، فصدِّقوه وانتصِحُوه واستضِيئوا منه ليوم الظُّلمة[1]

وعندما أراد بنو عامر العودة للإسلام بعد ردتهم كان مما اشترطه عليهم خليفة رسول الله أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأخذ العهد عليه: عليكم عقد الله وميثاقه أن تقوموا بالقرآن آناء الليل وآناء النهار، وتعلموه أولادكم ونساءكم، ولا تمنعوا فرائض الله في أموالكم. [(٢)]

وعن جويرية بن قدامة أنهم دخلوا على عمر رضي الله عنه وقد طعن فقالوا له: أوصنا. فقال: عليكم بكتاب الله، فإنكم لن تضلوا ما اتبعتموه.[3]

إن القرآن هو أعظم أداة للتغيير الحقيقي – بإذن الله – وينبغي أن يكون للمؤمن كما أوصى نصر بن يحيى بن أبي كثير:

اجعل القرآن مفزعك الذي تلجأ إليه، وحصنك الذي به تعتصم، وكهفك الذي إليه تأوي، ودليلك الذي به تهتدي، وشعارك ودثارك، ومتهجدك وسبيلك، وإذا التبست عليك الطرق، وصرت في ضيق من أمرك يضيق بها صدرك، فارجع إلى عجب القرآن الذي لا حيرة فيه، فقف على دلائله من الترغيب والترهيب والوعد والتشويق إلى ما ندب الله إليه المؤمنين من الطاعة وترك المعصية، فإنك تخرج من حيرتك، وترجع عن جهالتك، وتأنس بعد وحشتك، وتقوى بعد ضعفك، فليكن دليلك دون المخلوقين، تفز مع الفائزين.[4]

القرآن يغير أي إنسان:

لقد كان التغيير القرآني للصحابة من أكبر الدلائل على قدرة القرآن – بإذن الله – على التعامل مع أي إنسان مهما كان طغيانه وفسقه وفجوره، لذلك فإن من يتعامل مع القرآن تلاوة وتعليما دون أن يظهر عليه أثر ذلك التغيير؛ فإنه يقينا لم يدخل إلى دائرة تأثير المعجزة القرآنية، ولم تسر روحه في كيانه.

يقول مالك بن دينار: يا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض، وقد ينزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصيب الحُش فتكون فيه الحبة، فلا

[1] عيون الأخبار لابن قتيبة ص ٣٧٠

[(٢)] الاكتفاء بما تضمنه مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم والثلاثة الخلفاء ٣٤/٢.

[3] مسند أحمد، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين إلا جويرية فمن رجال البخاري.

[4] ذكره ابن عبد الهادي في كتاب: (هداية الإنسان للاستغناء بالقرآن) ص: ٤٩٨ – رسالة دكتوراه – الجامعة الإسلامية.

يمنعها نتن موضعها بأن تهتز وتخضر، فيا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحاب سورة؟ أين أصحاب سورتين؟ ماذا عملتم فيهما؟[١].

وكان شميط بن عجلان يقول: إن المؤمن اتخذ كتاب الله مرآة، فمرة ينظر إلى ما نعت الله به المؤمنين، ومرة ينظر إلى ما نعت الله به المغترين، ومرة ينظر إلى الجنة وما وعد الله عز وجل فيها، ومرة ينظر إلى النار وما وعد الله فيها، تلقاه دائما حزينا كالسهم المرمي به شوقا إلى ما شوقه الله إليه، وهربا مما خوفه الله عز وجل منه[٢].

ولعل من أهم علامات التغيير التي تحدث لصاحب القرآن: **علاقته بالمال**، وزهده فيه، وعدم الحرص على تكثيره.. يقول كرز بن وبرة الحارثي: لا يكون العبد قارئا حتى يكون زاهدا في الدرهم[٣].

ومنها كذلك: انضباطه واستقامته.. قال صلى الله عليه وسلم: **ألا أخبركم بخير الناس، وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلا عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدمه، حتى يأتيه الموت، وإن من شر الناس رجلا فاجرا يقرأ كتاب الله لا يرعوي إلى شيء منه.**[٤]

مقارنة:

عندما سألت نفسي: أين أنا من هذا كله؟ .. أين أنا من التغيير الحقيقي الشامل الذي يحدثه القرآن في ذات من يتصل به؟ فجاءتني الإجابة بعد عناء ومراوغة: بأن المسافة كبيرة بين حالي وواقعي وبين الشخصية التي يصنعها القرآن بإذن الله، وذلك في جوانب كثيرة من حياتي يمتنع القلم عن ذكرها.

وأسألك أنت أخي كذلك.. كيف هي المسافة بينك وبين أخلاق القرآن؟

هل هي قريبة أم بعيدة؟

كيف هي علاقتك بالمال؟ ألا يستبد بك الفرح إذا زاد والحزن إذا نقص؟!

هل تتهم نفسك بصورة دائمة وتستصغرها ولا ترضى عنها؟!

هل تخفض جناحك للمسلمين وتتواضع معهم بغير تكلف؟!

---

[١] حلية الأولياء ٣٥٩/٢.

[٢] صفة الصفوة ٣٤٤/٣.

[٣] سير أعلام النبلاء ٨٦/٦.

[٤] رواه أحمد من مسند بني هاشم، عبد الله بن عباس: ٢١١٦،والنسائي، كتاب الجهاد، فضل من عمل في سبيل الله على قدمه: ٣١٠٦، وصححه الأرناؤوط. ويرعوي: يتزجر.

هل تسعى دوما لتمكين دين الله في الأرض؟!

كيف هي علاقتك بربك؟ هل مقامه وقدره عظيم في نفسك؟ هل هو الأسبق إلى قلبك عند تعرضك للشدائد؟ وهل تحب الخلوة به؟ وتأنس بمناجاته؟!

هل..؟ هل..؟

أحسبك – أخي – في حيرة من أمرك.. تحاول إثبات وجود بعض مظاهر التغيير الإيجابي في ذاتك، لكنك تلحظ فيها مظاهر سلبية عديدة، لذلك يصعب عليك الاعتراف بالحقيقة التي مفادها أننا في واد، والقرآن في واد آخر.

نعم، سيجد الكثير منا صعوبة بالغة في الاعتراف والإقرار بهذه الحقيقة لأنه **قد رتب أمره على أنه من أهل القرآن الموعودين بالشرف وعلو المنزلة عند الله عزوجل لمجرد مداومته على قراءة هذا الكتاب، أو لحفظه له – بعضه أو كله** – ومن ثَم فلا ضير إن تم التقصير في الواجبات أو الوقوع في الآثام، فالقرآن سيشفع لنا عند الله جل شأنه، الذي سيتجاوز عنا من أجل خدمتنا لكتابه.

أخي:

كأني أشعر بتلك المقاومة التي تضطرم داخلك وتدفعك لعدم قبول حقيقة أننا لسنا من أهل القرآن.

..كأني أسمعك وأنت تتمتم وتقول: كيف لا أكون من أهل القرآن وأنا أداوم على تلاوته يوميا، وأحفظ بعضه، وقد أؤم الناس به، وأعلمه لغيري في بعض الأحيان؟! فإن لم أكن من أهل القرآن فمن يكون؟

.. أشعر باجتهادك في محاولة إثبات ظهور بعض العلامات عليك للخروج من هذا المأزق، مثل الشعور ببعض السكينة عند قراءة القرآن، أو سماحة الوجه، أو البركة في الرزق.

الاختبارات الكاشفة

للأسف – أخي – هذه هي الحقيقة: **أننا لسنا بعدُ من أهل القرآن**..!!!

بل إن المسافة التي تفصلنا عنه: كبيرة .. كبيرة!

فإن لم تحتل هذه الحقيقة موقعها الصحيح من نفسك، فما عليك إلا أن تقوم بإجراء هذا الاختبار:

اختبر نفسك عند القراءة في أي موضوع، سواء كان في جريدة أو كتاب أو غيره، وتأمل ما يحدث لك عندما يأتي في سياق الكلام آية أو بضع آيات قرآنية يستشهد بها الكاتب للتدليل على كلامه.. هل ستقرؤها مثلما تقرأ باقي الكلام من حيث الاهتمام ومحاولة الفهم وربطها بما سبق من فقرات أم أنك ستمر عليها بالقراءة السريعة؟ أم ستتجاوزها بعينيك وتقفز إلى الفقرة التي تليها؟!!

قم - أخي – بإجراء هذا الاختبار عدة مرات، وسجل ما يحدث لك، وساعتها ستعرف الحقيقة، وستتأكد أننا نهتم بكلام البشر أكثر من اهتمامنا بكلام الله، وليس أدل على ذلك من تلك الصعوبة التي نواجهها ونحن نُكره أنفسنا على قراءة الآيات القرآنية التي تتضمنها صفحات أي كتاب أو مقال نطلع عليه، وفي كثير من الأحيان نتجاوزها، وبخاصة إذا كانت طويلة، وإنا لله وإنا إليه راجعون {**فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ**} [الجاثية: ٦].

.. ومن المبكيات أن تجد بعض المؤلفين يستحث القارئ أن يصبر على قراءة الآيات التي يتضمنها كتابه، وألا يمل منها لأنها ذات صلة بالوحدة الموضوعية لمادة الكتاب، فهذا سيد قطب – رحمه الله - يقول في بدايات كتابه (مقومات التصور الإسلامي):

"فقارئ هذا البحث لابد له أن يدرس النصوص القرآنية المطولة فيه باعتبارها هي الأصل.. إنها لم تجيء هنا للاستشهاد.. إنما جاءت للتحدث هي بذاتها عن الحقيقة، وعبارتنا حولها هي العنصر الإضافي. ولابد أن يصبر على تملي هذه النصوص كلمة كلمة، فلا يتخطاها حتى لو كان ممن يحفظون القرآن من قبل"[١].

وفي كتابه (صحيح السيرة النبوية) يُلِح محمد رزق الطرهوني على هذا الطلب فيقول تحت عنوان "ملحوظة هامة":

"آمل من القارئ الكريم أن يصبر على تلاوة ما يأتيه في هذا الجزء وما يليه من آيات القرآن، وتدبر معانيها، واستشعار ما تُعطي من أحاسيس، ولمح لتوقيت نزولها وما يسبقه وما يتبعه، فإنني لم أذكرها استزادة في حجم الكتاب، بل هي أساس في مادة السيرة، بل إن محاجة النبي صلى الله عليه وسلم لمشركي مكة وما قاله لدعوتهم إلى الله يكاد يكون جميعه في القرآن فقط".

ويستطرد قائلا: "هذه نبذة سريعة آثرت طرحها؛ لما لمسته من حاجة القراء إلى لفت انتباههم إليها، حتى لا يمروا على الآيات مرورا سريعا، أو يملوا من كثرة سياقها.."[٢].

---

١ مقومات التصور الإسلامي لسيد قطب ص ٤٠.

٢ صحيح السيرة النبوية المسماة بالسيرة الذهبية للشيخ محمد بن رزق الطرهوني، ٣٠٤/٢.

اختبار ثان:

فإذا أردت اختبارا ثانيا يشعرك بالقدر الحقيقي للقرآن في قلوبنا، وبالمسافة الكبيرة التي تفصلنا عنه؛ فتخيل نفسك وقد اعتراك شعور بالاحتياج إلى موعظة ترقق قلبك، فذهبت إلى مكتبتك، ووقفت تتأمل ما فيها من كتب الرقائق والمواعظ، فهل ستختار القرآن ليقوم بهذه الوظيفة، أم ستختار كتابا آخر؟!

الإجابة عندك...

لقد كان الجيل الأول يُدرك أن من أهم أسباب ضلال اليهود والنصارى هو انشغالهم بكتب علمائهم على حساب التوراة والإنجيل، لذلك كانوا حريصين على ربط الأجيال الجديدة بالقرآن، وكانوا يتألمون أشد الألم عندما يجدون من ينتظر ويهتم لسماع كلامهم أكثر من انتظاره لسماع القرآن، ولقد حدث لسلمان الفارسي موقف يؤكد هذا المعنى:

فقد سمع الناس بالمدائن أن سلمان بالمسجد فأتوه، فجعلوا يثوبون إليه حتى اجتمع نحو من ألف، فقام فجعل يقول: اجلسوا اجلسوا، فلما جلسوا فتح سورة يوسف يقرؤها فجعلوا يتصدعون ويذهبون حتى بقي في نحوٍ من مائة، فغضب، وقال: **الزخرف من القول أردتم؟ قرأت عليكم كتاب الله فذهبتم**[1].

اختبار الفاتحة:

أما الاختبار الثالث فهو متاح لك أن تقوم به في أي وقت تشعر فيه بألم أو مرض، وذلك بأن تقرأ على موضع الألم أو المرض سورة الفاتحة..

ولقد قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقراءتها على رجل قد لُدغ بعقرب فبرئ..

عن أبي سعيد الخدري قال: نزلنا منزلا فأتتنا امرأة فقالت: إن سيد القوم سليم[2]، فهل من راق؟ فقام معها رجل منا، ما كنا نظنه يُحسن رُقية، فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرئ، فأعطوه غنما وسقونا لبنا، فقلنا: أكنت تُحسن رقية؟ فقال: ما رقيته إلا بفاتحة الكتاب، قال: فقلت: لا

[1] حلية الأولياء ٢٠٣/١.

[2] سليم: أي لُدغ من عقرب ونحوه، يسمون الملدوغ بذلك تفاؤلا بشفائه.

تحركوها (يعني الغنم) حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم، فأتينا النبي صلى الله عليه وسلم فذكرنا له ذلك، فقال: "**ما كان يدريه أنها رقية؟ اقسموا، واضربوا لي بسهم معكم**"[١].

قم أخي بإجراء هذا الاختبار عشرات المرات وانظر بنفسك إلى النتيجة.

فإن قلت: إن ما حدث للصحابي حالة خاصة لا ينبغي القياس عليها، جاءك الرد من الإمام ابن القيم حيث يقول: فما تضمّنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله، وتفويض الأمر كله إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤاله مجامع النعم كلها، وهي الهداية التي تجلب النعم، وتدفع النقم؛ من أعظم الأدوية الشافية الكافية، ولقد مرَّ بي وقت بمكة سقِمت فيه، وفقدتُّ الطبيب والدواء فكنت أتعالج بها، آخذ شربة من ماء زمزم وأقرؤها عليه مرارا، ثم أشربه؛ فوجدت بذلك البُرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غاية الانتفاع[٢].

ويوضح الإمام الزركشي شروط الاستشفاء بالقرآن فيقول:لن ينتفع به إلا من أخلص لله قلبه ونيته، وتدبر الكتاب في عقله وسمعه، وعمّر به قلبه، وأعمل به جوارحه، وجعله سميره في ليله ونهاره، وتمسك به، وتدبره، هنالك تأتيه الحقائق من كل جانب، وإن لم يكن بهذه الصفة كان فعله مكذبا لقوله[٣].

ومن الاختبارات كذلك:

أننا حين نبحث في موضوع (ما) فإننا نفكر فيه، ونقرأ ما كُتب عنه حتى تتضح الفكرة أمامنا، ثم نعود إلى القرآن فنستشهد بآياته على ما قررنا من رأي وفصلنا من حكم، ولا نبدأ عملنا بقراءة القرآن فنبحث عما نسأل، ونستفهمه فيما لا نفهم حتى نستقي منه تصورنا..

والدليل على ذلك أن الكتب التي نكتبها أو نقرؤها لا يعدو القرآن فيها أن يكون دليلا أو شاهدا، لا صلب الموضوع، بحيث لو أزلته من البحث لما كان الكلام ينقصه سوى بعض الأدلة، حتى إن أبناءنا في المدارس بعد أن ينتهوا من كتابة مواضيع الإنشاء يتكلفون وضع آية أو آيتين في أول الموضوع أو آخره بهدف استكماله من الناحية الشكلية.

أما أن يكون القرآن هو حلبة البحث وموضوع المادة، والدليل والمدلول؛ بحيث لو زال لاختل المعنى ولم يتضح المراد منه فلا تجد هذا بيننا. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

[١]البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب:٤٧٢١، ومسلم كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية:٥٨٦٥.

[٢] زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ٤/١٧٨.

[٣]البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/٤٣٦.

نعم، نحن محرومون:

هل تأكدت – أخي – بأن القرآن في واد ونحن في واد آخر..

هل تأكدت أننا محرومون من الانتفاع به، وأننا لم ندخل إلى دائرة تأثيره الحقيقية؟

أشعر بك وأنت تتمتم قائلا: لقد اقتنعت عقليا بما ورد في هذه الصفحات، ولكني لا أشعر بهذا الحرمان، ولا أحس بتأنيب الضمير تجاه القرآن.

أحس بصدقك وأنت تكتشف حقيقة علاقتك بالقرآن، فما ذكرته أحسه في نفسي، فنحن لا نشعر بأن هناك مشكلة حقيقية في علاقتنا بالقرآن، وقد يعتبر البعض أننا في هذه الصفحات نُضخِّم الموضوع ونعطيه أكبر من حجمه.

أخطر صور الحرمان:

إن أخطر وأشد صور الحرمان؛ تلك التي تتلبس بنا في علاقتنا بالقرآن، وهي عدم الشعور بالحرمان، وإنها – بلا شك - لمن أشد العقوبات التي نُعاقب بها.

فنحن لا نستشعر الحرمان، بل نظن أننا من أهل القرآن وحملة رايته {وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ} [المجادلة:١٨]

الفصل الثاني

ماذا نخسر
بعدم انتفاعنا بالقرآن؟!

الفصل الثاني

ماذا نخسر بعدم انتفاعنا بالقرآن؟

لعل البعض حين يقرأ الصفحات السابقة يتساءل فيقول: إننا نُهمل أشياء كثيرة، فلماذا التركيز الشديد على القرآن دون غيره؟ ما الذي يضيرنا من عدم الانتفاع به؟

الجواب عن هذه التساؤلات لا تسعها هذه الصفحات، ولكننا – بإذن الله – سنتحدث باختصار عن أهم أشكال الخسارة التي يخسرها الفرد ومِن ثَم الأمة، والتي يقف على رأسها: **عدم إمكانية حدوث التغيير الحقيقي**، فالله عز وجل أخبرنا في كتابه بأنه لن يغير حالنا من المرض والضعف والمهانة التي نعاني منها إلى الصحة والقوة والعزة إلا إذا غيرنا ما بأنفسنا: {**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**} [الرعد: ١١].

وتغيير ما بالنفس ينبغي أن يشمل مكونات الإنسان الأربعة:

- تغيير ما بالعقل من مفاهيم وتصورات ومعتقدات خاطئة وإعادة تشكيله من جديد وفق التصور الإسلامي الصحيح.
- وتغيير ما بالقلب من غلبة الهوى وحب الدنيا، وتمكين نور الإيمان منه حتى يصلح حاله ويصير قلبا سليما.
- وتغيير النفس بتزكيتها وتطهيرها من أي مظهر من مظاهر تضخمها وسيطرتها على القلب، وعلاجها من الشح المجبولة عليه، وإلجام نزواتها في التطلع نحو التصدر والعلو في الأرض، ونهيها عن الفساد والإفساد.
- وأما بخصوص البدن، فالتغيير يشمل ضبط حركته وتعويده على القيام بالعمل الصالح الذي يرضي الله مع بذل الجهد الدائم في سبيل إعلاء كلمته.

ولكي ندرك صعوبة – إن لم يكن استحالة – إجراء عملية التغيير الحقيقي والشامل لمكونات الإنسان الأربعة بدون القرآن؛ علينا أن نتعرف على تأثير البيئة الأولى على تكوين الشخصية، ودورها في جعل عملية التغيير بعد ذلك أمرا يكاد يكون مستحيلا. ولأهمية هذه المسألة سنتناولها – بإذن الله – بشيء من التفصيل في الأسطر القادمة.

البداية:

.. عندما يولد الطفل - أي طفل - فإنه يولد وهو لا يعلم شيئًا عن الحياة، ولا توجد لديه تصورات أوعلم مسبق، فالمحتوى التكويني الذي يحدد ملامح شخصيته يكاد يكون فارغًا ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا**﴾ [النحل: ٧٨].

لا يعرف الضار من النافع.. ولا الخطأ من الصواب.. ليس لديه مقياس يقيس به الأمور .

يشعر بالعطش فيبكي ويبكي ويصرخ، وبعد مجهود منه في البكاء والصراخ تُحضر أمه الشيء الذي يُذهِب عطشه بينما لا يجد أباه يفعل ذلك، بل إذا أراد الشرب يقول شيئًا محددًا مختلفًا عن البكاء فيجد أن أمه تأتيه بمثل ما شربه، فيزداد شغفه ورغبته في التعرف على ما قاله ليفعل مثله.

.. قد ينام على سريره بجوار النافذة فيستيقظ بسبب الهواء المتسرب منها فيبكي ويصرخ، دون أن يعرف أحد سبب بكائه وصراخه، ثم يأتي أبوه فيقول شيئًا ما، فتقوم أمه مباشرة بغلق النافذة، ليحدث له - نتيجة تكرار مثل هذه المواقف - انبهار شديد بأبويه، ويعتبر أنهما الباب الأعظم للولوج إلى العالم، فيُسلم لهما قياده، ويأخذ منهما كل شيء.. يأخذ منهما الطقوس واللغة– أيًّا كانا – ويأخذ منهما طريقة تعاملهما مع الأشياء المختلفة، فما يُقدِّسونه يُقدِّسه، وما يُحقرونه يُحقِّره.

يأخذ منهما المفاهيم والتصورات المختلفة عن مفردات الحياة، ويأخذ منهما كذلك الأخلاق، حسنها وسيئها، فعلى سبيل المثال :

يجد أباه حريصًا على المال، مدققًا في حساب كل شيء، فهو يُقِيم الدنيا ولا يُقعِدها إذا ضاع منه شيء ولو كان يسيرًا، فيوقن أن هذا هو الصواب في التعامل مع المال وأن عليه أن يفعل ذلك .

فإذا كان الأب كريمًا يُنفق على الفقير والمحتاج.. سمحًا في بيعه وشرائه، فإن الرسالة التي ستصل إليه سيكون مفادها أنه ينبغي أن نتعامل هكذا مع المال .

وإذا ما وجد أباه يُكثر الحديث عن نفسه، وإنجازاته، وتاريخه، وتاريخ أسرته أو قبيلته، فهذا هو الصواب – في نظره – ومِن ثَمَّ ينبغي عليه أن يكون كذلك، وبخاصة أنه قد شاهده يمارس هذه الأفعال عشرات بل مئات المرات، فتوضع هذه التصورات عن التعامل مع المال أو النفس في المكان المُخصص لها في المحتوى التكويني لشخصيته، لتُشكل بعد ذلك مُنطلقًا أساسيًّا لسلوكه وبخاصة في أفعاله التلقائية.

التوأمان:

لو افترضنا أن رجلًا من بلد ما قد تزوج امرأة من بلد آخر، وحملت الزوجة وأنجبت ذكرين توأمين، ثم حدثت بعد الولادة بعض المشكلات بين الزوجين تمَّ على إثرها الانفصال ، فاتفقا على أن يأخذ كل واحد منهما طفلًا من التوأمين، وانقطعت الصلة بينهما بعد أن ذهبت المرأة إلى بلدها، وبعد عشر سنوات تقابل الطفلان، فماذا تتوقع منهما ؟ هل سيكونان متشابهين في الطباع والسلوك والاهتمامات كما هما متشابهان في الشكل ؟

.. يقينًا لن يكونا كذلك لاختلاف المصدر الأول والأساسي للتلقي عند كل منهما، فسنوات العمر الأولى هي أهم سنوات التكوين عند الإنسان، ففيها تمتلئ فراغات المحتوى التكويني والتي تحدد ملامح شخصية الفرد، ومعتقداته، ومقدساته وتصوراته لمفردات الحياة، وكيفية التعامل مع المال، والنفس، والآخرين،... إلخ.

وكلما امتلأ المحتوى التكويني قلَّ انبهار الطفل بمن أمامه، فانبهاره الشديد في البداية كان بسبب وجود الفراغ في المحتوى التكويني لشخصيته، ولكن بمرور الوقت تمتلئ الفراغات شيئًا فشيئًا، ومِن ثَمَّ يصبح لديه رصيد خاص به من تصورات وطرائق في التعامل مع معطيات الحياة المختلفة، فإذا ما رأى شخصًا يفعل شيئًا آخر غير الذي تكوَّن وشبَّ عليه تجاه أمر (ما) فإنه لا ينبهر به ولا يأخذه عنه، وهكذا يقل تدريجيًّا استعداده للتلقي من الآخرين مهما كانوا يحملون من قيم عظيمة .

وكلما تقدم في العمر أكثر كلما رسخ وتجذَّر المحتوى التكويني لشخصيته في جوانبها المختلفة من تصورات ومعتقدات تجاه نفسه وتجاه الآخرين، لتصبح إمكانية التغيير في البنية الأساسية لشخصيته أمرًا غاية في الصعوبة، فالأماكن التي تتطلب التغيير قد رسخت فيها المفاهيم والمعتقدات والتصورات الخاطئة وأصبحت كالصخور – أو أشد – في صلابتها، ومِن ثَمَّ فإن أي جهد يُبذَل في اتجاه التغيير – وإن كان جُهدًا مؤثرًا – إلا أن تأثيره سيكون محدودًا، وغايته أن يستقبله بعقله المدرك فيقتنع به، دون أن يدخل هذا الاقتناع لعمق شخصيته، ومحتواه التكويني فتصبح تلك القناعة كالطلاء على الصخر.. يُغير لونه ولا يُغير أبدًا طبيعته، وتتجلى تلك الحقيقة تمامًا عند المحكَّات العملية، والممارسات الحياتية التلقائية حيث يسقط فيها هذا الطلاء الخارجي بسهولة، وتبقى الشخصية على ما تكونت عليه .

وينشأُ ناشئُ الفتيانِ مِنَّا   على ما كانَ عَوَّدهُ أبوه

ويؤكد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: « ما من مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[١].

هكذا يقرر الحديث أن الأبوين هما اللذان يشكلان – إلى حد كبير – ملامح شخصية ابنهما ومعتقداته: فيبقيانه على فطرته مسلمًا أو يغطيان عليها بأن يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

كما يجعلانه متواضعًا أو متكبرًا .. كريمًا أو بخيلًا .. رفيقًا أو غليظا، وهذا أمرٌ يشهد به الجميع، ومن أمثلة ذلك تلك الكلمات التي استقبلت بها بنو إسرائيل مريم الصديقة عندما دخلت عليهم وهي تحمل عيسى عليه السلام: {يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا} [مريم: ٢٨]

فإذا أضفنا إلى هذا العامل – المؤثر غاية التأثير – العوامل الأخرى التي تتفتح عين الطفل عليها وتشكِّل موردًا إضافيًّا لتشكيل محتواه التكويني، والتي يأتي على رأسها وسائل الإعلام – وبخاصة المرئية– والمدرسة، والبيئة المحيطة من أقارب وجيران وأصدقاء؛ لزاد تأكدنا على أن الشخصية التي يتعامل معها الموجهون التربويون والتي تجاوزت سن المراهقة قد تم تشكيل أغلب مكوناتها الأساسية بأمور مختلطة في التصورات والعقائد والقيم، وأن هذه الأمور يزداد تجذرها ورسوخها كلما تقدم العمر ومارسها المرء مئات وآلاف المرات.

هل هي دعوة لليأس؟

لو فكرنا في هذاالأمر لوجدنا أنه من الصعب النجاح في عملية التغيير الداخلي للأفراد مهما بُذِل فيها من مجهود، وذلك بسبب اكتمال – أو شبه اكتمال – المحتوى التكويني عند الأفراد، وعدم وجود فراغات أساسية في تكوين الشخصية يُمكن للتربية الصحيحة أن تملأها، ولو وُجِدت لكانت ضئيلة النسبة ضيقة المساحة بحيث لا تتسع لكي تحل بداخلها قناعات ومبادئ أخرى..

لو فكرنا في هذا كله لخلصنا بأن أمر إعادة بناء الشخصية المسلمة غاية في الصعوبة إن لم يكن مستحيلًا .

ولعل إدراك أبعاد وخطورة هذه المسألة يجيب على تساؤلات الكثيرين عن عدم ظهور الثمار الإيجابية للأعمال التربوية التي تهدف إلى تغيير الفرد على الرغم من الجهد الكبير المبذول فيها..

---

١ متفق عليه: **البخاري**، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض الإسلام على الصبي؟: ١٢٩٢، **ومسلم**، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار: ٦٩٦٢.

..ويجيب كذلك على تساؤلهم: **لماذا ينكشف المستوى الحقيقي للفرد عند تعرضه لبعض المحكات العملية، كأن يُمسَّ رزقه، أو يواجه نقدا أو نصحا من غيره، أو يتعرض لفتن الدنيا واختباراتها؟!**

والجدير بالذكر أن هناك نماذج طيبة صالحة مصلحة موجودة – بفضل الله – في الأمة وبين العاملين في حقل الدعوة والتربية، ولكنها **أولًا**: قليلة، **وثانيًا**: أن بنيتها الأساسية وتكوينها الصحيح في البيئة الأولى له دور كبير في وصولها لهذا المستوى بفضل الله، **وثالثًا**: اهتمامهم الشديد والمستمر بتربية أنفسهم، وتزكيتها وتعاهدها بالتطهير والعلاج.

علينا أن نتساءل:

كيف تتزلزل الصخور المتجذرة في محتوانا التكويني وتتحطم، ويُعاد بناؤها من جديد على أساس العبودية لله عز وجل، ومعاني الإسلام الصحيحة؟

يقينًا.. يوجد حل:

على الرغم من الصعوبة القصوى للتغيير الحقيقي للفرد بعيدا عن فترة التكوين الأولى، إلا أنه (يقينًا) توجد حلول عملية وواقعية للتغلب على هذا الأمر.

ومبعث هذا اليقين عدة أمور:

أولها: أن من مقتضى رحمة الله بعباده: علو شأن الأمة الإسلامية وعودتها إلى مكانها الطبيعي في قيادة البشرية مرة ثانية، لاسيما بعد أن وصلت الأحوال في أغلب أنحاء الأرض إلى هذا المستوى غير المسبوق من الانحلال والضياع والبعد عن الله، ومما يؤكد هذا المعنى أن هناك نصوصًا من القرآن والسنة تُبشرنا بذلك كقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[الصف: ٨].

وقوله: {**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**} [التوبة: ٣٣]

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًّا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبريًّا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت**»[١].

١رواه أحمد في المسند، من مسند النعمان بن بشير رضي الله عنه، والحديث عن حذيفة يرفعه: ١٨٤٣٠، والبزار ، من مسند حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: ٢٧٩٦، وحسنه الأرناؤوط. والعاض: الظالم المتعسف.

والمتأمل للحديث من ناحية، وواقع الأمة الحالي من ناحية أخرى يجد أن المرحلة القادمة – بإذن الله – هي مرحلة « الخلافة على منهاج النبوة».

ثانيًا: أن الله عز وجل وعدنا أن يُغير ما بنا إذا غيرنا ما بأنفسنا ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

فمادام الله عز وجل قد ربط تغييرنا بتغيير ما بأنفسنا فمعنى ذلك أننا نقدر – بإذنه سبحانه – على القيام بهذا التغيير، وأن هناك وسائل أتاحها لنا من شأنها أن تقوم بزلزلة كل تصور ومحتوى خاطئ في البنية الأساسية للشخصية، فحاشا لله أن يُطالبنا بشيء لا نستطيع القيام به .

ثالثًا: أن جيل الصحابة كان قبل إسلامه أسوأ بمراحل من حالنا الآن، ومع ذلك فقد تغيروا – بفضل الله – تغيُّرًا جذريًّا بعد إسلامهم وسادوا الأرض في خلال سنوات معدودة، ولم يكن ذلك التغير مرتبطًا بوجود شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، والدليل على ذلك أنهم انطلقوا في مشارق الأرض ومغاربها بعد وفاته يبلغون رسالة الله، ويُقيمون الحُجة على الناس، ففتح الله بهم وأزال ملك فارس والروم...

التغيير المنشود:

.. إن ما حدث مع جيل الصحابة من تغيير، ومِن ثَمَّ تمكين، لا ينبغي أن نمر عليه دون الوقوف الطويل أمامه، فهو النموذج الصحيح على مر التاريخ للتغيير وللتمكين الذي يريده الله عز وجل للأمة.

فنحن لا نُريد انتصارًا وقتيًّا كما حدث مع جيل صلاح الدين، ثم انقلبت الأمور بعد وفاته فدخل أبناؤه، وأشقاؤه في صراع دفع بعضهم إلى الاستعانة بالصليبيين على إخوانه.

ولا نُريد تمكينًا مرتبطًا بجيل من الموجهين التربويين– كما حدث في دولة المرابطين – والتي تأثرت تأثرًا سلبيًّا بوفاتهم وسرعان ما سقطت..

بل نُريد تمكينًا مستمرًا يربط الأفراد بالمنهج المؤثر أكثر من ربطهم بالموجهين التربويين، وليس معنى هذا التقليل من شأن الموجه التربوي، ولكن المقصد هو إعادة ترتيب العملية التربوية التي تجعل الفرد يدور في فلك المنهج المؤثر، ويدور معه الموجه التربوي فيتابعه ويتعرف على تأثير المنهج عليه، فيُقوّم ما يستحق التقويم، ويضبط ما يستحق الضبط {**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**} [إبراهيم: ١].

نقطة البداية:

إن نقطة البداية الصحيحة للتغلب على هذه التحديات هو الشعور الشديد بالخطر، والتقييم الصحيح للواقع، والوقوف على التحديات الحقيقية التي تواجه عملية التغيير، والبحث في جيل الصحابة عن الكيفية التي وصلوا بها إلى هذا المستوى الذي جعلهم مؤهلين لتلقي نصر الله عز وجل .

نظرة واقعية:

إننا الآن أمام واقع في غاية التعقيد:

.. مؤامرات عالمية لطمس الهوية الإسلامية، وتمييع المعاني الأصيلة وإفراغها من مضمونها داخل نفوس المسلمين..

.. سماء مفتوحة، وفضائيات تبث السموم، وتضغط على الغرائز، وتدفع نحو السلبية وعبادة الذات والشهوات.

.. ارتفاع تكاليف إدارة الحياة من جهد ومال ووقت مما يستهلك الفرد، سواء كان ذلك الفرد هو القائم على العملية التربوية (الموجه التربوي)، أو المتلقي.

..الفرد الذي يُراد تغييره قد تم تكوينه في الصغر، وأصبح محتواه التكويني في البنية الأساسية شبه مكتمل، ومن ثم فإن الجزء المتاح للتلقي هو الجزء الفارغ في المحتوى التكويني، وفي الغالب تكون نسبة هذا الجزء ضئيلة للغاية، ومن ثم فلن تحقق محاولات الإصلاح أهدافها في التغيير الحقيقي لأن المساحة المتاحة أمامها لا تكفي لإحداث التغيير المطلوب.

وفي نفس الوقت فإن المحتوى التكويني قد تجذرت فيه المعتقدات والتصورات منذ الصغر وأصبحت كالصخور الصلبة التي لا يمكن أن تتغير.

.. نعم، في الغالب هناك في هذا المحتوى مساحة تمتلئ بالتصورات والقيم الصحيحة التي غرسها الأبوان في أبنائهما..

هذه المساحة تختلف نسبتها من شخص لآخر بحسب درجة صلاح وإيجابية الأبوين، ومع ذلك فإن السمة الغالبة لواقعنا تؤكد ابتعادنا عن الكثير من معاني الصلاح، مما يدل على غلبة التصورات والمعتقدات الفاسدة على محتوانا التكويني.

فما الحل إذن في هذه المشكلة الضخمة؟

كيف يمكن زلزلة كل معتقد وتصور خاطئ، واستبدال الصحيح به، لاسيما أن هذه الزلزلة تحتاج إلى قوة جبارة خارقة تحطم الصخور الرواسي، وتعيد بناء المحتوى التكويني على الأساس الإسلامي الصحيح؟

معنى ذلك أن البحث عن الحل ينبغي أن يكون في اتجاه التفكير في إمكانية إيجاد مثل هذه القوة الجبارة المزلزلة.

وهنا تبرز أهمية التذكير بحقيقة أن الله عز وجل عندما طالبنا بتغيير ما بأنفسنا، فلقد طالبنا وهو يعلم – سبحانه – بأن وسائل التغيير متاحة أمامنا.

طالبنا الله – سبحانه – بالتغيير، وهو العليم الخبير بالتحديات والصعوبات التي تواجهنا {**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**} [الملك: ١٤].

فيقينا أن تلك القوة الخارقة الجبارة موجودة.

.. نعم، قد نكون غافلين عنها، غير منتبهين لها كحالنا مع كثير من آيات الله {**وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**} [يوسف: ١٠٥]، لكنها موجودة.. يقينا موجودة.

عناصر العملية التربوية:

من المفترض أن العملية التربوية تتكون من ثلاثة عناصر رئيسة تهدف إلى تغيير الفرد (المُتلقي) هذه العناصر هي: الموجه التربوي، والمنهج، والبيئة أو الوسط المحيط بالفرد..

هذه العناصر الثلاثة تعمل عملها في السنوات الخمس الأولى للطفل ويكون بطلَها الأبوان (الموجه التربوي) – كما أسلفنا – وكلما زاد العمر يقل الانبهار بالأشخاص، وذلك لامتلاء المحتوى التكويني بالمعتقدات والتصورات التي استقبلها الفرد من أبويه ومن الوسط المحيط به.

فإذا ما تجاوز الفرد مرحلة المراهقة فإن أمر تغييره من الصعوبة بمكان لأن محتواه التكويني شبه مكتمل، بل قد بدأ في التصلب والرسوخ.

لذلك فلو تربى فرد ما على الشُح والحرص على المال من خلال نشأته الأولى والوسط المحيط به؛ فإن من الصعب تغيير تعامله مع المال بعد سن المراهقة، حتى ولو قام على أمر تربيته أفضل المربين – إلا من شاء الله – لأن الأمر أكبر منه بكثير، فلقد تشرَّب الفرد حب المال والحرص عليه، وأصبح لهذا المعنى جذور عميقة في ذاته..

كل ما يمكن أن يفعله الموجه التربوي هو أن يجعله يقتنع بأهمية الإنفاق في سبيل الله، ويُحسن أداءه الشكلي في بعض المواقف، لكن تبقى الممارسة الحياتية اليومية كما هي، بل في الغالب يرى هذا الشخص في نفسه أنه غير شحيح أو حريص على المال، بل يعتبر نفسه عكس ذلك ويبرر تصرفاته بأنها من باب الاقتصاد في المعيشة ووضع كل درهم في مكانه الصحيح {**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ**} [البقرة: ١١، ١٢].

ومما يدعو للأسف أنه كلما جلس البعض لتشخيص الداء والإجابة عن السؤال الذي يتردد كثيرا وهو: لماذا لا يتغير حال الكثير من الأفراد على الرغم من الجهد الكبير الذي يبذل معهم؟... تجد أنهم يتوجهون باللائمة على الموجه التربوي وتقصيره، وأن الحل ينبغي أن يكون في اتجاه تقويته وتأهيله..

هذا تشخيص جيد لكنه لن يجدي نفعا بمفرده، وبدون وجود القوة الجبارة المزلزلة.

فإن كنت في شك من هذا فما عليك إلا أن تسأل نفسك: هل من الممكن أن ينجح تلميذ في الصف الأول الابتدائي – مهما كان نبوغه – في أن يقوم بتدريس مادة الفيزياء لطلاب الدراسات العليا في كلية العلوم؟!

إنه نفس الأمر – بل أشد – عندما نطلب من شخص أيا كان مستواه أن يؤثر في الصخور الصلبة العميقة الجذور في ذات أي فرد، ويغيرها على أساس الإسلام ومعانيه العظيمة.

.. نعم، قد يغير في المساحة الضئيلة المتبقية في محتواه التكويني، ولكن كم تبلغ نسبة هذه المساحة بالمقارنة بما تم تكوينه في بنية شخصيته الأساسية.

ناهيك عن ندرة وجود الموجه التربوي الميداني القدوة في ظل ظروف الحياة الراهنة، ولو توفر للقليل فلن يتوفر للكثير..

ولو تم – من الناحية الافتراضية – إعداد موجهين تربويين أكفاء يستوعبون جميع الأفراد، وعادت الأمة إلى صحتها في هذه الآونة، وتحقق وعد الله لها بتغيير حالها إلى الأحسن، فماذا سيحدث بعد وفاة هؤلاء الموجهين التربويين.

سيحدث كما حدث في المغرب بعد وفاة جيل الموجهين التربويين الذين أسسوا – بعون الله – دولة المرابطين حيث سقطت الدولة وانهارت، وكما حدث في تجارب كثيرة عندما انتفض المسلمون تجاه قضية (ما) كاحتلال بيت المقدس أيام الحملات الصليبية، فإذا ما انتهت القضية

وتحررت القدس، عادت الأمة إلى ما كانت عليه، واندفعت الأجيال اللاحقة نحو الدنيا فيزداد المرض، وتدخل الأمة في دائرة الغضب الإلهي فيسلط الله عليها الذل والهوان..

فهل نريد أن نكون كذلك؟

هل نريد شحذ الهمم، واستنفار الجهود التربوية التي تحقق التغيير في جيل من الأجيال فتتحسن أحوال الأمة نسبيا، وتُحّلُّ بعض مشكلاتها، ثم تعود الأمور إلى ما كانت عليه في الجيل الثاني والثالث بعد وفاة جيل الموجهين التربويين ؟!

هذا لو افترضنا أنه يمكن للموجهين التربويين أن يحدثوا تغييرا في أنفسهم أو في الآخرين في ظل امتلاء وتجذر محتواهم التكويني.

أم ترانا نريد تغييرا تمليه الأحداث والقوارع التي تمر بالأمة، فإذا انجلت تلك الأحداث عاد الناس إلى سابق عهدهم؟!

القوة المزلزلة:

إن الأمة مريضة بحب الدنيا، والشح المطاع، والهوى المتبع، والإعجاب بالنفس، ولن يصلح الله حالنا إلا إذا غيرنا ما بأنفسنا.. وأداة هذا التغيير الرئيسة هي (التربية).

ولا يمكن أن تنجح عملية التربية في أداء مهمتها بسبب وجود العوائق والتحديات التي تم ذكرها، والتي يقف على رأسها تجذر الشح المطاع والإعجاب بالنفس في ذات الفرد.

والحل الوحيد لهذه الإشكالية هو البحث عن قوة خارقة تقوم بإحداث الزلزلة في كينونة الإنسان ومحتواه التكويني.

فإن قلت: وهل توجد قوة بهذه الصفات لا نعرفها؟!

.. نعم، هناك قوة بهذه الصفات توجد بيننا ولا نعرف قدرها ولا قيمتها.. إنها قوة تأثير "القرآن" الجبارة.

.. هذه القوة لا يوجد لها مثيل على وجه الأرض، لكن الله عز وجل جعل مجال عملها الرئيس هو قلب وعقل ونفس الإنسان..

فلو سُمح لهذه القوة أن تتوجه إلى جبل لحطمته {**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**} [الحشر: ٢١].

ولو سُمح لهذه القوة أن تُحرك الجبال من مكانها وتسيرها لفعلت – بإذن الله – ..

ولو سمح لهذه القوة أن تُقطع الأرض لقطّعتها {**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى**} [الرعد: ٣١]، وجواب الشرط في الآية محذوف وتقديره: لكان هذا القرآن.

فقوة القرآن العظيم لا تضاهيها قوة على وجه الأرض.. هذه القوة الجبارة المزلزلة أودعها الله فيه لكي تصبح معجزته هي أعظم معجزة نزلت من السماء..

أعظم من معجزة موسى وعيسى وصالح عليهم السلام.

قال صلى الله عليه وسلم: "**ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**"[١].

وهي معجزة باقية ببقاء القرآن إلى يوم القيامة، ومجال عملها الأساس هو كينونة الإنسان.. فإذا ما تم تسليطها عليه؛ فإنها تحطم الصخور الصلبة في محتواه التكويني.. تحطم التصورات والمعتقدات الخاطئة، وتحرره من أسر أغلاله، وتعيد صياغته من جديد عبدا صالحا مُصلحا..

هذا القرآن هو الذي أعاد صياغة جيل الصحابة وصنع منهم ذلك الجيل القرآني الفريد..

.. وهذا القرآن هو المرشح الأول والمتفرد الذي يمكنه – بإذن الله – بناء الأمة من جديد وإعادتها إلى صحتها وعافيتها.

وضوح وصراحة:

من هنا نعلنها بوضوح وصراحة أنه لا يمكن أن يتم التغيير للفرد بصورة حقيقية، وعميقة، ومتوازنة، ومتكاملة، إلا بدخول قوة القرآن إلى ذات الإنسان، وأية وسيلة أخرى – مع أهميتها – إلا أنها لا يمكنها أن تفعل ما يفعله القرآن.

وغني عن البيان أن الكلام عن القرآن يشمل السنة النبوية بالتبعية، فالسنة شارحة للقرآن، مبينة لما أُجمل فيه {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: ٤٤]

..نعم، يمكن للوسائل الأخرى أن تكون وسائل إضافية تؤكد معاني القرآن وتشرح تطبيقاته، ولكنها بمفردها – بدون المعجزة التأثيرية للقرآن – لا تُحدث التغيير المنشود.. أتدري أخي لماذا؟

لأن منزل القرآن هو الذي خلقنا ويعلم سرائرنا ومشكلاتنا وأمراضنا وما نحتاج إليه.

---

[١] متفق عليه؛ في صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، حديث: ٤٩٨١، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس، حديث: ٢٣٩.

.. الذي أنزله هو رب العالمين، الذي يقوم على أمر تربيتنا وتعاهدنا بما يصلحنا {**قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**} [الفرقان: ٦].

يقول سيد قطب: إن الناس يخسرون الخسارة التي لا يعارضها شيء بالانصراف عن هذا القرآن، وإن الآية الواحدة لتصنع أحيانا في النفس حين تستمع لها وتنصت أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة[١].

وخلاصة القول أنه لن يتغير الفرد ولا الأمة ولن ينصلح حالها إلا إذا دخل القرآن بقوته المزلزلة إلى ذات الإنسان، وتم التعامل معه باعتباره الوسيلة المتفردة للتربية.

يقول محمد رشيد رضا: فصلاح هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها، ولقد صلحت أنفس العرب بالقرآن الكريم؛ إذ كانوا يتلونه حق تلاوته، فرفع أنفسهم وطهر قلوبهم، وأثر فيهم تأثيرا بالغا، وهذّب نفوسهم، وطهر عقولهم من خرافات الوثنية المُذلة للنفوس، ورفع أخلاقها، وأعلى هممها، ووصل بقلوبهم إلى ذروة التأثير والتأثر[٢].

---

[١] في ظلال القرآن ١٤٢٠/٣.

[٢] تفسير المنار، نقلا عن الإعجاز التأثيري في القرآن ص ١٠١، ١٠٢.

من نتائج عدم التغيير بالقرآن

لعدم الانتفاع بالقرآن في التغيير الحقيقي للفرد نتائج سيئة، تعرفنا على طرف منها في الأسطر السابقة، وإليك – أخي القارئ – طرفا آخر.

- **استمرار الفرقة بين المسلمين:**

عندما نبتعد عن القرآن لن يحدث التغيير الحقيقي، ومِن ثَم يستمر اختلافنا وتفرقنا، لأن أسباب الفرقة والاختلاف إما شبهات أو شهوات، إما جهل بالحق، وإما شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء برأيه.. والقرآن قادر – بإذن الله – أن يغير كل هذا وأن يجمع الأمة تحت رايته، كما حدث مع الجيل الأول: {**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا...**} [آل عمران: ١٠٣].

يقول صلى الله عليه وسلم: "**أبشروا أبشروا، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا**"[١].

- **استمرار الذل والهوان:**

من توابع عدم التغيير من خلال القرآن استمرار حالة الذل والهوان التي تعيشها الأمة، لأن رفعتها في الدنيا مرتبطة أولا: بتمثل رسالة الإسلام في أبنائها {**وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**} [آل عمران: ١٣٩]، وثانيا: بقيامها بواجبها العظيم تجاه البشرية، وهو إقامة الحق والعدل فيها والتمكين للدعاة إلى الله أن يبلغوا دعوته لجميع الناس دون ضغوط من أحد {**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**} [آل عمران: ١١٠].

وعندما تترُك الأمة القرآن، ولا يدخل أفرادها إلى دائرة تأثيره فإنهم لن يتغيروا، ولن تتمثل فيهم صفات أصحاب الرسالة، ومِن ثَم يحدث العكس، فيُترك الجهاد في سبيل الله، ويتصارع الناس على الدنيا وعلى تحصيل أسبابها، فيحق عليها العذاب من الله عز وجل بالذل والهوان.

فعندما ننتفع بالقرآن في التغيير يرفعنا الله إلى مكان القيادة في الأرض، وعندما نتركه ستجري علينا سنَّته الصارمة بالخذلان والذل والهوان، وهذا ما أخبرنا به محمد صلى الله عليه وسلم: " **إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويخفض به آخرين**"[١].

---

[١] أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب فضائل القرآن، باب في التمسك بالقرآن: ٣٠٦٢٨، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم: (٣٤)

ضياع البشرية:

إن الإسلام هو الدين الخاتم، ورسالة الله الأخيرة للناس، ولقد كلف سبحانه أمة الإسلام في كل زمان ومكان أن تقوم بتبليغه إلى جميع البشر على وجه الأرض لإقامة الحُجة عليهم، واستنقاذ كل من بداخله خير مخبوء ممن لا يمنعهم عن الإسلام إلا الجهل به.

ولقد كلف الله عز وجل أمة الإسلام كذلك بقيادة البشرية، وأن تقيم فيها ميزان الحق والعدل{**حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**} [البقرة: ١٩٣].

{**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**} [آل عمران: ١١٠].

وعندما تترك الأمة وظيفتها فماذا تظن أن يحدث للبشرية؟! أليس الضياع والشقاء والبؤس واستعلاء الظلم والفساد!!

فقل لي بربك أليس هذا هو الحادث الآن؟!

.. فكل يوم يمر والمسلمون في غفلة عن دينهم تخسر البشرية فيه خسارة فادحة، ويزداد شقاؤها وتعاستها، ولا حول ولا قوة إلا بالله..

غياب الربانية:

الربانية هي الاتصال الدائم بالله عز وجل، والتعلق التام به، فينعكس ذلك على مشاعرنا وعقولنا، فيكون سبحانه هو الأسبق لقلوبنا عند التعرض للشدائد والمضايقات..

الربانية تعني الربط الدائم لأحداث الحياة بالله عز وجل، وتعني كذلك الحضور القلبي الدائم معه سبحانه.

وهي شرط الولاية والعزة للفرد والأمة {**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ**} [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦].

وأفضل وسيلة لتحقيقها هي القرآن: {**كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**} [آل عمران: ٧٩].

---

[١] سبق تخريجه ص: ٣.

يقول خباب بن الأرت: تقرب إلى الله ما استطعت، ولكنك لن تستطيع أن تتقرب إليه إلا بكلامه.[1]

فإن لم ننتفع بالقرآن وندخل إلى دائرة تأثيره، وإن لم تحل روحه في قلوبنا فستغيب معاني الربانية، وسيقل بشكل مفزع وجود الربانيين في الأمة، وستعلو رايات المادية، وسترتفع قيمها الفاسدة، ويزداد الانجذاب نحو الأرض والطين.

- **القلق والاضطراب النفسي:**

قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} [طه: ١٢٤]

فالقرآن يجمع هَم القلب، ويوجهه نحو الله، وعندما نبتعد عنه تتفرق الهموم، ويزداد الشعور بالغم، والقلق والاكتئاب.

يقول العالم النفسي ديل كارنيجي في إحدى محاضراته لمّا ذهب إليه مريض نفسي مسلم: إني لأعجب لهؤلاء المسلمين كيف يمرضون مرضا نفسيا وبين أيديهم القرآن[2].

ويحكي لي أحد الأصدقاء المشتغلين بالدعوة عن تجربته في هذا الأمر فيقول: لقد كنت أتحرك بالدعوة ولكنني كنت أعاني من ضغوط نفسية دفعتني للذهاب لعيادة الطب النفسي، فنصحني الطبيب المعالج بتناول أقراص مضادات الاكتئاب، ففعلت ذلك لعدة سنوات، وعندما بدأت أقترب – قليلا- من القرآن بمعناه الحقيقي حدث تحول إيجابي في حالتي النفسية، وبفضل الله تركت تناول الدواء، ولم يحدث لي ما كان يحدث في الماضي، ولم لا وقد قال تعالى: {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**} [يونس: ٥٧]

---

[1] الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة حم السجدة: ٣٦٥٢.

[2] دع القلق وابدأ الحياة ، نقلا عن الإعجاز التأثيري في القرآن ص ٢٧١.

الفصل الثالث

لماذا حُرِمنا الانتفاع بالقرآن؟!

الفصل الثالث

لماذا حرمنا الانتفاع بالقرآن؟

القرآن.. ذلك الكتاب المقدس، والمعجزة الفذة؛ له منزلة عظيمة عند الله جل شأنه، وهو ما يستدعي منا التعامل معه بمهابة وإجلال وتقدير، وإن لم نفعل فالعقوبات تنتظرنا، والتي تبدأ بالحرمان من الانتفاع الحقيقي به، وتنتهي برفعه من الصدور والمصاحف كما سيأتي بيانه.

ونبدأ – بعون الله – الحديث عن قدر القرآن حتى ندرك حجم التقصير الذي وقعنا فيه تجاهه، وندرك كذلك أسباب حرماننا من الانتفاع به في التغيير.

قدر القرآن عند الله عز وجل:

القرآن الكريم له عند الله منزلة عظيمة، ولقد أخبرنا– جل شأنه – عن ذلك فقال: {**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**} [الزخرف: ٤]

قال قتادة: أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل[١].

ولقد أخبرنا سبحانه في كتابه عن بعض صفات القرآن ليعظم قدره ومهابته لدينا..

أخبرنا أنه كريم: {**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ**} [الواقعة: ٧٥، ٧٨].. فالقرآن الحكيم يخاطب كل إنسان بما يناسبه ويؤثر فيه كائنا من كان[٢]..

وأنه ذو مجد {**ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**} [ق: ١]، فوصفه بالمجيد يدل على بلوغ النهاية.. وسيع المعاني وعظيمها، كثير الوجوه، كثير البركات.. متناه في الشرف والكرم والبركة[٣].

وهو ذو شرف {**ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**} [ص: ١]

{**لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**} [الأنبياء: ١٠]

قال ابن عباس: فيه ذكركم: أي شرفكم.[٤]

---

١ تفسير ابن كثير ٢١٨/٧.

٢ عظمة القرآن للدوسري ص ١٨٥.

٣ المصدر السابق ص ١٩٣.

٤ ذكره ابن كثير في تفسيره: ١٦٦٦/٣، ورواه أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السنة ٦٣٣/٢ برقم: ١٤٩٨. والبيهقي في شعب الإيمان ١٦٣/٣ برقم: ١٥٠٢.

وأخبرنا أنه عظيم: {**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**} [الحجر: ٨٧]، فالقرآن هو النعمة العظمى، التي كل نعمة وإن عظمت فهي بالنسبة إليه حقيرة ضئيلة[١].

وأنه لا حديث يشبهه في حسنه {**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا**} [الزمر: ٢٣]

وأخبرنا – سبحانه أنه أحسن القصص {**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ**} [يوسف: ٣]

وأخبرنا أنه لاتنفد معانيه وعجائبه {**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**} [الكهف: ١٠٩].

يقول المحاسبي في حديثه عن قدر القرآن:

لقد سمَّى الله عز وجل نفسه فقال: {**عَلِيٌّ حَكِيمٌ**} [الشورى: ٥١]

وسمّى كلامه فقال: {**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**} [الزخرف: ٤]

ووصفه بالبركة: {**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ**} [ص: ٢٩]

وسماه برهانا، ونورا، ورحمة، وموعظة، وبيانا، وحقا، وبصائر، وهدى، وفرقانا، وشفاء لما في الصدور[٢].

{**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا**} [النساء: ١٧٤]

{**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**} [يونس: ٥٧]

{**هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**} [الجاثية: ٢٠]

وسماه سبحانه {**رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**} [الشورى: ٥٢]: فهو للقلوب بمنزلة الروح للأبدان، حيث يحييها حياة أبدية، وتنوين (روحًا) للتعظيم، أي روحا عظيمة.[٣]

القرآن في عيون السنة:

فإذا ما انتقلنا إلى السنة لوجدنا أحاديث عديدة تخبرنا عن قدر القرآن عند الله عز وجل:

---

١ عظمة القرآن للدوسري ص ١٩٦.

٢ فهم القرآن للحارث المحاسبي ص ٢٨٢.

٣ روح المعاني للألوسي ٣٠٨/١٨، نقلا عن عظمة القرآن للدوسري ص ١٧٠.

فمن أقواله صلى الله عليه وسلم:

"إنكم لا ترجعون إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه" [1]

وقال: **"ما من كلام أعظم عند الله من كلامه، وما رد العباد إلى الله كلاما أحب إليه من كلامه"**[2].

وقال: **"إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه"**[3].

وقال: **"القرآن أحب إلى الله من السماوات والأرض ومن فيهن"**[4].

وقال: **"لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته"**[5].

وعن عبد الله بن مسعود: إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض، فمن دخل فيه فهو آمن"[6].

وقال: ليس من مؤدب إلا وهو يحب أن يؤتى أدبه، وإن أدب الله القرآن[7].

قدر القرآن عند الملائكة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: " إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ قَالَ : فَإِذَا ": {فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ} [سبأ: ٢٣][8]

وعن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا تكلم الله تعالى بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيُصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم

---

[1] أخرجه الحاكم عن أبي ذر (٧٤١/١، رقم ٢٠٣٩) وقال: صحيح الإسناد، والترمذي عن جبير بن نفير مرسلا (١٧٧/٥، رقم ٢٩١٢) . وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ٩٦١.

[2] رواه الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب القرآن كلام الله: ٣٣٥٣، وضعفه حسين سليم أسد.

[3] رواه الدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل كلام الله على سائر الكلام: ٣٤٠٠، والترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن: ٢٩٢٦. وقال الترمذي: حسن غريب، وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن وهو مرسل.

[4] الدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل كلام الله على سائر الكلام: ٣٤٠١. وضعفه محقق الدارمي.

[5] أحمد في المسند، من مسند فضالة بن عبيد الأنصاري: ٢٣٩٩٢، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في حسن الصوت بالقرآن: ١٣٤٠، وابن حبان في صحيحه، باب قراءة القرآن:٧٥٤، والحاكم في المستدرك، كتاب فضائل القرآن، ذكر فضل سور وآي متفرقة٢٠٩٧. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الأرناؤوط في تحقيق ابن حبان: فيه ميسرة مولى أبي فضالة ذكره المؤلف في الثقات، وبقية رجاله ثقات. وضعفه في المسند.

[6] رواه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب فضائل القرآن، باب في التمسك بالقرآن: ٣٠٦٣٤.

[7] سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن: ٣٣٢١.

[8] رواه البخاري، كتاب التفسير، سورة الحجر: ٤٤٢٤.

جبريل عليه السلام حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم، قال: فيقولون: يا جبريل! ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق. فيقولون: الحق، الحق. [1]

فهذا كان حال الملائكة عند سماع الوحي في السماء، لذلك لا نستغرب حالهم واشتياقهم إلى سماعه في الأرض..

إن الملائكة تدرك قدر القرآن العظيم، وأنه كلام الله عز وجل، لذلك فهي تتلمس أماكن قراءته فتدنوا من قارئه، وتقترب منه حتى يصل الأمر بأن يضع الملك فاه إلى فم القارئ – إن كان مستاكا – وهذا ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"**إن العبد إذا قام يصلي أتاه الملك فقام خلفه يستمع القرآن ويدنو، فلا يزال يستمع ويدنو حتى يضع فاه على فيه فلا يقرأ أية إلا كانت في جوف الملك**"[2].

وما من بيت من بيوت الله يُقرأ فيه القرآن، وتُتدارس معانيه إلا حفت الملائكة المكان.. يقول صلى الله عليه وسلم: "**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله عز وجل يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّت بهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**"[3].

وتحكي لنا السيرة أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى فَقَرَأَ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا.

قَالَ أُسَيْدٌ: فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا.

قَالَ: فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَمَا أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي إِذْ جَالَتْ فَرَسِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:**اقْرَأ ابْنَ حُضَيْرٍ.**

قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ.**

---

[1] أخرجه أبو داود (٢٣٥/٤، رقم ٤٧٣٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ١٢٩٣.

٢ رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الطهارة، جماع أبواب السواك، تأكيد السواك عند القيام إلى الصلاة: ١٦٢. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٨٧/٣ برقم: ١٢١٣.

٣ صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، ٧٠٢٨.

قَالَ: فَقَرَأْتُ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:**اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ.**

قَالَ: فَانْصَرَفْتُ، وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ، فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ**"[1].

"والملاحظ من خلال الحديث أن أثر القرآن على الملائكة عظيم، فقد نزلت من السماء وصنعت مثل الظلة كأنها في هدوء واستقرار تستمع لقراءة القرآن من أُسيد"[2].

ويتوالى نزول الملائكة شهودا للقرآن، يقول صلى الله عليه وسلم: "تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر" ويقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: {**وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**} [الإسراء: ٧٨].

حاله صلى الله عليه وسلم عند تلقيه القرآن العظيم:

ومما يساعدنا – بإذن الله - على إدراك قدرالقرآن العظيم هو التعرف على حاله صلى الله عليه وسلم عند تلقيه الوحي، وكيف كانت معاناته ومكابدته وهو يستمع إليه، وذلك من ثقله الشديد.

فمن تلك الصور أنه **كان صلى الله عليه وسلم يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليه، فيفصم عنه وقد وعى ما قال**[3].

وعن زيد بن ثابت: **كان إذا نزل عليه الوحي ثقل لذلك، وتحدّر جبينه عرقا كأنه جُمان، وإن كان في البرد**[4].

وكان أثر ذلك الثقل يمتد إلى غيره، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم **كان إذا أُوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها فلم تستطع أن تتحرك.**

وتلت قول الله عز وجل: {**إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا**}[1].

---

١ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب نزول السكينة لتلاوة القرآن:١٨٩٥.

[2]الإعجاز التأثيري ٤٢٨.

[3]متفق عليه: **البخاري**، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:٢، **ومسلم**، كتاب الفضائل، باب عرق النبي في البرد وحين يأتيه الوحي: ٦٢٠٥، والصلصلة: صوت الرعد، أو الحديد إذا حرك، وهذا هو المراد هنا لوروده في روايات أخرى للحديث كما في مشكل الحديث لابن فورك ١/٤٥٠، والفائق في غريب الحديث للزمخشري: ٢/٣١٠.

[4]الطبراني في الأوسط ٨٨/٦ برقم: ٥٨٨٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: ٤٧٩٢

وعن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم **وكان إذا نزل عليه أخذته بُرحاء (حُمّى) شديدة، وعرق عرقا شديدا مثل الجُمّان، ثم سُرّي عنه،** فكنت أدخل عليه بقطعة الكتف، أو كسرة، فأكتب، وهو يُملي عليّ، فما أفرغ حتى تكاد رجلي أن تنكسر من ثقل القرآن، وحتى أقول: لا أمشي على رجلي أبدا، فإذا فرغت قال: "اقرأه"، فإن كان فيه سقْطُ أقامه، ثم أخرج به إلى الناس[2].

وفي صحيح البخاري عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ مَرْوَانَ بْنَ الحَكَمِ جَالِسًا فِي المَسْجِدِ، فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جَلَسْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَأَخْبَرَنَا أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ أَخْبَرَهُ: " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْلَى عَلَيْهِ: {**لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ**} [النساء: ٩٥] {**وَالمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**} [النساء: ٩٥] "، قَالَ: فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ يُمِلُّهَا عَلَيَّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَسْتَطِيعُ الجِهَادَ لَجَاهَدْتُ - وَكَانَ رَجُلًا أَعْمَى - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {**غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ**} [النساء: ٩٥][3]

ومما أورده الطرهوني في صحيح السيرة النبوية:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعالِج من التنزيل شدّة[4].

وكان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيُفصم عنه، وإن جبينه ليتفصّد عرقا[5].

وكانت تأخذه البُرحاء ويتحدر منه مثل الجمان من العرق، من ثقل الوحي[6].

وكان يتربد جسده ووجهه ويمسك عمن حوله ولا يكلمه أحد[7].

---

[1] الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، سورة المزمل: ٣٨٦٥، وصححه ووافقه الذهبي.

وجران الناقة: باطن عنقها، يقال: ألقنت جرانها إذا بركت ومدت عنقها إلى الأرض [من لسان العرب ٨٦/١٣]

[2] الطبراني في الأوسط ٢٥٧/٢ برقم: ١٩١٣، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٣٢/٢) : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون.

٣ صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة النساء: ٤٣١٦.

وقوله (يملها) أي: يملها أي يقرؤها عليه ليكتبها. و(ترض): من الرض وهو الدق والجرش. و(سري عنه) كشف وأزيل ما يجده من ثقل الوحي.

٤ البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: لا تحرك به لسانك لتعجل به: ٧٠٨٦.

[5] صحيح البخاري، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ٢،ويتفصد بمعنى يسيل.

[6] البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا: ٢٥١٨، ومسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبةالقاذف: ٧١٩٦.

والبرحاء: الحمى، والتحدر: نزول العرق، والجمان: اللؤلؤ. وتشبيه عرقه صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحي باللؤلؤ في كبر حجمه، كناية عن شدة ما كان يكابد.

[7] الطيالسي بسند حسن، ٣٤٧، ٣٤٨، ويتربد: أي يتلون.

ويكرب وينكس رأسه، وكان يُعرف ذلك منه[1].

ويدوم بصره، مفتوحة عيناه، ويفرغ سمعه وقلبه لِما يأتيه من الله[2].

وكان ربما نزل عليه الوحي وفَخِذُه على فَخِذِ غيره فتكاد ترضّها[3].

قدر القرآن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم:

كان صلى الله عليه وسلم يُدرك قدر القرآن الذي أكرم الله البشرية به، فكان يقول: "**ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**[4]"..

وكان شديد الحرص على تبليغه، فقد كان يعرض نفسه على الناس في الحج ويقول: "**ألا رجلٌ يحملني إلى قومه فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي**"[5].

وكان صلى الله عليه وسلم شديد الغيرة على القرآن، عن ابن عباس قال: "يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يُشَبْ؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيّروا بأيديهم الكتاب فقالوا: هذا من عند الله. ليشتروا به ثمناً قليلاً أفلا ينهاكم بما جاء من العلم عن مساءلتهم؟ "[6].

وكان صلى الله عليه وسلم يغضب ويشتد غضبه عندما يجد اختلافا بين الناس في القرآن: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: لقد جلست أنا وأخي مجلسا ما أحب أن لي به حُمر النَّعم، أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حَجَرة[7]إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضبا قد احمر وجهه يرميهم بالتراب

---

[1] مسلم، كتاب الفضائل، باب عرق النبي في البرد وحين يأتيه الوحي: ٦٢٠٧، ويكرب يعني: يأخذ بنفسه ويشتد عليه.

[2] أخرجه أبو يعلي، ١٥٦/٣ برقم: ١٥٨٣، عن الفلتان بن عاصم وإسناده صحيح.

٣ صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة النساء:٤٣١٦، رضَّ العظام: دقَّها، ورَضَّه رضًا كَسَره.

٤ متفق عليه؛ **البخاري**، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، حديث: ٤٩٨١، **ومسلم**: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس، حديث: ٢٣٩.

٥ أخرجه أحمد في المسند، مسند جابر بن عبد الله: ١٥٢٢٩، وأبو داود، كتاب السنة، باب في القرآن: ٤٧٣٤، والترمذي، أبواب فضائل القرآن: ٢٩٢٥، وابن ماجة، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة: ٢٠١، قال الترمذي: " حديث غريب صحيح، وقال الهيثمي(٣٥/٦): رجاله ثقات، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ١٩٤٧، والأرناؤوط في تحقيق المسند.

٦ رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها: ٢٥٣٩.

[7] أي على ناحية.

ويقول: "**مهلا يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم فردوه إلى عالمه**"[1].

وعن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه**"[2].

وكان صلى الله عليه وسلم في كثير من خطب الجمعة يكتفي بقراءة القرآن..

وعن أبي بن كعب - رضي الله تعالى عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قرأ يوم الجمعة (تبارك) وهو قائم يُذكِّر بأيام الله.

وفي رواية: سورة براءة.[3].

وعن أم هشام بنت حارثة قالت: ما أخذت {**ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**} [ق: ١] إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس[4].

وعن جابر بن سمرة قال: **كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قصدا، وخطبته قصدا، يقرأ آيات من القرآن، ويذكِّر الناس.**[5]

لقد بلغ حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على القرآن أن جعله وصيته.

عن طلحة بن مصرف قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى: أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء؟ قال: لا، قلت: فكيف أمر المسلمين بالوصية؟ قال: **أوصى بكتاب الله**[6].

وكان دائم التحفيز لأصحابه أن يتعلموا آيات القرآن فكان يقول:

---

١ مسند أحمد، مسند عبد الله بن عمرو: ٦٧٠٢، وصححه الأرناؤوط

٢رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم: ٤٧٧٣، ٤٧٧٤، ومسلم، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه:٦٩٤٨.

٣ مسند أحمد، من حديث المشايخ عن أبي بن كعب: ٢١٣٢٥، وسنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الاستماع للخطبة والإنصات لها: ١١١١، وصححه الأرناؤوط في تحقيق المسند.

٤ مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة: ٢٠٤٩.

٥ رواه أحمد، من حديث أبي عبد الرحمن عن مشايخه من حديث جابر بن سمرة: ٢٠٩٨٦، وأبو داود، تفريع أبواب الجمعة، باب الرجل يخطب على قوس: ١١٠١، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في خطبة الجمعة: ١١٠٦، قال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

٦ البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصايا وقول النبي صلى الله عليه وسلم وصية الرجل مكتوبة عنده: ٢٥٨٩، ومسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه: ٤٣١٤.

"أيكم يحب أن يغدو إلى بطحان أو العقيق فيأتي كل يوم بناقتين كوماوين زهراوين يأخذهما من غير إثم ولا قطع رحم؟" قالوا: كلنا نحب ذلك، قال:"فَلأَنْ يغدو أحدكم إلى المسجد فيقرأ أو يتعلم آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين، وثلاثٌ خير له من ثلاثٍ، وأربعٌ خير له من أربعٍ، ومن أعدادهن من الإبل"[١].

وكان يحفزهم كذلك على تعليم غيرهم، فمن أقواله صلى الله عليه وسلم: **"من علم آية من كتاب الله عزوجل كان له ثوابها ما تُليَت"**[٢].

---

١ مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه:١٩٠٩، "كوماوين": عظيمتا السنام . "زهراوين" سمينتين مائلتين إلى البياض.

٢عزاه السيوطي في جمع الجوامع (برقم: ٥٧٠٢) لابن لال عن أبان عن أنس، وخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٣٣٥) لأبي سهل القطان في حديثه عن شيوخه، وصححه.

الجزاء من جنس العمل

لقد اختص الله جل شأنه الأمة الإسلامية بأعظم نعمة، وأكمل وأتم رسالة، وأكبر معجزة؛ فقل لي بربك: أليس من المنطقي أن نتعامل معها بما يليق بقدرها؟!

أليس من الواجب والقرآن بهذا القدر أن نُقبل عليه بشغف واهتمام شديدين واحترام وتوقير عظيمين، وأن نهئ أنفسنا للقائه، وأن نصغي لخطابه إصغاءً شديدا، وأن نستمع إليه بهيئة التلقي للتنفيذ.

فإن كنا لا نفعل ذلك، ولا نقدره حق قدره، بل ولا عُشر معشار قدره، فما هي دلالة هذا التعامل؟ ألا يعكس عدم اهتمامنا به، وعدم احترامنا وتوقيرنا له؟!

ولكن هل ينتهي الأمر عند ذلك؟

للأسف لا، فالجزاء من جنس العمل {**فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**} [الصافات: ٨٧]

فلقد أكرم الله عز وجل هذه الأمة بأعظم معجزة، وأعظم رسالة، وتولى بنفسه حفظها، وأعلى شأنها {**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**} [الحجر: ٩] فإن لم يتعامل المسلمون مع القرآن بما يستحق؛ كان العقاب الفوري منه سبحانه بإبعادنا عن دائرة تأثير معجزته وعن الانتفاع بها، وبصرف روح القرآن عن ألفاظه عندما نقرؤها أو نستمع إليها، فتصير كالجسد بعد خروج الروح منه..

وكلما تمادينا في عدم احترام القرآن وتوقيره زادت العقوبة، وتباعدت المسافة بيننا وبينه، وهكذا، فالقرآن كتاب عزيز، يعامل الناس بقدر تعاملهم معه، فهو يُغلق منافذ أنواره وفيوضاته أمام المعرض عنه، والمستهين به.

.. نعم، هناك فارق كبير بين من يعرض عن القرآن غفلة وتكاسلا، وبين من يعرض عنه استهانة وتكذيبا، ولكن لأن النتيجة في الحالتين واحدة، وهي عدم الانتفاع بالآيات فإنه لا ينبغي لأحد أن يأمن على نفسه العقوبات التي توعد بها الله جل شأنه أولئك المعرضين عن كتابه، وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تقرر هذا المعنى:

- منها قوله تعالى: {**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**} [الكهف: ٥٧].

فالآية تخبرنا بأنه من ذُكِّر بآيات ربه فأعرض عن تنفيذ مقتضى هذه التذكرة ولم يتخذ خطوات عملية للقيام بها؛فإن الجزاء سيكون حجابا على قلبه ووقرا وثقلا في أذنه يمنعه من فهم الآيات بعد ذلك.

- ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: {**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا**} [الإسراء: ٤٥]، {**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**} [الإسراء: ٤٦].

ثم تذكر الآية التالية لهذه الآية السبب في هذه العقوبة – عقوبة عدم فهم الآيات - {**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى**} [الإسراء: ٤٧]..

أي كانوا يستمعون دون اهتمام، {**وَإِذْ هُمْ نَجْوَى**} بل كانوا يتناجون فيما بينهم ويتركون الإنصات للخطاب القرآني فكان الجزاء {**وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**} [الإسراء: ٤٦]

قال السري لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجاب؟ حجاب الغيرة، ولا أحد أغير من الله[١].

وقال: لما أعرض الناس عن سماع القرآن حُرِموا الانتفاع به

وقال قتادة: الحجاب المستور أكنة على قلوبهم أن يفقهوه، وأن ينتفعوا به، أطاعوا الشيطان فاستحوذ عليهم[٢].

وقال البقاعي في نظم الدرر: وقرا: أي ثقلا، فهم لا يسمعون حق السمع، ولا يعون حق الوعي[٣].

- وفي سورة التوبة قوله تعالى: {**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ**} [التوبة: ١٢٧]

فهؤلاء الذين ذكرتهم الآية عندما لم يهتموا بالقرآن، ولم ينتبهوا له، ولم يعطوه سمعهم، وكان كل همهم الانصراف دون أن يراهم أحد؛ كانت العقوبة: صرف الله قلوبهم عن فهم القرآن.

- ويتضح هذا المعنى أكثر وأكثر في قوله تعالى: {**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا**} [الإسراء: ٨٢].

---

[١] مدارج السالكين ٤٣/٣

[٢] تفسير الطبري ٤٥٧/١٧.

٣ نظم الدرر: ٤٨٣/٤

فالظلم هو وضع الشيء في غير مكانه، فعندما لا يقوم القارئ أو المستمع للقرآن بالتعامل معه بالطريقة اللائقة به فإن الجزاء من جنس العمل، وسيزداد خسرانا.. قال قتادة: ما جالس أحد القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قضاء، قضاه الله عز وجل[1].

فالقرآن جعله الله عز وجل سببا لزيادة الإيمان، والشفاء والهداية وتغيير من يُحسن الإقبال عليه، وجعله الله كذلك سببا لعقاب من يعامله بجفاء وعدم احترام وتوقير؛ بالذلة والهوان وقسوة القلب.

- وفي سورة الأعراف قوله تعالى: {**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا**} [الأعراف: ١٤٦].

قال سفيان بن عيينة: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي.[2]

وقال: أحرمهم فهم القرآن.

وقال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: أي سأمنع فهم الحجج الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق، أي كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل كما قال تعالى: {**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ**} [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى: {**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** } [الصف: ٥][3]

ويقول صاحب معارج التفكر ودقائق التدبر في تفسير قوله تعالى: {**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**} [الأعراف: ١٤٦]:

هذه العبارة تدل على سنة من سنن الله الدائمة في عباده، وهي إحدى أنظمة التكوين للنفس الإنسانية.

أي سأحوِّل وأرد عن إدراك آياتي، أو عن الاستجابة لما توجه له، الذين يتكبرون متعاظمين على نظرائهم من خلق الله تكبرا بدوافع نفسية باطلة.[4]

- وفي سورة فصلت قوله تعالى: {**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ**} [فصلت: ٤٤]. فالقرآن للذين آمنوا به

---

[1] القرطبي ١٠ / ٣٢١.

[2] تفسير الطبري ١١٢/١٣، وابن أبي حاتم ٥/ ١٥٦٧. بسند صحيح. والرواية التي بعدها: رواها الثعلبي في تفسيره ٩١٨/١.

[3] تفسير ابن كثير ٢٢٨/٢

[4] معارج التفكر ودقائق التدبر لعبد الرحمن حسن حبنكة ٥٥٣/٤.

وتعاملوا معه تعاملا صحيحا: هدى وشفاء، أما من لم يتعامل معه بالتقدير والمهابة فسيكون عليه كما يكون للأعجمي.. لا يفهم منه شيئا، وسيشعر عند استماعه وكأنه يناديه من مكان بعيد بسبب الوقر الذي في أذنيه.

يقول السعدي في تفسيره: والمقصود أن الذين لا يؤمنون بالقرآن؛ لا ينتفعون بهداه، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيرا، لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى.[1]

فإن قلت: ولكننا جميعا نؤمن بالقرآن، ومن ثم فلسنا المعنيين بهذه الآية، فهي موجهة لمن لا يؤمنون بالقرآن!!

الإيمان بالقرآن درجات، فالكثير من المسلمين يؤمن ويصدق بأنه الكتاب المنزل من عند الله على محمد صلى الله عليه وسلم، المتعبَّد بتلاوته، لكنهم لا يؤمنون بقدْرِه الحقيقي، وأنه القادر بإذن الله على تغيير المرء تغييرا جذريا ليكون من بعده صالحا مصلحا، هاديا مهديا، ولو كانوا كذلك لانكبوا عليه وتفرغوا له، ليهتدوا بهديه، ويستشفوا بشفائه، بإذن الله.

.. هذا الإيمان المحدود يحرم صاحبه من هداية وشفاء القرآن، ويقربه من المخاطبين بهذه الآية.

ولعلنا بذلك ندرك معنى قول الإمام البخاري: لا يجد طعمه إلا من آمن به. [2]

وقول مالك بن دينار: أقسم لكم، لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه. [3]

- ولئن كان عدم الإيمان بالقدر الحقيقي للقرآن سببا محوريا يستدعي الحرمان من أنواره، وهدايته، وشفائه بإذن الله، فإن ترك الجهاد سبب آخر يستدعي تلك العقوبات.

ومن الآيات التي تشير إلى هذا المعنى قوله تعالى:

{وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧)} [التوبة: ٨٦، ٨٧]

فالله عز وجل أمر عباده أن ينصروه على عدوه وعدوهم، ووعدهم إن فعلوا ذلك أن ينصرهم ويكرمهم {لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [التوبة: ٨٨]

[1] تيسير الكريم الرحمن ص ٧٥١.

[2] التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص: ٢٠٥.

[3] الدر المنثور للسيوطي ٢٩٨/٦.

وإن لم يفعلوا؛ غضب عليهم، وعاقبهم، ومن صور هذا العقاب: الحرمان من فهم القرآن.

وفي السنة:

تؤكد السنة في العديد من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم على أن الله عز وجل يحاسب الناس على قدر علاقتهم بالقرآن، فالجزاء من جنس العمل..

يقول صلى الله عليه وسلم: اقرؤوا البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة. [(١)]

ويقول صلى الله عليه وسلم: "**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك**.."[٢].

فالقرآن إما أن يُحاجّ عن المرء أمام الله عز وجل، فيشهد له، وإما أن يكون خصمه فيشهد عليه.. قال صلى الله عليه وسلم: "**القرآن شافع مُشفَّع، وماحِل مُصدَّق، من جعله إمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار**"[٣].

وفي هذا المعنى يقول أبو موسى الأشعري للقراء:

إنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَائِنٌ لَكُمْ أَجْرًا، وَكَائِنٌ لَكُمْ ذِكْرًا، وَكَائِنٌ عَلَيْكُمْ وِزْرًا، فَاتَّبِعُوا الْقُرْآنَ، وَلاَ يَتْبَعْكُمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعَ الْقُرْآنَ يَهْبِطْ بِهِ عَلَى رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ يَتْبَعْهُ الْقُرْآنُ يُزَخُّ فِي قَفَاهُ فَيَقْذِفْهُ فِي جَهَنَّمَ[٤].

وقال ابن مسعود: يجيء القرآن يوم القيامة فيشفع لصاحبه فيكون له قائدا إلى الجنة، أويشهد عليه؛ فيكون له سائقا إلى النار.[٥]

ويخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأثر الذي يتركه القرآن فيمن يتعامل معه، فإما أن يرفعه – إن أحسن التعامل معه – وإما أن يَخفضه إن حدث العكس.. يقول صلى الله عليه وسلم: "**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين**"[٦].

---

(١)

[٢]رواه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء:٥٥٦.

٣ رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب العلم، باب الزجر عن كتابة المرء السنن مخافة أن يتكل عليها دون الحفظ لها: ١٢٤، وصححهاالألباني في السلسلة الصحيحة: ٢٠١٩.قال ابن الأَثير أَي خَصْم مُجادل مُصدَّق.

[٤]ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب زهد الصحابة، كلام أبي موسى: ٣٥٩٦٧.

[٥]رواه الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن: ٣٣٦٨، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب فضائل القرآن، باب من قال يشفع القرآن لصاحبه يوم القيامة: ٣٠٦٧٦. قال حسين سليم أسد: إسناده حسن إلى الشعبي.

[٦]سبق تخريجه ص: ٣.

ويوصينا صلى الله عليه وسلم بتعاهد القرآن وعدم هجره حتى لا يذهب ويبتعد عنا.. قال صلى الله عليه وسلم: "**تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده، لهو أشد تَفَصِّيًا من قلوب الرجال من الإبل مِن عُقلها**"[1].

وتفصِّيا: أي ذهابا وابتعادا، وعقلها: العقال هو الحبل الذي تُربط به الدابة.

إن القرآن الكريم – كما يقول عبد الكريم الخطيب – لا يُقبل إلا على من يُقبل عليه، ولا يمنح خيره وبركته إلا لمن يعرف قدره، ويطرق بابه في أدب وولاء وخشوع[2].

ولما نزل قول الله عز وجل: {**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**} [آل عمران: ١٩٠] قام النبي صلى الله عليه وسلم يصلي، فأتاه بلال يؤذِنه بالصلاة فرآه يبكي، فقال: يا رسول الله، تبكي، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!، فقال: "**يا بلال، أفلا أكون عبدا شكورا**"، **ومالي لا أبكي وقد نزل عليّ الليلة {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}** [آل عمران: ١٩٠] ثم قال: "**ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر بها**"[3].

فإن كنت أخي القارئ لا تزال تتشكك في أن الله عز وجل يعاقبنا كأفراد وأمة كلما تعاملنا مع القرآن تعاملا خاطئا، ولم نقدره حق قدره؛ فاقرأ معي الأسطر القادمة.

---

[1] البخارى، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده: ٤٧٤٦، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الأمر بتعهد القرآن وكراهة قول نسيت آية كذا:١٨٧٧.

[2] نقلا عن مقالات الإسلاميين في رمضان لمحمد موسى الشريف ص ٤٤٤.

[3] صحيح ابن حبان، كتاب الرقائق، باب التوبة:٦٢٠، وصححه الألباني في الصحيحة: ٦٨.

أليست آيات القرآن من آيات الله؟

أمرنا الله عز وجل أن نعبده {**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**} [الذاريات: ٥٦]، وأن تكون هذه العبادة بالغيب {**مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ**} [ق: ٣٣]

{**إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**} [الملك: ١٢]

ولصعوبة ذلك، فلقد أرسل عز وجل لنا علامات ودلائل تدل عليه سبحانه وتعرفنا به، ونستدل من خلالها على أسمائه وصفاته وعلى ما وعد به في الآخرة.

هذه العلامات والدلائل التي تدل على الله تُسمى آيات وتملأ الكون كله، فالسماء والأرض وما فيهن، وتعاقب الليل والنهار، وأحداث الحياة كلها تدل على الله عز وجل، وهو سبحانه يريد منا حُسن التعامل معها، والتفكر فيها، والاعتبار من وجودها {**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**} [البقرة: ١٦٤].

فالآيات لها وظيفة هامة وخطيرة في إنشاء وبناء الإيمان بالله عز وجل، ولقد ذمّ سبحانه من أعرض عن آياته، وظلم بها، بأن يضعها في غير موضعها، سواء كان هذا الإعراض منشؤه التكذيب، أو الغفلة، وبلا شك أن هناك فارقا كبيرا بين الغافل المتكاسل وبين المكذب المستهزئ، ولكن لأن النتيجة المترتبة عليهما واحدة، وهي عدم الانتفاع بالآيات؛ فقد شملهما الذم، ونطمع في رحمة الله بألا يتساويا في درجة العقوبة..

وإليك – أخي القارئ – بعض الآيات القرآنية التي تؤكد ذلك.

يقول تعالى: {**فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**} [الأعراف: ١٣٦]

فالتكذيب والغفلة يؤديان للإعراض وعدم الانتفاع بالآيات، ومِن ثَم يكون ذلك سببا لاستدعاء العقوبة الإلهية.

ويقول جل شأنه {**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**} [الأعراف: ١٤٦]

فالغفلة عن آيات الله خطيرة؛ لأنها تؤدي بالشخص لنفس نتيجة التكذيب، ألا وهي الظلم بالآيات.

إن الظلم الذي يقع بآيات الله إنما يكون بعدم الانتفاع بها، فيؤدي ذلك إلى وضعها في غير موضعها الذي أراده الله لها، مما يستدعي العقوبة الإلهية..

تأمل قوله تعالى: {**انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ**} [الأنعام: ٤٦]، ويصدفون: أي يعرضون.

ثم اربط هذه الآية بقوله تعالى: {**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ**} [الأنعام: ١٥٧]

فالآية الأخيرة تخبرنا بأنه لا يوجد ظلم يضاهي التكذيب بآيات الله والإعراض عنها، وأن جزاء المعرض عن آيات الله لابد وأن يكون متناسبا مع هذا الإعراض.

إن الظلم بالآيات شديد عند الله.. تأمل معي هذا التهديد الرهيب: {**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ**} [السجدة: ٢٢].

العتاب الإلهي:

إن الآيات التي يرسلها الله لعباده لا تعد ولا تُحصى، كل ذلك ليتعرفوا عليه سبحانه فيعبدوه ويوقروه ويسبحوه بكرة وأصيلا، ولكن الناس لم تتعامل مع الآيات بما ينبغي لهم أن يتعاملوا به، فأعرضوا عنها إما بسبب الغفلة – وهو السبب الغالب–أو بالتكذيب، فكان العتاب الإلهي من الرب العظيم الذي لا يريد لعباده إلا الخير.

.. يريد منهم أن يعرفوه فيعبدوه فيدخلهم الجنة، ولكنهم أعرضوا عنه وعن آياته، يقول سبحانه معاتبا عباده: {**وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ**} [الأنعام: ٤]

{**وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ**} [يونس: ٩٢]

{**وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**} [يوسف: ١٠٥]

الخسارة العظيمة والعقوبات المتوقعة:

إن الخسارة التي يخسرها العبد نتيجة عدم انتفاعه بآيات الله شديدة، فلئن كان أشد الظلم هو الظلم بالآيات، فمن المتوقع أن تكون أشد الخسارة، وأشد العقوبة على من يقع في ذلك:

{**وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ**} [الأعراف: ٩]

{وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى(١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} [طه:١٢٤- ١٢٦]

فإن كان الأمر كذلك فلا ينبغي علينا أن نستغرب أي عقوبة تقع على من يظلم بآيات الله وذلك حين لا يتم الانتفاع بهاعلى الوجه الذي أراده الله لها.

أليست آيات القرآن هي آيات الله أيضا؟

فإن كان التعامل غير الصحيح مع آيات الله له خطورته وعواقبه الوخيمة، فلماذا نستثني القرآن من ذلك؟

أليست آيات القرآن أيضا هي آيات الله؟ ومِن ثَم ينطبق عليها ما ينطبق على الآيات الكونية، ويجري على من يُسيء التعامل معها مثل ما يجري على من يفعل الشيء نفسه مع الآيات الكونية؟

لنترك القرآن العظيم يجيب عن هذا التساؤل:

يقول تعالى: **{هُوَ الَّذِي <u>يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ</u> لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}** [الحديد: ٩]

{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ <u>تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ</u>} [آل عمران: ١٠١]

{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ <u>يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ</u> وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة: ٢]

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ <u>وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ</u> زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال: ٢]

فالقرآن يحتوي على آيات الله وينطبق عليه كل ما قيل آنفا من ضرورة الانتفاع بها، وذم من يغفل ويُعرض عنها، وينطبق عليه كذلك العقوبات المتوقعة لمن يظلم بآياته.

ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: **{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا <u>بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ</u> وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}** [الجمعة: ٥]

فالآية تخبرنا بأن الذي يُحمَّل كتاب الله ثم لم يحمله على حقيقته، كمثل الحمار يحمل أسفارا، فالحمار يستوي عنده أن يحمل كتبا تحوي علوما هامة، أو أن يحمل تِبنًا وعلفا، فهو لا يدري – في الحالتين – ماذا يحمل..

وفي المقابل نجد في الآيات التي ذكرت صفات عباد الرحمن أنهم: {**وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا**} [الفرقان: ٧٣].

فلابد من التعامل الصحيح مع آيات القرآن وإلا كانت العقوبات الإلهية في انتظارنا، والتي – للأسف –وقع الكثير منها علينا.

كتب حذيفة المرعشي إلى أخيه يوسف بن أسباط: بلغني أنك بعت دينك بحبتين، وقفت على صاحب لبن فقلت: بكم هذا؟ فقال: هو لك بسدس، فقلت: لا، بثُمن، فقال: هو لك، وكان يعرفك.. اكشف عن رأسك قناع الغافلين، وانتبه من رقدة الموتى، واعلم أنه من قرأ القرآن ثم آثر الدنيا؛ لم آمن أن يكون بآيات الله من المستهزئين[١].

آيات القرآن هي أعظم آيات الله:

إن آيات القرآن العظيم ليست فقط جزءا من آيات الله التي أتاحها لعباده كي يعرفوه ويعبدوه؛ بل هي أعظم آيات الله شأنا وقدرا، ويؤكد هذا الأمر قوله تعالى: {**وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**} [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

وقوله: {**وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى**} [طه: ١٣٣]

معنى ذلك أن العقوبات التي توقع على من يظلم بآيات الله بصفة عامة ستكون أشد على من يفعل ذلك مع القرآن لعلو شأنه وعظم آياته {**أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ**} [الأنعام: ١٥٧].

جاء في تفسير (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) للشنقيطي - رحمه الله – عند قوله تعالى: {**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**} [الكهف: ٥٧]:

[١] أخلاق حملة القرآن للآجري ص ٣٩.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه لا أحد أظلم، أي: أكثر ظلما لنفسه ممن ذُكر، أي: وُعظ بآيات ربه، وهي هذا القرآن العظيم، فأعرض عنها أي: تولى وصد عنها.

ويستطرد قائلا:وفي مواضع أخرى من القرآن بيان أشياء من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة الناشئة من الإعراض عن التذكرة.

فمن نتائجه السيئة ما ذكرناه هنا من أن صاحبه من أعظم الناس ظلما.

ومن نتائجه السيئة: جعل الأكنة على القلوب حتى لا تفقه الحق، وعدم الاهتداء أبدا، كما قال سبحانه هنا مُبينا بعض ما ينشأ من العواقب السيئة {**إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا**} [الكهف: ٥٧].

ومنها انتقام الله جل وعلا من المُعرض عن التذكرة، كما قال تعالى: {**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ**} [السجدة: ٢٢].

ومنها: كون المعرض كالحمار كما قال تعالى: {**فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ**} [المدثر: ٤٩، ٥٠].

ومنها الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود كما قال تعالى: {**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**} [فصلت: ١٣].

ومنها: سلكه العذاب الصعد كما قال تعالى: {**وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**} [الجن: ١٧].

ومنها: تقييض القرناء من الشياطين، كما قال تعالى: {**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**} [الزخرف: ٣٦].

إلى غير ذلك من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكير بآيات الله جل وعلا .[1]

اختبار عملي وكاشف لعقوبة عدم الانتفاع بالآيات:

لعلك – أخي القارئ –لاتزال تُسقط هذا الكلام على أناس آخرين، وتعتبر أننا في منأى عن هذه العقوبات، على اعتبار أننا لا نكذب بآيات الله بل نغفل عنها – غالبا – والفارق كبير بين الحالتين!!

[1] أضواء البيان للشنقيطي ٤٠٩/٣.

..نعم، هناك فارق كبير بين الحالتين، ونأمل في سعة رحمة الله ألا يعاملنا كالمكذبين؛ ولكنَّ هذا لا ينفي أن هناك عقوبات متوقعة للغافلين قد تكون مختلفة في درجاتها وشدتها عن المكذبين، لكنها تؤدي في النهاية إلى عدم الانتفاع بآيات الله.

ولك أن تتأكد – مثلما تأكدت –من أننا نُعاقَب بالحرمان من الانتفاع بآيات الله، بأن تراقب حالك وقت حدوث الكسوف والخسوف للشمس والقمر، فهما آيتان يرسلهما الله لنا ليخوفنا بهما، كما قال صلى الله عليه وسلم: "**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده وإنهما لا ينكسفان لموت أحد من الناس فإذا رأيتم منها شيئا فصلوا وادعوا الله حتى يكشف ما بكم**"[١].

هل بالفعل تشعر – أخي – بالخوف الحقيقي عندما يحدث الكسوف أو الخسوف؟!! أم أن أقصى ما تفعله هو الذهاب إلى الصلاة من باب إحياء السنة.

وعلينا كذلك مراقبة أحوالنا عند هبوب الريح، هل نفعل مثلما كان يفعل صلى الله عليه وسلم وصحابته من أفعال تعكس خوفهم من احتمالية أن يكون ذلك مقدمة عذاب يصيبهم؟!

فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم ذو ريح وغيم عُرِف ذلك في وجهه فأقبل وأدبر، فإذا مُطرت سُرِّي عنه، وذهب عنه ذلك، فسألته عائشة رضي الله عنها في ذلك فقال: إني خشيت أن يكون عذابا سُلِّط على أمتي. [٢]

وعن عبيد الله بن أبي النضر قال: حدثني أبي أنها كانت ظلمة على عهد أنس، حتى كان النهار مثل الليل، قال: فأتيته بعدما انجلت، فقلت: يا أبا حمزة، هل كان يصيبكم هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: معاذ الله! إن كانت الريح لتشتد، فنبتدر إلى المسجد أينا يدخل أولا.[٣]

إننا – أخي – محرومون من الانتفاع بآيات الله بسبب غفلتنا عنها، أما بخصوص القرآن - ذلك الكتاب العظيم الذي يحوي أعظم آيات الله –فإننا نُعاقَب كذلك بعدم الانتفاع الحقيقي به وذلك من خلال تخفيفه في قلوبنا وعلى ألسنتنا.. وهذا ما سنتعرف عليه - بعون الله – في الصفحات القادمة.

---

١ البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان: ٣٠٢٩، ومسلم، باب صلاة الكسوف: ٢١٢٧.

[٢] متفق عليه، رواه البخاري: ١٠٩/٤ برقم: ٣٢٠٦، ومسلم: ٦١٦/٢ برقم: ٨٩٩. واللفظ له.

[٣] شعب الإيمان للبيهقي ٥٤٧/١.

الفصل الرابع

صور وأشكال العقوبة

الفصل الرابع

صور وأشكال العقوبة

قد يقرأ الكثيرون الكلام السابق ولا يتفاعلون معه كما ينبغي، وسبب ذلك هو عدم الشعور بأن هناك مشكلة مع القرآن.. فالقرآن حاضر بحُفَّاظه ومصاحفه..

حاضر من خلال أصوات قرائه المنتشرة في الإذاعات والفضائيات..

حاضر في الحفلات والمناسبات..

حاضر في الكتاتيب ومدارس التحفيظ والكليات المتخصصة القائمة على شؤونه..

لكل هذا وغيره؛ فإنه من المتوقع ألا يتفاعل الكثيرون مع ما سبق، وهذا هو أخطر ما في الموضوع، فالشعور بالخطر هو وقود العزائم، وموقظ النائم، وطالما أننا لا نستشعر بخطر تجاه عدم انتفاعنا بالقرآن، فلن تقوى عزائمنا أو تشتد رغبتنا في العودة إليه.

فما السبب في ذلك؟!

الجواب في الصفحات السابقة التي تحدثت عن العقوبات المتوقعة لكل من ظلم بآيات الله، أو بمعنى آخر: فإن عدم الشعور بالحرمان من القرآن – في حد ذاته – عقوبة من الله عز وجل.. سببها الرئيس هو تعاملنا الخاطئ مع آياته، وعدم اكتراثنا بذلك.

ولقد تواكب مع عقوبة عدم الشعور بالحرمان تجاه القرآن عقوبة أخرى غاية في الخطورة ألا وهي: عدم الإحساس بثقل القرآن: {**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**} [المزمل: ٥] أو بمعنى آخر: **"تخفيف القرآن"**

ونعني بتخفيف القرآن: أي تخفيف قدره وضَعْف هيبته من قلوبنا، ولقد تنبأ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "**يخرج أقوام من أمتي يشربون القرآن كشربهم اللبن**"[1].

وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم: **"سيخرج قوم من أمتي يشربون القرآن كشربهم الماء.**"[2]

ويوضح المعنى كذلك قول عبد الله بن عمر: كنا صدر هذه الأمة، وكان الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معه إلا السورة من القرآن أو شبه ذلك، وكان القرآن ثقيلا عليهم،

---

[1] رواه الطبراني في الكبير: ٢٩٧/١٧، والمستغفري في فضائل القرآن ١٣٧/١ وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ٣٦٥٣.

[2] رواه الفريابي في فضائل القرآن ١٨٧/٢ قال الألباني في السلسلة الصحيحة: إسناده حسن،ورجاله ثقات. برقم: ١٨٨٦.

ورزقوا العمل به، وإن آخر هذه الأمة يُخفّف عليهم القرآن حتى يقرأه الصبي والأعجمي فلا يعملون به[1].

القول الثقيل:

لقد قال الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في شأن القرآن: {**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**} [المزمل: ٥].

فالقرآن ثقيل بما يحمل من روح من أمر الله، ومن قوة تأثيرية مزلزلة، فهو ثقيل بأثره على القلب وبما تحمله كلماته من معان هادية.. ثقيل بما توجه إليه آياته من أعمال.

يقول عبد الرحمن حسن حبنكة – رحمه الله -: إن المعنى الذي ينبغي المصير إليه بثقل القول القرآني، هو غزارة معانيه، مع قلة ألفاظه، وثقل جواهر المعاني التي يشتمل عليها.. إن آية واحدة مؤلفة من بضع كلمات يُستخرج منها معني يحتاج شرحها وبيانها مئات الكلمات، ويظل فيها وفر عظيم، وهذا من ثقلها، وقد وصف الله عز وجل السحاب المليء بما ينفع الناس من غيث بأنها سحاب ثِقال[2]، وكذلك آيات القرآن؛ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فتخرج معاني جديدة في كل زمان ومكان، ولكل إنسان يتدبرها.. فهي غيث نافع يتفاوت قدر العباد في الاستفادة منه.

ولقد مر علينا كيف كان حاله صلى الله عليه وسلم عند تلقيه الوحي، مما يدل على هذا الثقل، وعندما تعامل الجيل الأول مع القرآن على حقيقته؛ استشعروا ثقله..

يقول سيد قطب في هذا المعنى: إن لهذا القرآن لثقلا وسلطانا وأثرا مُزلزلا لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته، والذين أحسوا شيئا من مَس القرآن في كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة[3].

وعندما لا يتم التعامل مع القرآن على هذا الأساس فإن العقوبة الخطيرة التي ستنال من يفعل ذلك هو نزع مهابته من قلبه، ومِن ثَم يتم التعامل معه على أنه كلام كغيره، فإذا ما تم التعامل معه على أنه يساوي في المهابة والتقدير والاحترام غيره من الكتب وكلام الآخرين؛ تتصاعد العقوبة وتكون في صورة تخفيفه على الألسنة والآذان، فيؤدي ذلك إلى قراءته بسرعة دون فهم ولا تدبر، ومن ثم تقِل وتَضْعُف هيبته في القلوب أكثر وأكثر..

إن من أهم ما يميز القرآن هو الروح التي يبثها في قارئه: {**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**} [الشورى: ٥٢].

---

[1] أخلاق حملة القرآن للآجري ص٣٧.

[2] معارج التفكر ٦١/١ – ١٦٣.

[3] في ظلال القرآنص: ٣٥٣٢ بتصرف يسير.

هذه الروح هيمن أهم أسباب ثقله وأثره المزلزل في كينونة الإنسان، ومن ثم يزداد الإيمان ويحدث التغيير بإذن الله.

فإذا ما ابتعدت الروح عن ألفاظ القرآن أصبحت تلك الألفاظ كغيرها من ألفاظ اللغة العربية، وفقدت تأثيرها المتفرد المزلزل، واقتصر هذا التأثير على وقع بلاغتها وأساليبها ونظمها وجرسها في نفس المستمع.

وابتعاد روح القرآن عن ألفاظه هي العقوبة المتوقعة لهجره، وترك التعامل الصحيح معه.. وتستمر العقوبات بعد ابتعاد الروح حتى تصبح الألفاظ الأخرى في الكتب والقصص والشعر أكثر أهمية وتقديرا عند المرء من ألفاظ القرآن، وإنا لله وإنا إليه راجعون: {**مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا**} [نوح: ١٣]

معنى تخفيف القرآن:

فالمقصد من تخفيف القرآن أي: تخفيف مهابته وقدره وقيمته من القلوب، فيدخل إليه الشخص وهو غير عابئ أو مهتم بالانتفاع به،لا يستشعر الحاجة إليه، فتكون العقوبة:أن يُفتح له القرآن أكثر، فتنساب ألفاظه سريعاعلى لسانه دون انتفاع بها، وكلما قرأ القرآن بغير اهتمام زادت العقوبة، وهكذا حتى صار بيننا وبين القرآن بون كبير دون أن ندري..

هل فُتح القرآن؟

من الألفاظ التي وردت في أقوال الصحابة التي تعكس طريقة الحرمان من القرآن: لفظ "**فتح القرآن**"، والذي قد يكون قريبا ومرادفا للفظ "**تخفيف القرآن**"، يقول معاذ بن جبل: أيها الناس ستكون فتن يكثر فيها المال، ويُفتح فيها القرآن، فيقرأه المؤمن والمنافق، والمرأة والرجل، والصغير والكبير.

وكان معاذ بن جبل يقول في مجلسه كل يوم – قلما يُخطئه أن يقول ذلك -: الله حكم قسط، هلك المرتابون، وإن وراءكم فتنا، يكثر فيها المال، ويُفتح فيها القرآن، حتى يقرأه المؤمن والمنافق، والمرأة والصبي، فيوشك أحدهم أن يقول: قد قرأت القرآن، فما أظن أن يتبعوني حتى أبتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتُدع، فكل بدعة ضلالة، وإياكم وزيغة الحكيم، وإن المنافق قد يقول كلمة الحق، فتلقوا الحق مما جاء به، فإن على الحق نورا[1].

[1] أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب لزوم السنة: ٤٦١١، والحاكم في مستدركه، كتاب الفتن والملاحم: ٨٤٢٢ وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي..

.. إن للقرآن قدر عظيم، وينبغي أن يتم التعامل معه باحترام وهيبة وتقدير، فإن لم يحدث هذا تكون العقوبة بتخفيف قدره في النفوس، فتزول هيبته، ويفتح للجميع، فبعدما كان محاطا بجلال الهيبة والروعة، وبعدما كان الدخول إليه يحتاج إلى استعداد وتهيئة ينعكس الحال، فيكون فتحه وهتك ستار هيبته وجلاله مدعاة لدخول أي فرد إليه، وبأي حال يكون عليها، غير عابئ به أو مدرك لقيمته، فيقرؤه كما يقرأ أي كلام آخر، فيكون ذلك سببا لمزيد من التخفيف والفتح حتى يصبح غيره من الكلام أكثر قيمة وقدرا منه في نفس القارئ وقلبه.

ولعلنا بذلك ندرك مغزى قول معاذ بن جبل – رضي الله عنه – وهو يتحدث عن فتح القرآن فيقرأه الرجل والمرأة، والمؤمن والمنافق، والصغير والكبير، فهو بذلك يشير إلى أن القرآن سيصبح سواء لجميع أصناف الناس، فلا فارق بين الصغير الذي لا يعقل وبين الكبير، ولا فارق بين المنافق والمؤمن، فلقد فتحت ستر هيبته وإجلاله، ومن ثم فلن يجد أحد في نفسه بأسا، إذا ما قرأه في أي وضع.

ونضرب لذلك مثالا يقرب المعنى إلى الأذهان – بإذن الله – : لو تخيلنا مديرا لمدرسة (ما) له هيبة في نفوس جميع أفراد مدرسته من مدرسين وعمال وطلاب، وكان الكل يهابه ويقدره ويوقره، ولا يدخل عليه أحد بسهولة؛ بل لابد من استئذان واستعداد خاص، ولو دخل هذا المدير قاعة من القاعات لصمت الجميع، ولو مر على جمع من الطلاب يلعبون لتوقفوا عن اللعب حتى ينصرف..

فإذا ما مرت عدة أعوام وعلمت بعدها أن الجميع يدخل عليه حجرته في أي وقت وبلا استئذان يستوي في ذلك الطالب صغير السن مع العامل مع المدرس مع الحارس.. يدخلون عليه دون إخباره ويجلسون في مكتبه، ويعبثون في محتوياته ويتركونه دون استئذانه.. وإذا علمت أنه إذا مر بجمع من الطلاب يلعبون فإنهم يستمرون في لعبهم غير عابئين بوجوده.. فماذا تشخص تلك الحالة؟ ألا توافقني أنها تعني سقوط هيبته في نفوسهم؟!! وهذا للأسف ما حدث للقرآن!!

قال أبو العالية: سيأتي على الناس زمان تُخرب صدورهم من القرآن، وتبلى كما تُبلى ثيابهم، ولا يجدون له حلاوة ولا لذة[1].

وكتب ميمون بن مهران إلى يونس بن عبيد قال: عليك بكتاب الله؛ فإن الناس قد بَهُوا به، واختاروا عليه الأحاديث: أحاديث الرجال[2].

[1] رواه أحمد بن حنبل في الزهد ص: ٣٠٢.

[2] رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن ص: ٧٩. بهوا به: أَنِسوا به حتى خرجت هيبته من قلوبهم، وخرج إعظامه منها..

وكان ميمون بن مهران يقول: إن هذا القرآن قد أُخلق في صدور كثير من الناس فالتَمَسُوا ما سواه من الأحاديث[1].

وخلاصة القول: أننا جميعا حين تهاونا في التعامل مع القرآن فلم نقدره حق قدره، ولم نهتم به، ولم نحترمه؛ كانت العقوبة الإلهية أن حُرمنا الانتفاع به، وكانت العقوبة الأشد والأخطر والتي تجعلنا لا نستشعر عقوبة حرمان الانتفاع به هي: **فتح القرآن**.

فلقد فُتح لنا القرآن، وأصبح قولا خفيفا على ألسنتنا غير محاط بالجلال والهيبة في قلوبنا، فتسابقنا لقراءته وحفظه، وأصبحت آياته تُبَثّ ليل نهار.. فظننا بذلك أننا من أهله، ومِن ثَم؛ فنحن لا نشعر بوجود أي مشكلة تجاهه، ولا نجد أي رغبة في التغيير الحقيقي لطريقة تعاملنا معه.

الفارق بين تخفيف القرآن وتيسيره للذكر:

قد يسأل سائل أليست الانسيابية والسهولة والسرعة في قراءة القرآن دليل على تيسيره للذكر كما أخبرنا الله عز وجل بقوله: {**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ**} [القمر: ١٧]؟!

لا يا أخي؛ فإن تيسير القرآن للذكر تشمل معاني أخرى مثل أنه ميسر للقراءة في كل مكان وزمان، وأنه يخاطب كل المستويات في كل العصور، يخاطب الأمي والعالم، والرجل والمرأة، والشاب والشيخ..

ومعناه كذلك أن من رحمة الله عز وجل بعباده أن يسر لهم كلامه، فالقرآن كلام الله عز وجل، تحمل ألفاظه روحا من أمر الله، وهذه نعمة عظيمة لم تتيسر لأمة من قبل، وفي هذا المعنى يقول عبد الله بن عباس: لولا أن الله يسّره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله.[2]

ويقول القرطبي في التذكار: ولولا أنه سبحانه جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله ليتدبروه وليعتبروه وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته وأداء حقوقه وفرائضه لضعفت ولاندكت بثقله أو لتضعضعت له وأنى تطيقه وهو يقول تعالى جده وقوله الحق {لو أنزلنا هذا القرآن على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله} فأين قوة القلوب من قوة الجبال؟ ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم فضلاً منه ورحمة.[3]

---

[1] جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١٢٠٣/٢.

[2] رواه البيهقي في الأسماء والصفات ٨/٢.

[3] التذكار في أفضل الأذكار ص:٣٣.

أما تخفيف القرآن فمعناه: تخفيف مهابته في القلوب حتى تضيع شيئا فشيئا، فلا يُهتم أو يُعبأ به.. يذهب الناس لتلاوته بلا اشتهاء ولا شغف.. يقرءونه فلا يجدون له حلاوة.. يُتلى فلا يُصغى إليه، وإن فُهمت بعض آياته فيتم صرف معانيها لأناس آخرين.

وهذا ما عناه الصحابي الجليل معاذ بن جبل حين قال:

سيَبْلَى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب، فيتهافت، يقرءونه لا يجدون له شهوة ولا لذة[١]..

وهذا الأثر يُشخص حالنا مع القرآن، فهو الآن يُقرأ بلا شهوة نحوه قَبل الإقبال عليه، ولا لذة وقت قراءته..

يقول أبو عبد الرحمن السلمي: إنما أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخرى حتى يعلموا ما فيهن من العلم والعمل، قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعا، وإنه سيرث القرآن قوم يشربونه شرب الماء لا يجاوز هذا، وأشار بيده إلى حنكه[٢]..

والمقصد بشربهم القرآن كشرب الماء أي سرعتهم في التعامل معه، وعدم تقديره حق قدره، والتعامل معه كما يتم التعامل مع الماء حيث الشرب السريع..

ويمكننا أخي القارئ أن نقرّب إلى أذهاننا مفهوم ثقل القرآن عندما نتعرف على حال الصحابة – رضوان الله عليهم – عند نزول قوله تعالى: {**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**} [البقرة: ٢٨٤] وكيف اشتد ذلك عليهم فذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فجثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية، ولا نطيقها. فقال لهم: **بل قولوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**. فلما قرأها لهم، وذلت[٣] بها ألسنتهم أنزل في إثرها: {**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ**

---

١ أخرجه الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في تعاهد القرآن: ٣٣٤٦. وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.

ومعنى يبلى: من بلى الثوب من كثرة استعماله حتى صار قديما لا قيمة له (لسان العرب: ٨٣/١٤) والتهافت: أي الصوت العالي الجافي أو الصوت الشديد (لسان العرب: ١٠٤/٢)

[٢] فضائل القرآن للفريابي ص ٢٤١، برقم ١٦٩.

[٣] ذلت بها ألسنتهم: أي سهلت عليهم. وعليه قول الله تعالى: {فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا} [النحل: ٦٩]، وقوله تعالى: {وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا} [الإنسان: ١٤].

رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: ٢٨٥][١] .. تأمل أخي قول الراوي: وذلت بها ألسنتهم؛ أي أنهم كانوا يستثقلونها، ولا يستطيعون نطقها بسهولة لعظم ما جاء فيها وخطورته.

غياب الصورة الذهنية:

قد لا يجد البعض في نفسه – بعد قراءة الصفحات السابقة – أي انزعاج أو ضيق مما آل إليه الأمر مع القرآن، ولعل من أسباب ذلك هو غياب الصورة الذهنية عن شكل التأثير الفذ والمتفرد والمزلزل للقرآن في كينونة الإنسان، ومن ثم لا يوجد في الأذهان شيء يقارَن به أو يُقاس عليه تعاملنا الحالي معه وأثره علينا.

لا يمكننا مقارنة التأثير الناتج عن قراءتنا وسماعنا لآياته مع ما ينبغي أن يكون هذا التأثير لعدم وجود صورة في أذهاننا يمكننا استحضارها عند عقد هذه المقارنة، لذلك لا ننزعج مما ورد عن عقوبات وقعت علينا وعلى من قبلنا وحرمتنا من روح القرآن وأثره المزلزل.

وإليك – أخي القارئ – مثلا يوضح هذا المعنى أكثر وأكثر بإذن الله..

هب أن أناسا كانوا يركبون سفينة.. رجالا ونساء، أطفالا وصغارا، ثم جاءت أمواج عاتية حطمت السفينة وألقت بهم على جزيرة وسط البحر، وبدأ هؤلاء في ترتيب أمورهم المعيشية لكنهم لم يجدوا على الجزيرة شيئا يأكلونه فما كان منهم بعد شعورهم بالجوع الشديد إلا أن يأكلوا ورق الشجر، واستمروا على ذلك وبدأ أطفالهم الرضع يكبرون شيئا فشيئا، وبدأوا يتكلمون ويفهمون حديث من حولهم، وكان آباؤهم يتذاكرون ألوان الأطعمة التي كانوا يتناولونها في ديارهم كالأرز والشواء والفواكه، وكان الأطفال يسمعون هذه الكلمات ولا يجدون في أذهانهم صورة متخيلة لها، لأنهم لم يذوقوها أو يروها قبل ذلك، ومن ثم فهم لا يتفاعلون بأي شكل من الأشكال مع حكايات آبائهم عن هذه الأمور، ولا يدركون سر الحسرة التي يجدها آباؤهم ويبدونها على فقدانهم لها.

هذا مثال تقريبي لحالنا مع القرآن، فلقد كان للقرآن عند الجيل الأول صورة ذهنية بأثره المزلزل وأنواره وقوله الثقيل، لذلك كانوا شديدي الحرص على تبليغ من بعدهم ضرورة الانشغال بالقرآن والتمسك به حتى لا يُحرموا من معجزته.

ومضت الأجيال ولم يُلتَفت إلى وصايا الصحابة، وتم التعامل الخاطئ مع القرآن، فكانت العقوبات: رُفعت روحه وبقيت ألفاظه، فنشأت أجيال لا تعرف شيئا عن القرآن إلا كونه ألفاظا تقرأ فلا يجدون شهوة تدفعهم لقراءته، ولا حلاوة يلتذون بها عند تلك القراءة.

[١] رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول الله تعالى: "وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه": ٣٤٤.

.. لا يرتجُّون، ولا يتزلزلون معها.

نسوا أمر روح القرآن، واهتموا بألفاظه كما نُسِيَ الطعام واقتُنِعَ بورق الشجر .. وجدوا كل من حولهم مثلهم فظنوا أن هذا هو المطلوب عمله مع القرآن ولا شيء غيره، واعتبروا أن التأثر الناشئ عن التفاعل مع جرس القرآن ونغمه ومعانيه هو التأثر الذي تحدث عنه القرآن، ومن ثم تجدهم لا يتفاعلون مع هذا الطرح الذي يُطرح في هذه الأسطر.

الحرمان المخيف

ومع كل هذه العقوبات التي وقعت علينا، إلا أن هناك عقوبة أشد أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.. إنها الحرمان المخيف والمرعب والذي لم يحدث حتى الآن وندعو الله أن يوقظ قلوبنا ويعيد لها هيبة القرآن حتى لا يحدث لنا هذا الحرمان.. ألا وهو: **رفع القرآن من المصاحف والقلوب.** والذي سيحدث في آخر الزمان كما تنبأ بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم.

هل سيرفع القرآن؟!

عندما يستمر التعامل الخاطئ مع القرآن، ويستمر الظلم بآياته؛ فإن نهاية مخيفة ومفزعة تنتظر الأمة في آخر الزمان، ألا وهي رفع القرآن من المصاحف والصدور، فيصبح الناس يوما (ما) فيفتح أحدهم المصحف فيجده فارغا من آيات القرآن، فيصيبه الفزع، فيخبر من حوله فيتأكدوا من صحة قوله، ويحاول بعضهم النطق بآيات القرآن فلا يتذكر منها شيئا..

فإن كنت – أخي القارئ – في شك من إمكانية حدوث ذلك فاقرأ هذه الأحاديث والآثار.. اقرأها بتركيز وإمعان..

جاء في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني تحت عنوان: تدارسوا القرآن قبل رفعه قوله صلى الله عليه وسلم:

"يَدْرُس الإسلام كما يَدْرُس وَشْيُ الثوب، حتى لا يُدْرَى ما صيام ولا صلاة ولا نُسك ولا صدقة، ولَيُسْرى على كتاب الله عزوجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس: الشيخ الكبيروالعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة (لا إله إلا الله) فنحن نقولها"[1].

يقول ناصر الدين الألباني – رحمه الله – في تعليقه على هذا الحديث:

وفي الحديث إشارة إلى عظمة القرآن، وأن وجوده بين المسلمين هو السبب لبقاء دينهم ورسوخ بنيانه، وما ذلك إلا بتدارسه وتدبره وتفهمه، ولذلك تعهد الله تبارك وتعالى بحفظه إلى أن يأذن الله برفعه[2].

نسخ القرآن ورفعه:

[1] سبق تخريجه ص: ٤

[2] سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١٧٣. برقم: ٨٧.

وإليك – أخي القارئ – حديث آخر يؤكد نفس المعنى عن أبي قلابة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر شيئا فقال: "**ذلك أوان أن يُنسخ القرآن**" فقال رجل كالأعرابي: يا رسول الله ما ينسخ القرآن؟ أو: كيف يُنسخ القرآن؟

قال صلى الله عليه وسلم: "**ويحك، يذهب أصحابه، ويبقى رجال كأنهم النعام**، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى يديه على الأخرى، فمدها يشير بهما، فقال الناس: يا رسول الله أوَلَا نتعلمه ونعلمه أبناءنا ونساءنا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لقد قرأت اليهود والنصارى، لقد قرأت اليهود والنصارى**"[١].

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي، عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**يسرى على كتاب الله ليلا، فيُصبح الناس ليس في الأرض ولا في جوف مسلم منه آية**"[٢].

وإن أدري .. أقريب ما توعدون؟ أم يجعل له ربي أمدا؟!

مما يلفت الانتباه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يتحدث أمام صحابته عن رفع القرآن فإنه لم يكن يحدثهم بطريقة توحي لهم بأن هذا سيحدث آخر الزمان، بل كان يوجه الخطاب لهم على أنهم المعنيون به، كقوله الذي مر علينا: " **يا أيها الناس ما هذه الكتب التي بلغني أنكم تكتبونها مع كتاب الله؟ يوشك أن يغضب الله لكتابه فيُسرى عليه ليلا، لا يُترك في قلب ولا ورق منه حرفا إلا ذهب به**"[٣]..

مع أن هناك العديد من الأدلة التي تشير إلى أن رفع القرآن سيحدث في الغالب في آخر الزمان، لكنه صلى الله عليه وسلم وهو أعلم الخلق بالله، يعلم أنه سبحانه لا موجب ولا ملزم له في قضاءه، وأنه {**لَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا**} [الكهف: ٢٦]، ويعلم كذلك قدر القرآن عند ربه، ومن ثم فإن التهاون أو الظلم بآياته قد يستدعي في أي وقت العقوبات التي قررها سبحانه في كتابه لمن أعرض عنه، ومن هذه العقوبات: رفع القرآن.. ألم يقل سبحانه: {**وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**} [الإسراء: ٨٦]؟!

---

١ الزهد لابن المبارك ص: ٢٧٧، وقال الشيخ أحمد فريد في تخريجه للحديث: مرسل صحيح الإسناد. على أن مراسيل أبي قلابة ليست محل احتجاج عند أكثر أهل العلم. ومعنى نسخ القرآن أي: محوه.

٢ذكره السيوطي في جمع الجوامع ٣١٨/٦، وصححه الشيخ الألباني: انظر حديث رقم: ٨٠٧٧ في صحيح الجامع.

٣ أخرجه الطبراني في الأوسط ٢٨٧/٧ برقم: ٧٥١٤ قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٥/١) : (فيه عيسى بن ميمون الواسطي وهو متروك وقد وثقه حماد بن سلمة)

ألم يُلقّنه سبحانه ما يقول للناس في شأن توقيت تنفيذ ما وعد به عباده؟ {**قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا**} [الجن:٢٥- ٢٦].

من هنا يتضح لنا أن أمر رفع القرآن ليس بعيدا أن يحدث في أي وقت، وذلك عندما يزداد امتهان الناس له، فيقع عليه القول من الله عز وجل {**وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ**} [النمل: ٨٢].

قال قتادة: وجب الغضب عليهم، وقيل: حق العذاب عليهم.

قال ابن مسعود: وقع القول عليهم: يكون بموت العلماء وذهاب العلم ورفع القرآن.

إليك هذا الدليل:

والذي يؤكد أكثر وأكثر إمكانية حدوث ذلك، هو أنه قد وقع رفع معنوي لبعض من آثار القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ولقد تمثل هذا الأمر في نقص الخشوع، واعتبر صلى الله عليه وسلم هذا النقص دليلا على عدم تعامل المسلمين الصحيح مع القرآن، وهذا من شأنه أن يدفعنا للخوف الشديد على أنفسنا وعلى مستقبل القرآن معنا، كيف لا وحالنا يبتعد كثيرا كثيرا عن الحال الذي رآه الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أن قال هذا الحديث.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: "هذا أوان يُختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء" فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يُختلس منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه ولنُقرئنه نساءنا وأبناءنا، فقال صلى الله عليه وسلم: "ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعُدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تُغني عنهم؟!!".

قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قلت: ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يُرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلا خاشعا.[١]

وفي حديث أخرجه ابن أبي شيبة عن زياد بن لبيد قال: ".. وذاك عند أوان ذهاب العلم" قال: قلت: يا رسول الله كيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى

---

[١] سبق تخريجه ص: ٥.

يوم القيامة. قال: "ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل، لا يعملون بشيء مما فيهما؟".[1]

وهل نشعر بروح القرآن في ألفاظه؟!

إن رفع الخشوع معناه رفع أثر القرآن من القلوب، ولئن كان قد حدث شيء يسير منه في أواخر عصر النبوة، فلقد تطور الأمر بعد ذلك حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه من الغياب شبه الكامل لأثر القرآن في الحياة، وهذا يعني أن روح القرآن قد ابتعدت عن ألفاظه بالنسبة لنا.

..نعم، إن ابتعاد روح القرآن عنا ليست أبدية، فلو تضافرت الجهود وحسُنت النيات واشتدت العزائم لعادت تلك الروح مرة أخرى للألفاظ حين ننطقها أو نسمعها، ولعاد أثرها المزلزل في القلوب.

وإن لم نفعل فستسمر العقوبات والتي ستنتهي برفع الألفاظ من المصاحف والصدور.

أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يُرفع:

إن أمر رفع القرآن ليس بعيدا عن أي زمان، ولقد كان الصحابة – رضوان الله عليهم - يدركون ذلك جيدا، وكانوا يخافون ويخوفون من إمكانية ذلك، فهذا عبد الله بن مسعود يقول: أكثروا تلاوة لقرآن قبل أن يرفع، قالوا: هذه المصاحف فكيف بما في صدور الرجال؟ قال: يسرى عليه ليلا، فيصبحون منه فقراء، وينسون قول لا إله إلا الله، فيقعون في قول أهل الجاهلية وأشعارهم، فذاك حين يقع عليهم القول[2].

عن شداد بن مَعقِل عن عبد الله بن مسعود قال: إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وإن آخر ما يبقى منها الصلاة، وليُصلِّين قوم لا دين لهم، وإن هذا القرآن الذي بين ظهرانيكم سينتزع منكم، قال: قلت: كيف يُنتَزع منا وقد أثبته الله في قلوبنا، وأثبتناه في مصاحفنا؟ فقال: يُسرى

[1] رواه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث زياد بن لبيد: ١٧٥٠٨، وابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، باب من لا ينتفع بقراءة القرآن: ٣٠١٩٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم: ٤٠٤٨، والحاكم في المستدرك، كتاب العلم: ٣٣٨ وقال : صحيح من حديث البصريين ، ووافقه الذهبي. وصححه الأرناؤوط في تحقيق المسند.

[2] سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في تعاهد القرآن:٣٣٤١. قال حسين سليم أسد: إسناده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة وباقي رجاله ثقات. وله طريق آخر عند البيهقي في شعب الإيمان ٣٩٧/٣ قال المحقق (الدكتور عبد العلي حامد): رجاله موثقون.

عليه في ليلة واحدة، فينتزع ما في القلوب، ويذهب ما في المصاحف، ثم قرأ عبد الله: {**وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**} [الإسراء: ٨٦].[١]

وكان يقول: "كيف أنتم إذا أسري على كتاب الله فذُهب به؟ قال: يا أبا عبد الرحمن، كيف بما في أجواف الرجال؟ قال: يبعث الله ريحا طيبة فتكفت كل مؤمن[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: يُرسل الله تعالى ريحا من اليمن، ألين من الزُبد، وأحلى من العسل، فلا تترك رجلا في قلبه آية من القرآن إلا ذهبت بها[٣].

عن شمر بن عطية قال: يُسرى على القرآن في ليلة فيقوم المتهجدون في ساعاتهم فلا يقدرون على شيء، فيفزعون إلى مصاحفهم فلا يقدرون عليها، فيخرجون بعضهم إلى بعض فيلتقون فيُخبر بعضهم بعضا بما لقوا[٤].

أخرج محمد بن نصر في مختصر قيام الليل عن الليث بن سعد قال: إنما يرفع القرآن حين يُقبل الناس على الكتب، ويكبون عليها ويتركون القرآن[٥]..

أُتلى ولا يُعمل بي:

أخي: إن الأمر جد لا هزل فيه.. الأمر خطير خطير

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دَويٌّ حول العرش كدوي النحل، فيقول الرب: مالك؟ فيقول: يا رب أُتلى ولا يُعمل بي، أُتلى ولا يُعمل بي، أُتلى ولا يُعمل بي[٦].

تدرج الحرمان:

١رواه عبد الرزاق في المصنف، كتاب فضائل القرآن، باب تعاهد القرآن ونسيانه:٥٩٨١، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الفتن، ما ذكر في فتنة الدجال: ٣٧٥٨٥، والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم: ٨٥٣٨ وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة.

٢ ابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، في رفع القرآن والإسراء به: ٣٠١٩٢. بإسناد صحيح.

٣رواه نعيم بن حماد في الفتن ٥٩٨/٢. بإسناد صحيح.

ملاحظة هامة: ذكر العلماء أن ما أخبر به الصحابة من أمور الغيبيات وما لا محل للاجتهاد فيه، يُحمل على أنهم سمعوه؛ فيأخذ حكم المرفوع. بشروطه المعروفة عند أهل العلم.

٤ عزاه السيوطي في الدر المنثور ٣١٨/٦ إلى ابن أبي داود وابن أبي حاتم.

٥ مختصر قيام الليل ص ١٢٠.

٦ فضائل القرآن للمستغفري ٢٩٢/٢، والدارمي في الرد على الجهمية. بسند ضعيف.

إن الحرمان من القرآن يكون تدريجيا، يبدأ بالحرمان من روحه ومِن ثم حلاوته وأثره المزلزل في تغيير الشخص، وينتهي بالحرمان من ألفاظه.. يقول حذيفة بن اليمان:

" يَدْرُس الإسلام كما يَدْرُس وَشْيُ الثوب، ويقرأ الناس القرآن لا يجدون له حلاوة، فيبيتون ليلة فيصبحون وقد أُسري بالقرآن.. حتى يُنتزع من قلب شيخ كبير وعجوز كبير، فلا يعرفون وقت صلاة ولا صيام ولا نُسك، حتى يقول القائل منهم: إنا سمعنا الناس يقولون: لا إله إلا الله"[١].

وإذا أردت – أخي – مزيدا من الأدلة التي تؤكد هذا الأمر الخطير فعليك بكتاب "اختصاص القرآن بعَوده إلى الرحمن الرحيم" للحافظ محمد بن عبد الواحد المقدسي، المعروف بالضياء المقدسي.

هل تأكدت من إمكانية رفع القرآن؟

أخي القارئ: لعلك الآن تأكدت من إمكانية رفع القرآن بعد أن مرت عليك أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقوال الصحابة والسلف التي تؤكد أن القرآن سيُرفع في آخر الزمان حين يُهجر العمل به، فماذا علينا أن نفعل تجاه هذه الكارثة المتوقعة؟

هل سنقف مكتوفي الأيدي انتظارا لها؟ أم سنسارع بالعودة الحقيقية إلى القرآن، والتعامل معه بطريقة صحيحة يكسوها الاحترام والهيبة؛ عسى ذلك أن يُذهب غضب الله عز وجل لكتابه؟!!

١ رواه عن حذيفة موقوفا: اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣٨٢/٢، والخطيب في تاريخ بغداد ٢٩٠/٢. بإسناد صحيح.

الفصل الخامس

أخطاؤنا مع القرآن

الفصل الخامس

أخطاؤنا مع القرآن

القرآن الكريم له قيمة وقدر عظيم عند الله عز وجل، ولقد أكرم الله سبحانه أمة الإسلام به لكي يقوم بتغيير أبنائها، وهدايتهم للصراط المستقيم وتأهيلهم للقيام بالوظيفة المتفردة في قيادة البشرية {**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**} [البقرة: ١٤٣].

وعندما لا يتعامل المسلمون مع القرآن بما يستحقه من التقدير والإجلال؛ فإن الله عز وجل سيغضب لكتابه وسيعاقب الأمة عقوبات متدرجة ومتصاعدة.. وهذا ما حدث بالفعل، ولعل أخطر تلك العقوبات: الحرمان من روحه وتأثيره البالغ على كينونة الإنسان، وقدرته – بإذن الله – على تغييره كما يحب الله ويرضى.

وأخطر من ذلك هو عدم الشعور بالحرمان تجاه القرآن، وذلك من خلال تخفيف القرآن في قلوبنا.

ومعنى تخفيف القرآن أي: إضعاف وتقليل مهابته في قلوبنا، حتى يصير كالثوب البالي الذي لا يؤبه له، ولا يُنظر إليه، ولا يُرغب فيه.

وللأسف كلما تعاملنا مع القرآن تعاملا خاطئا؛ زاد الحرمان، وزاد تخفيف مهابته في قلوبنا، ولو استمر الوضع على ذلك المنوال لحدثت الكارثة الكبرى برفع القرآن، وكيف لا؟ وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه سيرفع في آخر الزمان.

أخطاؤنا مع القرآن:

لو تأملنا أفعالنا مع القرآن لوجدنا أننا نقوم بأعمال كثيرة خاطئة من شأنها الاستدعاء المستمر لعقوبة الحرمان.

ومن أهم تلك الأفعال الخاطئة[١]:

- الجفاء عن القرآن
- التوجه نحو الكتب قبل القرآن.
- الإسراع في حفظ ألفاظه دون العمل بها.
- البث المستمر للقرآن دون الاستماع والإنصات إليه.

---

[١] بفضل الله عز وجل تم الحديث عن أسباب عدم الانتفاع بالقرآن الكريم في كتاب (تحقيق الوصال بين القلب والقرآن) وسنجتهد بعون الله عز وجل في هذه الصفحات على استكمال الموضوع من زاوية أخطائنا مع القرآن.

- الإسراع في قراءته دون تدبر.
- التعمق في إقامة حروفه، وإهمال العمل به.
- تلحين القرآن، وغير ذلك.

من أخطائنا مع القرآن:

الجفاء عن القرآن

جفا عن الشيء أي ابتعد عنه ولم يلتزمه كما قال الله تعالى في حق المتهجدين بالليل: {**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ**} [السجدة: ١٦].

والمقصد من الجفاء عن القرآن هو البعد عنه وعدم التزامه، وذلك من خلال عدم المداومة على قراءته، ومرور الأوقات دون الالتقاء به.

ويشمل ذلك أيضا عدم تدبره؛ لأن المقصد من قراءته هو فهم المقصود من آياته وتدبرها ليحدث من وراء ذلك – بإذن الله – دوام التذكر والاعتبار والانتباه والاتباع {**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**} [ص: ٢٩].

النعمة العظمى:

إن القرآن المجيد هو النعمة العظمى التي اختص الله جل شأنه بها أمة الإسلام دون غيرها من الأمم، ليقوم أفرادها بالاهتداء بهديه والاستشفاء بشفائه، ثم ينطلقوا بعد ذلك في الأرض ليقيموا دينه فيها، ويكونوا بمثابة قادة للبشرية فيضعوا فيها ميزان الحق والعدل {**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**} [آل عمران: ١١٠].

ولا يمكن لأمة الإسلام أن تقوم بهذه الوظيفة الخطيرة في الأرض إلا إذا تمثل القرآن في أبنائها خلقا وسلوكا، وهذا يستدعي دوام الاتصال به والاغتراف من ينابيع الهدى والإيمان المتفجرة من آياته بإذن الله.

.. هذا على مستوى الأمة؛ أما على مستوى الفرد فإن طبيعة المعركة بين الشيطان والإنسان، والتي يستخدم فيها الشيطان كل أساليب الغواية والإضلال، ويستغل جهل النفس وولوعها الدائم بتحصيل الشهوات؛ تستدعي وجود مصدر فذّ ومتفرد لمواجهة هذا كله، والانتصار الدائم على النفس والهوى والشيطان وزخرف الدنيا.. وهذا ما يفعله القرآن الحكيم إذا ما داوم المرء على الاتصال به. {**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ**} [فصلت: ٤٤]

كل هذا وغيره يؤكد لنا أهمية المداومة اليومية والمكث المتكرر مع القرآن، فلا صلاح ولا فلاح، للفرد أو الأمة دون التزود اليومي بجرعة كبيرة من القرآن.

.. من هنا ندرك بعض الحِكَم من أسرار التوجيه الإلهي للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بالمداومة على تلاوة القرآن، كقوله تعالى: {**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ**} [العنكبوت: ٤٥].

وقوله: {**<u>وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ</u> مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا**} [الكهف: ٢٧].

وقوله: {**إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) <u>وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ</u>**} [النمل: ٩١، ٩٢].

وقوله: {**إِنَّ الَّذِينَ <u>يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ</u> وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ**} [فاطر: ٢٩].

وغني عن البيان أن معنى يتلو: يتبع، فإننا نقول: جاء فلان يتلوه فلان، أي جاء خلفه وتبعه، ويؤكد ذلك قوله تعالى: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢)} [الشمس: ١، ٢]

لماذا يحافظ مريض السكر على الدواء يوميا؟

إن مريض السكر يلزمه دائما أن يداوم على تناول دوائه بصورة يومية منتظمة، وذلك لتجنب ارتفاع نسبة السكر في الدم، ومِن ثَمّ ظهور أعراض المرض ومضاعفاته عليه، كذلك القرآن؛ من الضروري أن يحافظ المرء على لقائه اليومي به، وإلا ستظهر النتائج السلبية من غفلة ونسيان لله، ومن غلبة الهوى، وقسوة القلب، وضيق الصدر، وتقوية داعي الشيطان {**وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**} [الجن: ١٧].

من هنا ندرك بعضا من أسباب التوجيه بالمداومة على التلاوة اليومية مهما كانت الظروف من مرض أو سفر أو انشغالات، ولك أخي القارئ أن تتأكد من هذا المعنى من قوله تعالى: {**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ <u>فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ</u> عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ <u>فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ</u> وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**} [المزمل: ٢٠].

ومما يؤكد ضرورة المداومة اليومية على قراءة القرآن، وتخصيص (وِرد) أو (قدر ما) يكون بمثابة "جرعة ثابتة"؛ ما أخبرنا به صلى الله عليه وسلم عن وجود مساحة زمنية محدودة لمن حالت ظروفه دون قراءة وِرده في ليلة (ما) بأن يقوم بقراءته ما بين صلاة الفجر والظهر.. يقول صلى الله

عليه وسلم: " **من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قرأه من الليل** "[1].

وهذا يدل دلالة واضحة على ضرورة التزام القرآن والمداومة على الاتصال به، وأنّ من فاته ذلك في ليلة من الليالي لأي ظرف كان؛ فعليه أن يسعى لتحصيله في أقرب وقت.

المداومة والاتباع:

إن من أهم مقتضيات تقدير القرآن: عدم هجره، وأخطر صور هجره هو هجر المداومة على تلاوته، أو بمعنى آخر: معاملته بجفاء، ونكرر بأن المقصد بتلاوته: اتباعه والسير وراء توجيهاته بالعمل والتطبيق {**اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ**} [الأعراف: ٣].

{**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**} [الأعراف: ١٥٧].

والمتأمل للسنة النبوية يجدها تدعو المسلمين إلى المداومة على قراءة القرآن وعدم الجفاء عنه.. يقول صلى الله عليه وسلم: "**اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه**"[2].

ويقول: « **اقرءوا القرآن، ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه، ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به**»[3].

وينبه الرسول صلى الله عليه وسلم على ضرورة المداومة والتعاهد للقرآن وإلا فالعقوبة الفورية في الانتظار؛ لأن القرآن كما علمنا ربنا: {**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ**} [فصلت: ٤١]، فهو يعامل العبد على أساس معاملته له، فإن هجره وجفاه، ثم أراد أن يعود إليه ففي الغالب لن يجد روحه ونوره وأثره في انتظاره، وعليه أن يبذل مجهودا كبيرا لكي يعود الاتصال بينه وبين القرآن، وهذا ما عبر عنه قوله صلى الله عليه وسلم: "**تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتا من الإبل من عقلها**"[4].

---

[1] أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض: ١٧٧٩.

[2] أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة: ١٩١٠.

[3] رواه أحمد في المسند، من مسند المكيين، زيادة في حديث عبد الرحمن بن شبل: ١٥٥٦٨، وصححه الأرناؤوط في تحقيق المسند، والألباني في السلسلة الصحيحة: ٢٦٠. وقوله: ولا تغلوا فيه بأن تبذلوا جهدكم في قراءته وتجويده من غير تفكر كما قال في الحديث الآخر لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث، وقوله:لا تستكثروا به: أي أي لا تجعلوه سببا للإكثار من الدنيا.(المناوي في فيض القدير: ٨٣/٢)

[4] أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده: ٤٧٤٦.

وقوله: "**بئسما لأحدكم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسِّي، فاستذكروا القرآن، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيا من صدور الرجال من النَّعَمِ بعقلها**"[1].

واستذكار القرآن هو المداومة على تلاوته والاجتهاد في تذكر معاني آياته، وما فتح الله على العبد منها من معان إيمانية هادية وشافية.

حال المؤمن مع القرآن:

حين يدرك المؤمن قيمة القرآن وقدره، ويستشعر عظيم احتياجه الدائم إليه، فإنه سيكون على اتصال دائم مستمر به، وإن آل ذلك إلى ترك نومه وملاذِّه، ومِن ثَمَّ فمن المتوقع أن تجده يسهر معه بالليل حيث السكون والهدوء، وكلما نادته نفسه بالنوم قاومها من أجل الاستمرار مع صاحبه القرآن، فيؤدي هذا إلى شحوب وجهه من قلة الراحة، ولعلنا من خلال هذا التوصيف ندرك معنى تمثُّل القرآن لصاحبه يوم القيامة على صورة رجل شاحب، وكأنه يريه حاله الذي كان عليه في الدنيا.

أخرج ابن ماجه عن بريدة الأسلمي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب، فيقول: ألا تعرفني؟ فيقول: أنا الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك**"[2].

إنه لشيء رائع تلك العلاقة التي تنشأ بين من يلتزم القرآن في ليله ونهاره، وبين القرآن ذاته، والتي تظهر نتيجتها في أوقات الشدائد، وأهمها يوم القيامة.

عن أبي أمامة قال: أمرنا رسول الله بتعلم القرآن، وحثنا عليه، وقال: "**إن القرآن يأتي أهله يوم القيامة أحوج ما كانوا إليه، فيقول للمسلم: أتعرفني؟ فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا الذي كنتَ تُحب.. وتكره أن يفارقك.. الذي كان يسحبُك ويدنيك، فيقول: لعلك القرآن؟! فيقدم به إلى ربه عز وجل، فيُعطى المُلك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه السكينة، وينشر**

---

١ متفق عليه، البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب نسيان القرآن وهل يقول نسيت آية كذا وكذا؟: ٤٧٥٢، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الأمر بتعاهد القرآن وكراهة قول نسيت آية كذا: ١٨٧٧.

٢ أخرجهوأحمد في مسند، في باقي مسند الأنصار، من حديث بريدة الأسلمي: ٢٣٠٢٦، وابن ماجه، كتاب الأدب، باب ثواب القرآن: ٣٧٨١، وفي الزوائد للبوصيري : إسناده صحيح رجاله ثقات، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة ٣٣٠/٦ إسناده حسن، وقال ابن حجر في المطالب العالية (٦٦/٤): إسناده حسن، وصححه السيوطي في البدور السافرة ٧٣، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٨٢٩.

وقوله: (كالرجل الشاحب) قال السيوطي هو المتغير اللون والجسم لعارض من العوارض كمرض أو سفر ونحوهما، وكأنه يجيء على هذه الهيئة ليكون أشبه بصاحبه في الدنيا . أو للتنبيه له على أنه كما تغير لونه في الدنيا لأجل القيام بالقرآن كذلك القرآن لأجله في السعي يوم القيامة، حتى ينال صاحبه الغاية القصوى في الآخرة .

على أبويه حلتان لا يقوم لهما الدنيا أضعافا، فيقولان: لأي شيء كُسينا هذه ولم يبلغه أعمالنا؟! فيقول: هذا بأخذ ولدكما القرآن"[١].

تأمل قوله صلى الله عليه وسلم: "**الذي كان يسحبك ويدنيك**" وأطلق –أخي – لذهنك العنان في التفكير في معانيها...

.. فهو الذي كان يسحبك من فراشك ويدنيك من ربك..

وهو الذي كان يسحبك من شهواتك وغفلاتك ويدنيك إلى دوام تذكرك وتقواك.

وهو الذي كان يسحبك إلى فعل الخير، ويدنيك من ساحة البر

وعن ابن عمر قال: يجيئ القرآن يشفع لصاحبه، يقول: يارب لكل عامل عُمَالة من عمله، وإني كنت أمنعه اللذة والنوم، فأكْرِمه، فيقال: ابسط يمينك، فتُملأ من رضوان الله، ثم يُقال: ابسط شمالك، فيُملأ من رضوان الله، ويُكسى كسوة الكرامة، ويُحلى بحلية الكرامة، ويُلبس تاج الكرامة[٢].

من هنا ندرك أن الذي يلتزم القرآن ولا يجفو عنه يضع نفسه في أفضل صورة يمكن أن يكون عليها المؤمن.. يقول صلى الله عليه وسلم: "**لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، فسمعه جار له فقال: ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان فعملت مثلما يعمل. ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق، فقال رجل: ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان فعملت مثلما يعمل**"[٣].

ويكفي أن المسلم بهذه الحالة من الالتزام بالقرآن وعدم الجفاء عنه يكون ممن يحبهم الله عز وجل، فعن أبي ذر الغفاري مرفوعا: "**ثلاثة يحبهم الله، .. وذكر منهم: وقوما ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به؛ نزلوا فوضعوا رؤوسهم، فقام يتملقني، ويتلو آياتي**"[٤].

إن الاتصال الدائم بالقرآن يعني استمرار اليقظة والتذكر والحضور القلبي مع الله.. جاء رجل إلى أبي سعيد الخدري وقال: أوصني. فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من

---

١ أخرجه الطبراني في الكبير بنحوه ٢٩١/٨ برقم: ٨١١٩، وابن الضريس في فضائل القرآن ص ٥٦ بسند ضعيف.

٢ رواه الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن: ٣٣١٢.وقال حسين سليم أسد: إسناده حسن لأجل عاصم.

٣ أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم رجل آتاه القرآن..: ٤٧٣٧.

٤ أخرجهأحمد، مسند الأنصار، حديث المشايخ عن أبي بن كعب: ٢١٣٩٣، وابن خزيمة، كتاب الزكاة، باب فضل الصدقة الصحيح الشحيح...: ٢٤٥٦، والنسائي، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، فضل قيام الليل في السفر: ١٦١٥، والترمذي، أبواب صفة الجنة: ٢٥٦٨،وغيرهم، قال الترمذي: صحيح، وصححه الأرناؤوط في تحقيق المسند.

قبلك، فقال: أوصيك بتقوى الله؛ فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد؛ فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن؛ فإنه روحك في السماء، وذكرك في الأرض. [1]

أخطار الجفاء عن القرآن:

عندما يصل الإنسان إلى سن التكليف فإنه يبدأ السير في رحلة العودة إلى الله، ويشرع في أداء امتحان عبادته – سبحانه – بالغيب، شاء أم أبى.. تذكّر أم نسى.. انتبه أو غفل.. صدَّق أو كذّب.. آمن أو كفر..

ومن رحمة الله بعباده أنْ أكرمهم بالقرآن الكريم كوسيلة متفردة للإقناع والإيمان بهذه الحقيقة، والتذكير الدائم بها، والإعانة – بإذن الله – على القيام بواجباتها، لذلك كان من الضروري أن يتواصلوا معه بشكل يومي دائم حتى يحقق هدفه فيهم، ويوم أن يُعرِضوا عنه سواء كان ذلك بسبب الغفلة أو النسيان أو التكذيب أو الإهمال؛ فإنهم يُعرّضون أنفسهم لمخاطر جمَّة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولا: استدعاء عقوبة الغفلة والإعراض عن آيات الله:

لقد خلقنا الله عز وجل لنعبده بالغيب، والعبادة تتضمن كمال الحب، وكمال الذل والافتقار إليه، والطاعة والانقياد له، والمهابة والخشية منه، ودوام التقوى والشكر.

ولا يمكن أن تتمثل فينا هذه المعاني إلا من خلال معرفة الله جل شأنه، فالمعاملة على قدر المعرفة، ولقد أتاح لنا سبحانه الطريق السليم لمعرفته من خلال معلومات عنه جل شأنه بثها في الكون، وضمَّنها القرآن، وسمّاها بالآيات، فالنظر في تلك الآيات واستنطاقها للتعرف على الله من خلالها هو الهدف الأساس من وجودها {**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**} [البقرة: ١٦٤].

فإن قلت: ولكنه يصعب عليَّ فهم الآيات واستنطاقها، والتعرف على الله من خلالها.. فماذا أفعل؟

جاءك بفضل الله الجواب بأنه – سبحانه – أنزل كتابا يتضمن أعظم آياته الدالة عليه، وما علينا إلا أن نداوم على قراءته والتفكر فيه حتى نصل لهدفنا المنشود.. ويكفيك تأكيدا لهذا المعنى قوله تعالى: {**وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ**

[1] أخرجه أحمد (٨٢/٣، رقم ١١٧٩١) قال الهيثمى (٢١٥/٤) : رجاله ثقات.

(٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

ولأن الهدف من التفكر في الآيات هو دوام التذكر وزيادة المعرفة التي تؤدي إلى تحقيق معاني العبودية، والتي يأتي على رأسها (التقوى): كان من أهم أهداف القرآن هو تحقيق ذلك: **{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا}** [طه: ١١٣].

{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الزمر: ٢٧، ٢٨].

ولكي تتحقق أهداف تلاوة هذا الكتاب في نفس المسلم وقلبه وعقله من تذكرة وتقوى لابد من دوام قراءته وتدبره، فإن لم يفعل ذلك وضع نفسه في دائرة الغافلين، المنكبين على أنفسهم، اللاهين عن وظيفتهم الوحيدة التي من أجلها خلقوا: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}** [الأعراف: ١٧٢].

فالإعراض عن الاتصال بالقرآن يُعرّض صاحبه لعقوبة المعرضين عن آيات الله، الغافلين عنها: **{فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ}** [الأنعام: ١٥٧].

إن الأمر جد خطير: **{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ}** [الأنبياء: ١ - ٣].

{أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ؟} [النجم: ٥٩، ٦٠]

من هنا يتبين لنا الأهمية القصوى للاتصال الدائم بالقرآن، والتفكر فيه، والانتفاع بآياته.. يقول صلى الله عليه وسلم: "**من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين**"[١].

ومن أخطار الجفاء عن القرآن:

ثانيا: أنه دليل على عدم الاهتمام والتوقير للقرآن:

---

[١] أخرجه أبو داود في سننه، أبواب قراءة القرآن وترتيله وتحزيبه، باب تحزيب القرآن: ١٣٩٨، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، فضل قراءة ألف آية: ١١٤٤، وابن حبان في صحيحه، فضل قيام الليل: ٢٥٧٢، وحسنه الأرناؤوط في تحقيق ابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: ٦٤٣٩.

لو أنك قابلت رجلا ذا جاه ومكانة عظيمة بين الناس، وتعرفت عليه، وطلبت منه زيارتك في منزلك، ثم جاءك في الموعد المحدد فلم يجدك، وانتظرك طويلا فلم تأت، ثم انصرف، أترى لو قابلته بعد ذلك وطلبت منه تكرار الزيارة سيفعل كما فعل من قبل؟!

وتُراه لو كان قد وجدك في المرة الأولى لكنك لم تجلس معه، ولم تُحسِن ضيافته، وانشغلت بأمور بيتك عنه، هل سيكرر تلك الزيارة؟!

هذه المواقف إذا ما حدثت بيننا على أرض الواقع؛ فإننا لن نستنكر رد فعل الرجل ذي المكانة العظيمة على تجاهلك له، فكيف بالقرآن العظيم، المجيد، ذي الشرف، أحسن الحديث، الحكمة البالغة؟!!

ألا تتوقع حين نتجاهل القرآن - وهو بيننا – أن تنزل علينا العقوبات؟!

إن القرآن كتاب عزيز، ذو مكانة بالغة الشرف والعلو، فإن لم يتم الاهتمام بوجوده بالشكل الذي يليق به؛ فسيتباعد عنا، ويفلت أثره وروحه ونوره من بيننا.. يقول صلى الله عليه وسلم: "**إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت**"[1].

ففي الحديث تشبيه بتعاهد القرآن والمداومة على قراءته والاتصال به، بربط البعير الذي يخشى منه الشرود، فكلما حدث التعاهد للقرآن، حدث الانتفاع به والوصال مع روحه، "كما أن البعير ما دام مشدودا بالعقال فهو محفوظ وموجود، وخص الإبل بالذكر لأنها أشد الحيوان الإنسي نفورا، وفي تحصيلها بعد استمكان نفورها صعوبة"[2].

ويؤكد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: " **تعلموا كتاب الله، وتعاهدوه، وتغنوا به، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل المخاض في العُقُل**"[3].

ومن الأخطار كذلك:

ثالثا: قسوة القلب

هناك معركة شرسة يخوضها الشيطان مع بني آدم ليضلهم عن سبيل الله {**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**} [فاطر: ٦].

١ أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الأمر بتاعهد القرآن وكراهة قول نسيت آية كذا: ١٨٧٥.

٢ منهج السلف في العناية بالقرآن لبدر بن ناصر البدر ص: ٤٧.

٣ النسائي في سننه الكبرى، كتاب فضائل القرآن، باب الأمر بتعلم القرآن والعمل به: ٧٩٨٠، قال الشيخ الألباني: صحيح، انظر حديث رقم: ٢٩٦٤ في صحيح الجامع.

ويدخل الشيطان على الإنسان من بابي الشبهات والشهوات، ويستغل جهله، وولوع نفسه بتحصيل الشهوات، وحب الاستمتاع الدائم بها؛ لتنفيذ مخططاته، وليس ذلك فحسب، بل إن الدنيا التي جعلها الله عز وجل مكانا لاختبار الناس في عبوديتهم له بالغيب، مليئة بالزينة والزخارف الملهية {**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**} [الكهف: ٧].

فإذا ما استسلم العبد لوساوس الشيطان وهوى نفسه، وافتتن بالدنيا، فإن ذلك يعرضه لقسوة قلبه تجاه الله عز وجل والآخرة، فلا تجده ينتفع بموعظة، ولا تذكرة..

لذلك كان من الأهمية بمكان تعاهد القلب وإمداده بالإيمان بحقائق الوجود حتى يظل حيا نابضا، وأفضل وسيلة لذلك هي القرآن {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**} [الأنفال: ٢٤].

قال قتادة في قوله تعالى: {**لِمَا يُحْيِيكُمْ**} قال: هو هذا القرآن، فيه النجاة والبقاء والحياة[١].

لقد أنزل الله لنا القرآن كدواء يشفينا ويعيننا – بإذن الله – على استمرار حياة القلب وعدم استيلاء الهوى عليه، ومِن ثَمّ فينبغي تناول هذا الدواء كل يوم بكمية معتبرة حتى يحقق هدفه – بإذن الله–فإن فات المرء ذلك فقد عرّض نفسه لأخطار جمة، ويكفي في بيان هذا الأمر قوله تعالى: {**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**} [الحديد: ١٦].

تأمل قوله تعالى: {**فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**} [الحديد: ١٦]، أي: طال عليهم الزمن بلا تذكير فنتج عن ذلك قسوة قلوبهم.

ويؤكد الصحابي أبو موسى الأشعري رضي الله عنه على هذا المعنى فيقول في نصيحته إلى قُرَّاء البصرة: اتلوه، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم[٢].

ومن أقوال ابن مسعود رضي الله عنه: إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد، وقست قلوبهم، اخترعوا كتابا من عند أنفسهم، استهوته قلوبهم، واستحلته ألسنتهم، وكان الحق يَحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.[٣]

ومن أخطار الجفاء عن القرآن:

---

[١] تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٢٧٣.

[٢] أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين..: ٢٤٦٦.

[٣] رواه ابن أبي حاتم في التفسير: ١٢/٢٨٧، والطبري: ٢٣/١٨٨، والبيهقي في شعب الإيمان، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ٧١٨٣، واللفظ للبيهقي، وصححه الألباني في الصحيحة ٢٦٤٩.

رابعا: غياب الأثر:

إن الأثر الذي يحدثه اللقاء الدائم بالقرآن يتعدى الفرد إلى المحيط الذي يتعامل معه، وعندما يجفو المؤمن عن القرآن يضعف هذا الأثر ويغيب، ويؤكد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة؛ طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به كالتمرة؛ طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة، ريحها طيب وطعمها مُر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة، طعمها مُر أو خبيث وريحها مُر"[1].

فالطعم يشعر به من يتناوله فقط، أما الريح فيشعر بها من حوله، وهذا يدل على أن الملتزم بالقرآن غير الجافي عنه، والمتدبر لتلاوته هو الأكثر تأثيرا في الآخرين.

يقول ابن حجر: الحكمة في تخصيص الأُترُجَّة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيب الطعم والريح لأنه يتداوى بقشرتها، وقيل إن الجن لا تقرب البيت الذي فيه الأترج، فناسب أن يمثل به القرآن الذي لا تقربه الشياطين، وغلاف حبه أبيض، فيناسب قلب المؤمن، وفيها أيضا من المزايا كبر جرمها (حجمها)، وحُسن منظرها، وتفريح لونها، ولين ملمسها، وفي أكلها مع الالتذاذ؛ طيب نكهة، ودباغ معدة، وجودة هضم، ومنافع أخرى[2]. بينما التمرة فمهما كان عندك منها الكثير، فلا يشعر أحد بذلك ممن حولك.

ومن أخطار الجفاء عن القرآن:

خامسا: نسيان معاني القرآن:

من الضروري أن يتذكر المسلم بصورة دائمة المعاني التي تعلمها من القرآن في التلاوة أو المدراسة، وهذا لن يتم بدون المداومة على الاتصال به وتدبر آياته. وإذا جفا عنه فبمرور الوقت سينسى ما تعلمه.. جاء في الحديث: "بئسما لأحدكم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسِّي، فاستذكروا القرآن، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيا من صدور الرجال من النَّعَمِ بعقلها"[3].

وقال أبو العالية: كنا نعُدُّ من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ثم ينام عنه حتى ينساه[4].

---

[1] متفق عليه: البخاري، كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم: ٤٧٣٢، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن: ١٨٩٦.

[2] فتح الباري: ٦٦/٩، ٦٧.

[3] سبق تخريجه ص: ٨٠.

[4] الزهد لأحمد بن حنبل: ص ٣٠٣.

لذلك نجد النهي عن توسد القرآن، ومدح من لا يتوسده، فقد ذُكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجلا (وهو شريح الحضرمي) فقال: **ذاك لا يتوسد القرآن**[1]. أي لا ينام عن القرآن.

وسُئل أحمد بن صالح عن ذلك فقال: يعني يقوم به الليل ولا ينام.

وقيل للحسن: يا أبا سعيد؛ ما تقول في رجل استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه فلا يقوم به، إنما يُصلي المكتوبة. فقال: يتوسد القرآن؟!! لعن الله ذاك[2]

سادسا: الحرمان من الثواب والأجر:

القرآن الكريم له مكانة عظيمة عند الله جل شأنه، وله وظيفة متفردة في إحياء القلب وتغيير السلوك؛ ولقد رتب الله جل شأنه على قراءته ثوابا عظيما تشجيعا وتحفيزا للمسلمين على مداومة قراءته، وغني عن البيان أن المقصود بقراءته: تفهمه وتدبر معانيه واتباع توجيهاته.

وكما هو معلوم بأن كلمة "اقرأ" في كل لغات العالم تعني: اقرأ وافهم، فلا توجد كتب تُقرأ بلا فهم، وكتب أخرى تُقرأ بفهم، فينبغي أن يتبادر للذهن عند سماع كلمة "اقرأ" أن المقصود هو القراءة بفهم.

ولئن كان هذا أمرا بدهيا عند الجميع؛ فإننا بحاجة إلى تأكيده دوما فيما يخص قراءة القرآن، حتى لا يُصبح متفردا بكونه الكتاب الوحيد في العالم الذي يُقرأ بلا فهم، تحت دعوى البحث عن الأجر والثواب المترتب على قراءته، والتي وردت به أحاديث متعددة.

ونحن هنا نتحدث عن الأخطار التي يواجهها من ترك القراءة الصحيحة للقرآن، والتي تتضمن الحرمان من الثواب المُترتب عليها.

وهذا خطر عظيم، فالمسلم دوما بحاجة إلى استمطار رحمة الله ومغفرته من خلال القيام بالأعمال التي ندبه إليها، والتي من شأنها أن تثقل موازينه يوم القيامة بإذن الله.

وعندما يجفو المسلم القرآن فإنه يحرم نفسه من ثواب عظيم كان في متناول يده بإذن الله، فالحرف بعشر حسنات، والله يضاعف لمن يشاء.

---

[1] رواه أحمد، مسند المكيين، حديث السائب بن يزيد: ١٥٧٦٢، ١٥٧٦٣، والنسائي، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، باب وقت ركعتي الفجر: ١٧٨٣، وصححه ابن حجر في الإصابة: ٣٣٩/٣، والأرناؤوط في تحقيق المسند.

[2] الطبري في التفسير بسند صحيح ٦٩٨/٢٣

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"اقرءوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه، أما إني لا أقول: "ألم" حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر، فتلك ثلاثون"**[1].

وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **من قرأ حرفا من كتاب الله؛ فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول "ألم" حرف، ولكن ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميمٌ حرف.** [(٢)]

سابعا: الحرمان من البركة والخير:

فالبركة تعني النماء، ولقد وردت أحاديث وآثار عن الصحابة بأن البيت الذي يُقرأ فيه القرآن بصفة عامة، وسورة البقرة بصفة خاصة، يكثر خيره وبركته، وتحضره الملائكة، وتفر منه الشياطين، وفي المقابل فمن جفا عن القرآن فقد عرَّض نفسه للحرمان من هذا الخير، يقول صلى الله عليه وسلم: ".. **اقرءوا سورة البقرة؛ فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة**". قال معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة[3]

وعن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تجعلوها عليكم قبورا، كما اتخذت اليهود والنصارى في بيوتهم قبورا، وإن البيت ليُتلى فيه القرآن فيتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض."** [(٤)]

وعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"البيت إذا قرئ فيه القرآن حضرته الملائكة وتنكبت عنه الشياطين واتسع على أهله ، وكثر خيره ، وقل شره ، وإن البيت إذا لم يقرأ فيه القرآن حضرته الشياطين ، وتنكبت عنه الملائكة ، وضاق على أهله ، وقل خيره ، وكثر شره"**[5].

وعن ابن سابط أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"البيت الذي يُقرأ فيه القرآن يكثُر خيره، ويوسع على أهله، ويحضره الملائكة، ويهجره الشياطين، وإن البيت الذي لا يُقرأ فيه: يضيق على أهله، ويقل خيره، ويهجره الملائكة، ويحضره الشياطين، وإن البيت الذي يُقرأ فيه القرآن**

---

[1] أخرجه الترمذي، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر: ٢٩١٠، واختلف في وقفه ورفعه.

[(٢)] أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير (٢١٦/١) ، والترمذى (١٧٥/٥، رقم ٢٩١٠) وقال: حسن صحيح غريب. والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٤٢/٢، رقم ١٩٨٣)

[3] رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة: ١٩١٠.

[(٤)] أصل الحديث عند البخاري ومسلم، وبهذا اللفظ ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢٩/٨ وقال: حديث نظيف الإسناد حسن المتن. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ٣١١٢.

[5] رواه البزار ٣٠٢/٢ برقم: ٦٦٧٢، ومحمد بن نصر في مختصر قيام الليل: ٢٠٧. واللفظ له، وضعفه الهيثمي.

ويثور فيه يضيء لأهل السماء كما يضيء النجم الأرض" قال: ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"**بشِّر المشائين في الظلم إلى المساجد بنور من الله يوم القيامة**"، قال معمر: وسمعت رجلا من أهل المدينة يقول: إن أهل السماء ليتراؤون البيت الذي يُقرأ فيه القرآن ويصلى فيه كما يتراءى أهل الدنيا الكوكب الذي في السماء"[1].

وعن ابن مسعود موقوفا قال:"**إن أصفر البيوت من الخير: البيت الصفر من كتاب الله عز وجل**"[2].

فأي خسارة نخسرها وتخسرها بيوتنا بالجفاء عن القرآن؟!

عن عبد الله بن مسعود قال: البيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن كمثل البيت الخرب الذي لا عامر له[3].

وكان أبو هريرة يقول: البيت إذا تلي فيه كتاب الله اتسع بأهله، وكثُر خيره، ودخلته الملائكة، وخرجت منه الشياطين، والبيت إذا لم يتل فيه كتاب الله ضاق بأهله، وقل خيره، وحضرته الشياطين، وخرجت منه الملائكة[4].

وعن سلام بن أبي مطيع قال: كان قتادة يقول: اعمروا به قلوبكم، واعمروا به بيوتكم، قال: أراه يعني: القرآن[5].

أخي:

.. يا حسرتنا على ما فاتنا من خير!!

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: البيت الذي يُقرأ فيه القرآن كالبيت الذي فيه المصباح، والبيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن كالحُشّ[6].

---

[1] مصنف عبد الرزاق: ٣٦٩/٣ برقم: ٥٩٩٩. وهو مرسل ضعيف.

[2] رواه موقوفا على ابن مسعود: عبد الرزاق في المصنف، كتاب فضائل القرآن، باب تعليم القرآن وفضله: ٥٩٩٨، والطبراني في مسند الشاميين، عطاء عن أبي هريرة: ٢٣٥٥. ومع ذلك فهو في حكم المرفوع للأسباب التي قدمناها في الصفحة الفائتة. والصفر هو الخالي.

[3] مصنف ابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، باب البيت الذي يقرأ فيه القرآن: ٣٠٠٢٢.

[4] مصنف ابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، باب البيت الذي يقرأ فيه القرآن: ٣٠٠٢٧، وفضائل القرآن لمحمد بن الضريس ص٩٠. بسند صحيح.

[5] سنن الدرامي، كتاب فضائل القرآن، باب تعاهد القرآن: ٣٣٤٢.

[6] عزاه الغافقي في لمحات الأنوار (٢٨٧/١) إلى إسحق بن إبراهيم في كتاب النصائح، والحُش: مكان قضاء الحاجة، وفيه الأذى والقذر والأنجاس.

فلننتبه ولنتذكر قول ابن عباس: ما يمنع أحدكم إذا رجع من سوقه، أو من حاجته؛ فاتكأ على فراشه، أن يقرأ ثلاث آيات من القرآن[1].

ومن أخطار الجفاء عن القرآن:

ثامنا: أخطار ما بعد الموت:

إن أخطار الجفاء عن القرآن لا تقتصر على الحياة الدنيا فقط، بل تمتد إلى الحياة البرزخية واليوم الآخر كذلك؛ روى البخاري من حديث سمرة بن جندب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيها: "**فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة، يشدخ بها رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه، وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه، قلت: "من هذا؟" قالا: انطلق.**

وفي آخر الحديث: "**والذي رأيته يشدخ رأسه؛ فرجل علمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار، يُفعل به إلى يوم القيامة**[2].

التطبيق العملي عند الجيل الأول للالتزام بالقرآن وعدم الجفاء عنه:

للجفاء عن القرآن – كما مر علينا – عقوبات ومخاطر متعددة، تشمل الدنيا والآخرة، وفي الالتزام به والمداومة على تلاوته تحصيل خيرات الدنيا والآخرة، ولقد تمثل هذا المعنى بوضوح في واقع حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام، فقد كانوا شديدي الحرص على تلاوته بشكل يومي مهما كانت مشاغلهم، بل إنهم كانوا يضعونه في مقدمة أعمالهم إذا ما تعارضت.

أخبر أوس بن حذيفة أنه كان في الوفد الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني مالك فأنزلهم في قبة له في المسجد، أو قال بين المسجد وبين أهله قال: فكان يأتينا فيحدثنا بعد العشاء، وهو قائم حتى يراوح بين قدميه من طول القيام، وكان أكثر ما يحدثنا شكايته قريشا وما كان يلقى منهم. ثم قال: "كنا مستضعفين بمكة، فلما قدمنا المدينة، انتصفنا من القوم، وكانت سجال الحرب بيننا؛ علينا ولنا". قال: فاحتبس عنا ليلة، فقلنا: يا رسول الله، لبثت عنا الليلة أكثر مما كنت تلبث؟، فقال: "نعم طرأ علي حزبي من القرآن، فكرهت أن أخرج من المسجد حتى أقضيه"[3].

---

١ رواه الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب تعاهد القرآن: ٣٣٣٦.

٢ أخرجه البخاري، كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين: ١٣٢٠.

٣ رواه أحمد مسند المدنيين، حديث أوس بن أوس: ١٦٢١١، أبو داود، أبواب قراءة القرآن، تحزيب القرآن: ١٣٩٣، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في كم يستحب ختم القرآن؟: ١٣٤٥، وحسنه ابن كثير في فضائل القرآن ص:٨٣، والعراقي في تخريج الإحياء: ٢٧٦/١.

وعن عبد الرحمن بن عبدٍ القاري قال: استأذنت على عمر بالهاجرة[1]، فحبسني طويلا ثم أذِن لي، وقال: كنت في قضاء وردي[2].

وكان أبو موسى الأشعري يقول: إني لأستحي ألا أنظر كل يوم في عهد ربي مرة.[3]

وكان عمر بن الخطاب إذا دخل بيته نشر المصحف وقرأ فيه٤.

ودخلوا على عثمان وهو يقرأ في المصحف فقال: والله إني لأكره أن يأتي عليّ يوم لا أنظر فيه في عهد الله عز وجل.[5]

وكان عبد الله بن مسعود إذا أصبح أمر غلامه فنشر المصحف.

وكان الحسن بن علي يقرأ ورده من أول الليل، وأن حُسينا كان يقرأه من آخر الليل٦.

وعن عائشة قالت: إني لأقرأ جزئي – أو قالت: حزبي – وأنا جالسة على فراشي، أو على سريري٧.

وعن إبراهيم قال: كان أحدهم إذا بقي عليه في جزئه شيء فنشط، قرأه بالنهار، أو قرأه من ليلة أخرى، وربما زاد عليه[8].

وبعد أن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل ثم أبا موسى الأشعري إلى اليمن؛ كانا يلتقيان، فقال معاذ لأبي موسي: كيف تقرأ القرآن؟ فقال: أتفوقه تفوق اللقوح[9]، فكيف تقرأ أنت؟ قال أنام أول الليل، فأقوم وقد قضيت كراي، فأقرأ ما كتب لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي[10].

والقبة: هي الخيمة الصغيرة أعلاها مستدير أو البناء المستدير المقوس المجوف.. ويراوح: يَعْتَمِد على إحدَاهما مرةً وعلى الأخرى مرةً ليُوصل الراحةَ إلى كل منهما.. والحرب سجال: مَرَّة لنا ومَرَّة علينا ونصرتها متداولة بين الفريقين، احتبس: تأخر، اللبث : الإبطاء والتأخير والانتظار والإقامة، طرأ علي: يريد أنه قد أغفله من وقته ، ثم ذكره فقرأه، والحزب : ما يجعله الرجُل على نفسه من قراءة كالورْد..

[1] حر الظهيرة.

٢ فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٨٥. بإسناد حسن.

٣ ذكره القرطبي في التفسير: ٢٨/١

٤ تفسير الطبري ٤٩٩/١١.

٥ رواه عبد الله بن أحمد في السنة ١٤٧/١، والبيهقي في الشعب ٥١١/٣، والأسماء والصفات ٥٩٣/١.

٦ رواه القاسم بن سلام في الفضائل ص ١٨٦.

٧ فضائل القرآن للفريابي ص ٢٣٠، والقاسم بن سلام ص ١٨٦.

٨ فضائل القرآن لأبي عبيد ١٨٦، ١٨٧.

[9] أي أَقرؤه مُتَمَهِّلاً شيئاً بعد شيء بتدبر وتفكر كاللَّقُوحِ تُحْلَبُ فُواقاً بعد فُواقٍ لكثرة لَبَنها. (لسان العرب مادة لقح ٥٧٩/٢)

١٠رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن: ٤٠٨٦.

ولقد تجلى حرص الصحابة على عدم الجفاء عن القرآن حتي في المعارك الطويلة التي كانت تمتد أياما، وأقدم لك أخي القارئ مثالا على ذلك في فتح بلاد فارس وانتصار المسلمين على الفرس في القادسية، فلقد كتب سعد بن أبي وقاص كتابا إلى عمر بن الخطاب يخبره بالفتح قال فيه:

" أما بعد فإن الله نصرنا على أهل الفرس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال طويل، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها، فلم ينفعهم الله بذلك، بل سُلبوه ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار، وصفوف الآجام، وفي الفجاج، وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القاري، وفلان وفلان، ورجال لا يعلمهم إلا الله، فإنه بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن إذا جن عليهم الليل كدوي النحل، وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود، ولم يفضل من مضى منهم على من بقي إلا بفضل الشهادة إذ لم تكتب لهم[1].

وفي فتوحات الشام - كما أورد ابن كثير في البداية والنهاية – قال الوليد بن مسلم: أخبرني من سمع يحيى بن يحيى الغساني يحدث عن رجلين من قومه قالا: لما نزل المسلمون بناحية الأردن تحدثنا بيننا أن دمشق ستحاصر فذهبنا نتسوق منها قبل ذلك، فبينما نحن فيها إذ أرسل إلينا بطريقها فجئناه، فقال: أنتم من العرب؟ قلنا: نعم، قال: وعلى النصرانية؟، قلنا: نعم، فقال: ليذهب أحدكما فليجسس لنا عن هؤلاء القوم ورأيهم، وليثبت الآخر على متاع صاحبه. ففعل ذلك أحدنا فلبث مليا ثم جاءه فقال: جئتك من عند رجال دقاق يركبون خيولا عتاقًا، أما الليل فرهبان، وأما النهار ففرسان.. لو حدثت جليسك حديثا ما فهمه عنك لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر. فقال: فالتفت إلى أصحابه وقال: أتاكم منهم مالا طاقة لكم به[2].

واقعنا والجفاء عن القرآن:

إذا تأملنا واقعنا مع القرآن، وبيوتنا مع القرآن، وليلنا مع القرآن فسنوقن أننا قد تجافينا عنه، فمن النادر أن تجد من بيننا من يحافظ على حزبه، ولو حافظ عليه فبدون تدبر، ومن السهل أن تمر علينا الأيام والليالي دون الاقتراب من المصحف، وما أيسر التعلل بأي ظرف طارئ لترك التلاوة، ثم بعد ذلك نشتكي من قسوة القلوب، وضيق الصدور، وعدم التوفيق، و... وإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

١ تاريخ الطبري: ٤٣٥/٢، والبداية والنهاية: ٥٤/٧.

٢ البداية والنهاية ٨/ ١٧، ١٨.

ومن أخطائنا مع القرآن:

التوجه الدائم نحو الكتب قبل القرآن

من أشد وأخطر الممارسات الخاطئة التي وقعنا فيها وتلبسنا بها، واستدعت مزيدا من الحرمان من روح القرآن وأثره: التوجه الدائم نحو الكتب في تحصيل المعرفة، وترك القرآن وعدم البدء به.

وكأني – أخي القارئ – أشعر بك وأنت تتمتم قائلا: وما الضير في ذلك؟! أليست الكتب النافعة هي مصدر تحصيل العلم والمعرفة؟ ألم يكن هذا فعل أبناء الأمة على مر عصورها؟!

الإجابة عن هذه الأسئلة يستلزم طرح بعض النقاط التي تشكل منطلقا أساسيا لفهم قضية التعامل مع الكتب وعلاقتها بالقرآن العظيم، والتي تتناول الحديث عن قدره وقيمته العلمية، ومكانة السنة النبوية، وأهمية الكتابة والكتب، شريطة ألا تتعدى القرآن وتحتل مكانته..

قيمة القرآن العلمية:

لقد اختص الله عز وجل الأمة الإسلامية بأعظم رسالة، فقد أنزل إليها القرآن العظيم الذي يحوي كل ما يحتاجه الفرد من العلم النافع اللازم لنجاحه في اختبار العبودية لله جل شأنه، فالقرآن يعد بمثابة أعظم أستاذ، وأهم مصدر للعلم على وجه الأرض {**لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**} [الأنبياء: ١٠]

وهو المنبع الصافي العذب الزلال لتحصيل العلم والإيمان {**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ**} [العنكبوت: ٥١]

فلا يوجد للقرآن مثيل {**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ** } [النحل: ٨٩]

فحق على من تعلم القرآن – كما يقول الضحاك – أن يكون فقيها {**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ**} [آل عمران: ٧٩]

وصدق عبد الله بن مسعود: إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن[١]

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتعاملون مع القرآن على هذا الأساس، يقول التابعي الجليل مسروق بن الأجدع: ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن.[١]

---

[١] أخرجه ابن المبارك في الزهد ص: ٢٨٠ برقم: ٨١٤، والقاسم بن سلام في فضائل القرآن ص: ٩٦.
ويقال: (أثار الأمر) أي: بحثه واستقصاه، (ويثير القرآن): أي يُنَقِّر عنه ويُفكّر في معانيه.

وعندما بكى الحارث بن عميرة عند احتضار معاذ بن جبل رضي الله عنه وسئل عن بكائه فقال: إنما أبكي لما يفوتني منك من العلم.

فقال له معاذ: إن الذي تبتغي من العلم بين لوحي المصحف[2]

وكيف لا؟ وكما يقول القرطبي بأن القرآن حوى جميع العلوم، فمن قرأه بتدبر وفهم، وعمل بمقتضاه فقد حصل الغاية القصوى التي ليس لأحد وراءها مرمى[3].

روى أبو إسماعيل الهروي أنه ما خطب عمر بن عبد العزيز على منبر النبي صلى الله عليه وسلم إلا قال: تعلموا القرآن وعلموه، فبه فقه الفقهاء، وبه علم العلماء، وهو غاية كل فقه.[4]

تبيانا لكل شيء:

وفي كتابه (الإتقان في علوم القرآن) أفرد الإمام السيوطي بابا لهذا المعنى سماه: العلوم المستنبطة من القرآن الكريم؛ قال فيه: قال تعالى:{**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ**} [النحل: ٨٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: "**ستكون فتن، فقيل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم..**"[5].

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد العلم فليثور القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين[6]، قال البيهقي: يعني أصول العلم.

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: جميع ما حكم به النبي فهو مما فهمه من القرآن[7].

وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: ما بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله تعالى[8].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب الله تعالى[1].

---

[1] أخرجه القاسم بن سلام في فضائل القرآن ص: ٩٦.

[2] رواه البزار من مسند معاذ بن جبل (٤١١/١) برقم: ٢٦٧١.

[3] التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي ص: ٥٤.

[4] الهروي في ذم الكلام وأهله ٢١٣/٣.

[5] الترمذي، أبواب فضائل القرآن، ما جاء في فضل القرآن: ٢٩٠٦، وقال : لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال. قال الشيخ الألباني: ضعيف جدا، انظر حديث رقم : ٢٠٨١ في ضعيف الجامع.

[6] رواه مسدد كما ذكره ابن حجر في المطالب العالية ١٣٣/٣، والطبراني في الكبير ١٤٦/٩.

[7] ذكرها عنه ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير ص ٣٩

[8] ابن أبي حاتم في التفسير ٢٠١٥/٦.

وقال الإمام الشافعي أيضا: ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها، فإن قيل: من الأحكام ما ثبت ابتداء بالسُّنة، قلنا: ذلك مأخوذ من كتاب الله في الحقيقة، لأن كتاب الله أوجب علينا اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وفرض علينا الأخذ بقوله[٢].

وقال الحافظ السيوطي: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها[٣].

مكانة السنة النبوية:

السنة النبوية تأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم وهي تابعة له تشرحه، وتبين ما أجمل فيه {**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**} [النحل: ٤٤]

وهي الوحي الثاني.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "**إني قد خلفت فيكم ما لن تضلوا بعدهما ما أخذتم بهما أو عملتم بهما، كتاب الله وسنتي، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض**".[٤]

فعندما نتحدث عن القرآن فالسنة تلحق به بالتبعية.

يقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله:

فالسنة والكتاب توأمان لا ينفكان، ولا يتم التشريع إلا بهما جميعا.

والسنة مبينة للكتاب، وشارحة له، وموضحة لمعانيه، ومُفسرة لمبهمه، فهي من الكتاب بمنزلة الشرح له، يُفصِّل مقاصده، ويُتم أحكامه[٥].

وقد أتى رجل إلى عمران بن حصين رضي الله عنه فسأله عن شيء، فحدثه، فقال الرجل: حدثوا عن كتاب الله ولا تحدثوا عن غيره.

---

[١] الطبراني في الكبير ٢٣٣/٩، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة الملائكة: ٣٥٨٩ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح، وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد.

[٢] الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ص: ٣٣٢/٢.

[٣] الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٨/٤.

[٤] رواه البزار، مسند أبي هريرة (٤٧٩/٢): ٨٩٩٣، والحاكم، كتاب العلم: ٣١٩، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد(١٨٣/٩): فيه صالح بن موسى الطلحي ضعيف. وأصل المعنى صحيح مشهور رواه الحاكم وابن عبد البر وغيرهما.

[٥] لمحات من تاريخ السنة لعبد الفتاح أبو غدة

فقال عمران بن حصين: إنك امرؤ أحمق! أتجد في كتاب الله تعالى صلاة الظهر أربعا لا يُجهر فيها؟! ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله مُفسرا؟ إن كتاب الله قد أَبهم هذا، وإن السنة تُفسر ذلك[1].

عقوبة متوقعة:

عندما يكون القرآن بهذا القدر العظيم عند الله عز وجل والذي ذكرنا نذرا يسيرا منه، وعندما يختص الله به المسلمين دون غيرهم من الأمم السابقة، ثم يتركونه إلى غيره بحثا عن المعرفة والهداية والتغيير.. فماذا تظن أن تكون النتيجة؟ ألا توافقني أن هناك عقوبة لابد أن تقع؟

فلو تخيلنا أن عالما وأستاذا عظيما في الهندسة – مثلا - أراد أن يكتب كتابا مبسطا يشرح فيه فرعا من العلوم التي نبغ فيها والذي يحتاجه طلاب الهندسة احتياجا شديدا، وأنفق من وقته وماله الكثير في سبيل إتمام هذا الكتاب، ثم قام بتوزيعه على الطلاب بالمجان حبا فيهم ورغبة في إفادتهم وعدم تشتتهم، فإذا به يجدهم غير مبالين بكتابه، وغير مهتمين به، بل يؤثرون عليه كتبا أخرى أقل في المحتوى والقيمة والإفادة منه، فما ظنك في ردة فعله؟ هل سيستمر في توزيع كتابه عليهم؟ وهل ستستمر طريقة تعامله معهم على ما كانت من قبل؟

هذا المثال الذي إذا ما حدث بيننا يجعلنا لا نستنكر ما قد يقوم به هذا العالم في التعبير عن غضبه تجاه كتابه، والذي قد يدفعه إلى حجب الكتاب عن الطلبة وحرمانهم منه.

ولله المثل الأعلى.. فكيف بالقرآن العظيم الذي أنزله رب العالمين ليكون لهم معلما ونذيرا وهاديا وشافيا بإذنه؟!! ألا تتوقع أن يغضب الله لكتابه؟!

القرآن في واد والناس في واد:

كلما تعودنا البحث في الكتب لطلب العلم والمعرفة؛ ازداد تقليلنا لشأن القرآن وقيمته العلمية والإيمانية دون أن نشعر، فالترتيب الطبيعي أن تتجه العقول والقلوب نحو القرآن العظيم بتلقائية عند البحث عن موضوع ما، فإن لم نجد بحثنا في السنة، ثم ننتقل إلى الكتب الأخرى إذا أردنا معرفة بعض المعاني الغامضة علينا، أو ما كان فيه التباس واستشكال على عقولنا، فإذا لم يحدث ذلك، وتعود المرء على التوجه مباشرة نحو الكتب لطلب العلم والمعرفة لأمر ما؛ فإن ذلك يؤدي تدريجيا إلى تخفيف قدر القرآن في قلبه، وإضعاف الثقة فيه، وكلما ضعفت الثقة زاد البعد وقلت الهيبة وكثر الامتهان، كل ذلك من شأنه أن يستدعي العقوبة من الله عز وجل بمزيد من إبعاد روح القرآن وتأثيره حتى لا يقدر المسلمون منه على شيء، وبتعاقب الأجيال وعدم القدرة

[1] عبد الله بن المبارك في مسنده ص ١٤٣.

على تحصيل شيء من أثر القرآن وروحه، يتسرب تدريجيا في نفوس المسلمين أن ما نفعله مع القرآن هو الصحيح، ويجتهدون في ربط كل ما ورد عن فضائل القرآن بما يفعلونه، ويتوهمون أن القرآن يعطيهم سعة في الرزق أو بركة في العمر أو صلاحا للأولاد..

فينطبق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "**يأتي على الناس زمان القرآن في واد وهم في واد آخر**"[1].

انحراف بني إسرائيل:

لقد كان انحراف بني إسرائيل عن صراط الله ماثلا دوما في مخيلة الرسول صلى الله عليه وسلم، والمتأمل لأحاديثه عنهم يستشعر هذا الأمر، وكان صلى الله عليه وسلم شديد الانتباه والحذر من وقوع أمة الإسلام فيما وقعت فيه بنو إسرائيل من أخطاء والتي كان من أبرزها: إهمالهم التوراة وانشغالهم بكتب علمائهم، كما سيأتي بيانه.

من هنا ندرك بعضا من أسباب تشديده صلى الله عليه وسلم للصحابة على عدم الكتابة خلفه، والاكتفاء بحفظ أحاديثه.

ولقد سار الصحابة رضوان الله عليهم على نهجه - كما سنرى بعون الله - وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون، وكما ورد في الحديث: "**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**[2]".

جواز الكتابة وتدوين العلم:

اتفقت الأمة على جواز الكتابة، وتدوين العلم، وهذا كلام صحيح، وعللوا نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الكتابة بأسباب وجيهة منها ما ذكره الخطيب البغدادي في كتابه تقييد العلم بقوله:

فقد ثبت أن كراهة من كره الكتاب في الصدر الأول، إنما هي لئلا يضاهى بكتاب الله غيره، أو يشتغل عن القرآن بسواه، ونهى عن الكتب القديمة أن تتخذ، لأنه لا يعرف حقها من باطلها، وصحيحها من فاسدها، مع أن القرآن كفى منها، وصار مهيمنا عليها.[3]

وقال النووي في (الشرح) عن القاضي عياض أنه قال:

---

[1] الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٢٨٧/٦ بسند ضعيف.

[2] رواه الإمام أحمد في المسند، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية: ١٧١٨٥، وأصحاب السنن غير النسائي. وصححه الأرناؤوط في تحقيق المسند.

[3] تقييد العلم للخطيب البغدادي ٥٧.

"كان بين السلف من الصحابة والتابعين اختلاف كثير في كتابة العلم، فكرهها كثيرون منهم، وأجازها أكثرهم، ثم أجمع المسلمون على جوازها وزوال ذلك الخلاف".[1]

وقال ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله):

من كره كتابة العلم إنما كرهه لوجهين:

أحدهما: ألا يُتخذ مع القرآن كتاب يُضاهى به.

ثانيهما: ولئلا يتكل الكاتب على ما كتب، فلا يحفظ فيقل الحفظ.[2]

كل هذا صحيح ونتبناه، وأغلب ما ذكره العلماء الثقات في هذا الشأن صحيح كذلك، ولكن يبقى السبب الأهم في النهي عن الكتابة هو الخوف على القرآن وعدم إضعاف الثقة فيه.

هل تجاوب المسلمون مع تحذيرات الصحابة؟

مما يدعو للأسف أن تحذيرات الصحابة رضوان الله عليهم لمن بعدهم لم تقع مواقعها الصحيحة في نفوسهم، وبدأ الاهتمام التدريجي بالكتب وكان ذلك على حساب القرآن وقدره في نفوسهم.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله:

هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث..

ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة..

ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين..

وكان تطور الفكر الإسلامي على هذا النحو وبالا على الإسلام وأهله، روى ابن عبد البر عن الضحاك بن مزاحم: يأتي على الناس زمان يعلق فيه المصحف حتى يعشش عليه العنكبوت، لا ينتفع بما فيه، وتكون أعمال الناس بالروايات والأحاديث.[3]

النتائج الوخيمة:

عندما هُجر القرآن كمصدر متفرد للعلم والإيمان احتاج الناس إلى بدائل، وظهرت الكثير من القضايا الشائكة التي حسمتها آيات القرآن، وتغيرت مفاهيم كثيرة كمفهوم العلم والفقه

---

[1] شرح النووي على صحيح مسلم ١٢٩/١٨، ١٣٠.

[2] جامع بيان العلم وفضله ١٣٩/١.

[3] فقه السيرة للغزالي ٤٢، ٤٣.

والتعامل مع الآيات المتشابهة، ووقعت الأمة في منزلق علم الكلام والمناظرات، وتغيرت الأوزان النسبية لمواضيع العلم، فما أعطاه القرآن حجما قليلا تم التوسع فيه كالأحكام الفقهية، وما توسع فيه القرآن لم ينل الاهتمام الكافي من العلماء كالسنن الحاكمة للكون والحياة، وقيام الأمم وهلاكها.

ليست دعوة لترك الكتب:

إن المقصد من طرح هذه المسألة الخطيرة ليس ترك الكتب، ولكن إدراك خطورة الانكباب عليها من دون القرآن، والتوجه الدائم نحوها قبل القرآن حين يريد المرء البحث عن معلومة يحتاجها، فالمطلوب أن يكون القرآن هو المصدر الأساس والرئيس للتلقي، وأن تتجه العقول والقلوب نحوه بصورة تلقائية عند إرادة البحث عن موضوع ما، وأن تكون آيات القرآن العظيم هي المادة الأولى والأساسية التي يستقى منها الدليل والمدلول.. العناصر وشرحها، مع الأخذ في الاعتبار أن السنة تأخذ حكم القرآن كما أسلفنا.

فإن قلت: ومتى أتوجه إلى الكتب؟!

نتوجه إلى الكتب بعد البدء بالقرآن والسنة، وذلك لمعرفة معنى دق علينا فهمه، أو التأكد من صحة فهمنا لمعنى من المعاني، أو التعرف على ما لم نفهمه من القرآن وفهمه غيرنا.

استنباط الأحكام الشرعية:

إن أغلب آيات القرآن تحتوي على معان هادية ترسم للمسلم طريق النجاح في اختبار العبودية لله عز وجل، وهناك نسبة ضئيلة من الآيات لا تتجاوز العُشر تتناول الأحكام الشرعية التي ينبغي أن يلتزم بها من ناحية الحِل والحرمة، كأحكام الطهارة والصلاة والصوم والحج والزواج والطلاق والبيوع..

وما نقصده من التوجه للقرآن أولا عند إرادة البحث في موضوع ما: إنما نقصد به المعاني الهادية فقط، أما ما يخص الأحكام الشرعية فلا ينبغي لنا أن نقفز مباشرة إلى آيات القرآن لنستنبطها منه، فهذا لا يجوز لنا وليس من اختصاصنا، بل من اختصاص الفقهاء، فعلينا أن نرجع لكتبهم ونعرف من خلالها الحكم الشرعي الصحيح في المسألة التي نبحث عنها.

وليس معنى ذلك هو عدم تدبر الآيات؛ بل المقصد هو عدم استنباط الأحكام الشرعية منها، وأن يكون تدبرها في حدود التعرف على المعاني الهادية التي تدل عليها.

نظرة على الواقع:

لو قمنا بمقارنة ما قيل آنفا عن القيمة العلمية للقرآن وما ينبغي علينا أن نفعله معه، مع ما يحدث في الواقع؛ لوجدنا بَونا شاسعا بينهما، فالملاحظ بوضوح أن عقولنا تتجه للوهلة الأولى نحو الكتب بفروعها المختلفة عند إرادة البحث في موضوع ما، وأن أقصى ما يُعمل مع القرآن هو الاستشهاد على صحة الكلام المنقول من الكتب بآية أو بضع آيات، وهذا يعد أمرا خطيرا وامتهانا للقرآن من شأنه أن يستدعي غضب الله عز وجل لكتابه.

من أخطار هجر القرآن:

من هنا نقول بأن التوجه الدائم لعقولنا نحو الكتب من أشد الأخطاء التي وقعنا فيها، كيف لا وهو يؤدي إلى إضعاف الثقة في القرآن شيئا فشيئا كمنبع أصيل لتحصيل العلم والإيمان والشفاء، مما يستدعي العقوبة الإلهية بمزيد من الحرمان من روح القرآن وأثره المزلزل، كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث زياد بن لبيد الذي مر علينا: " هذا أوان يختلس فيه العلم حتى لا يقدروا منه على شيء". فيزداد تبعا لذلك: تشتت المسلمين واضطرابهم وقسوة قلوبهم، وعدم شعورهم بالتغيير الحقيقي، مما يدفعهم للبحث عن مصادر يجدون فيها ما يروي ظمأهم ويرقق قلوبهم ويزيدهم علما ومعرفة، فيزداد توجههم نحو الكتب، فيستدعون بذلك عقوبة جديدة من الله عز وجل بمزيد من البعد عن القرآن.. وهكذا حتى تصبح المسافة شاسعة بين القلوب وبين القرآن، ومن ثم تزاداد الصعوبة في العودة إليه.

فإن كنت أخي القارئ في شك من هذا فاقرأ معي هذا الحديث الصحيح:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**من اقتراب الساعة أن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار ويفتح القول ويخزن العمل ويقرأ بالقوم المثناة، ليس فيهم أحد ينكرها". قيل: وما المثناة؟ قال: "ما استكتب سوى كتاب الله عز وجل**"[١].

ولو تأملنا في قوله صلى الله عليه وسلم: **ويقرأ بالقوم المثناة، ليس فيهم أحد ينكرها**. وأسقطنا ذلك على الواقع لانطبق عليه انطباقا تاما، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أشعر بك أخي القارئ وأنت لا تكاد تصدق هذا الكلام، ولكنها الحقيقة الصادمة، ويؤكده تعليق المحدث ناصر الدين الألباني رحمه الله على هذا الحديث بقوله:

---

[١] رواه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٧١ والحاكم في المستدرك ٥٩٧/٤ وقال : حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي في التلخيص وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٨٢١.

هذا الحديث من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم، فقد تحقق كل ما فيه من الأنباء وبخاصة ما يتعلق بـ (المثناة) وهي كل ما كُتب سوى كتاب الله كما فسره الراوي، وما يتعلق به من الأحاديث النبوية والآثار السلفية[1].

رحلة مع أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في التحذير من الكتابة:

هذه النقاط السابقة تشكل منطلقا أساسيا للفهم الصحيح لخطأ التوجه الدائم نحو الكتب من دون القرآن، ومن خلالها يزداد فهمنا لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم في التحذير الدائم من الانشغال بالكتب عن القرآن، وكما ذكرنا آنفا بأن كلام العلماء في تحليلهم لأسباب ذلك التحذير صحيحة ونتبناها، وأن الأمة اتفقت على الكتابة، ولكن يبقى السبب الأهم الذي لم ينل الاهتمام الكافي من العلماء: هو تخوف الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته من بعده على القرآن، وألا ينازعه كتاب آخر في الاهتمام والتقدير فيحدث للأمة ما حدث لبني إسرائيل.

والجدير بالذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أباح للبعض الكتابة ولكن على سبيل الاستثناءوهذا يؤكد عدم تحريم الكتابة والكتب، وبعون الله سيتناول الحديث هذا الأمر بشيء من التفصيل حتى تكتمل الصورة.

وإليك أخي القارئ بعض الأحاديث النبوية التي تؤكد حرصه صلى الله عليه وسلم على القرآن وتخوفه عليه وشدة حرصه ألا ينازعه غيره:

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « **لاَ تَكْتُبُوا عَنِّى، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّى غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ وَحَدِّثُوا عَنِّى وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَىَّ – قَالَ هَمَّامٌ أَحْسِبُهُ قَالَ: مُتَعَمِّدًا – فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** »[2].

وعن أبي هريرة، قال: خرج علينا رسول الله، صلى الله عليه، ونحن نكتب الأحاديث، فقال: «**ما هذا الذي تكتبون** ؟ »، قلنا: أحاديث سمعناها منك . قال: « **أكتابا غير كتاب الله تريدون ؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله** » . قال أبو هريرة فقلت: أنتحدث عنك يا رسول الله ؟ قال: « **نعم، تحدثوا عني ولا حرج فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار**»[3].

مع عمر بن الخطاب وكيف تأثر بهذا الأمر:

[1] السلسلة الصحيحة ٧٧٤/٦.

[2] رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم: ٧٧٠٢.

[3] أحمد في المسند، مسند المكثرين من الصحابة: ١١١٠٧، وصححه الأرناؤوط في تحقيق المسند.

جاء عمر بن الخطاب يوما إلى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض الكتب، فقال: يا رسول الله: إني أصبت كتابا حسنا من بعض أهل الكتاب، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «**أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني**»[١].

عن خالد بن عرفطة قال: كنت جالسا عند عمر إذ أتي برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبدي؟ قال: نعم، قال: وأنت النازل بالسوس؟ قال: نعم، فضربه بقناة معه. فقال الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس. فجلس، فقرأ عليه: بسم الله الرحمن الرحيم {**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**} [يوسف: ١ - ٣]، فقراها عليه ثلاثا، وضربه ثلاثا، فقال له الرجل: مالي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نسخت كتاب دانيال؟ قال: مرني بأمرك اتبعه. قال: انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه ولا تقربه أحدا من الناس، فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدا من الناس لأنهكنك عقوبة، ثم قال له: اجلس. فجلس بين يديه، فقال: انطلقت أنا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب ثم جئت به في أديم، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"ما هذا في يدك يا عمر**؟" قال: قلت يا رسول الله: كتاب انتسخته لنزداد به علما إلى علمنا. فغضب رسول الله صلى الله عليه حتى احمرت وجنتاه، ثم نودي بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم صلى الله عليه وسلم؟ السلاح السلاح، فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "**يا أيها الناس إني أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي اختصارا، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية، فلا تتهوكوا، ولا يقربكم المتهوكون**" قال عمر: فقمت فقلت: رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبك رسولا، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢].

ولعلنا من هذه الأحاديث وغيرها الواردة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما توجه للقراءة في غير القرآن، ونهي الرسول صلى الله عليه وسلم له وغضبه الشديد من فعله؛ جعله يزداد حذرا وخوفا من القراءة في غير القرآن لدرجة أنه في المرض الأخير للرسول صلى الله عليه وسلم، وطلبه صلى الله عليه وسلم ممن حوله من الصحابة أن يأتوه بصحيفة يكتب لهم فيها بعض الوصايا حتى لا يضلوا بعده، فما كان من عمر إلا أن ذكّر الجميع بالقاعدة التي رباه عليها صلى الله عليه وسلم فقال: عندنا كتاب الله حسبنا.

---

١ رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٣١٢/٥ برقم: ٢٦٤٢١، وأحمد في المسند ٣٤٩/٢٣ برقم: ١٥١٥٦. وحسنه الألباني في إرواء الغليل بشواهده (٣٤/٦ – ٣٨). والتهوك كالتهور وهو الوقوع في الأمر بغير روية.

٢ تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٥١، ٥٢ رقم ٧٠. وضعفه ابن كثير في تفسيره ٢٩٦/٤، وابن حجر في الفتح ٥٣٥/١٣.

فعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه: "**ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا من بعده**". قال عمر: إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا. فاختلفوا، وكثر اللغط، قال: "**قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع**"[1].

لا ألبس كتاب الله بشيء أبدا:

عند النظر في سيرة الشيخين؛ أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – نجد بوضوح حرصهما على تطبيق هذا النهج..

روى الحاكم بسنده عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: جمع أبي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان خمسمائة حديث، فبات ليلة يتقلب كثيرا، فلما أصبح قال: أي بنية، هلمي الأحاديث التي عندك، فجئته بها، فدعا بنار فحرقها..[2]

وعن القاسم بن محمد أن عمر بن الخطاب بلغه أنه قد ظهر في أيدي الناس كتب، فاستنكرها وكرهها، وقال: "أيها الناس إنه قد بلغني أنه قد ظهرت في أيديكم كتب، فأحبها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحد عنده كتاب إلا أتاني به فأرى فيه رأيي. قال: فظنوا أنه يريد أن ينظر فيها ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار، ثم قال: أمنية كأمنية أهل الكتاب؟!"[3].

وعن عروة، أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك، فأشاروا عليه بأن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهرًا، ثم أصبح يومًا وقد عزم الله له فقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن وإني ذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبًا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبدًا[4].

وأتى عمر بن الخطاب رجل فقال: يا أمير المؤمنين إنا لما فتحنا المدائن أصبت كتابا فيه كلام معجب.قال: من كتاب الله؟ قال: لا. فدعا بالدرة فجعل يضربه بها، وجعل يقرأ: {**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**} **[يوسف: ١، ٢] إلى قوله: {وَإِنْ كُنْتَ مِنْ**

---

[1] متفق عليه: البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب كراهية الاختلاف: ٦٩٣٢، ومسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه: ٤٣١٩.

[2] عزاه المتقي الهندي لابن كثير في مسند الصديق.

[3] تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٥٣ رقم ٧١. والأمنية هي الكتاب، وعند ابن سعد في الطبقات ١٨٨/٥ قال: مثناة كمثناة أهل الكتاب.

[4] أخرجه عبد الرزاق، في الجامع عن معمر، كتاب العلم: ٢٠٤٨٤.

قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} [يوسف: ٣] ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسا، وذهب ما فيها من العلم[١].

كلامكم شر الكلام!!

وعن السائب بن يزيد أنه سمع ابن الخطاب يقول: إن حديثكم شر الحديث، وإن كلامكم شر الكلام، فإنكم قد حدثتم الناس حتى قيل قد قال فلان وقال فلان، ويترك كتاب الله عز وجل، من كان منكم قائما فليقم بكتاب الله وإلا فليجلس[٢].

فإنك قد قرأتَ الكتب!

عن سعيد بن عمرو قال: " أتى عبد الله بن عمرو ابن الزبير، وهو جالس في الحجر، فقال: يا ابن الزبير! إياك والإلحاد في حرم الله، فإني أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

يحلها – يعني: مكة – ويحل به – يعني: الحرم المكي – رجل من قريش، لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها.

قال: فانظر ألا تكون هو يا ابن عمرو! فإنك قد قرأت الكتب وصحبت الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال ابن عمرو: فإني أشهدك أن هذا وجهي إلى الشام مجاهدا. (٣)

عن عبد الله بن يسار، قال: سمعت عليًّا يخطب يقول: أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حيث تتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم[٤].

وعن الحارث الأعور قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث، فدخلت على عليّ رضي الله عنه فقلت: يا أمير المؤمنين؛ ألا ترى أن الناس قد خاضوا في الأحاديث؟! قال" وقد فعلوها؟!! قلت: نعم، قال: أما إني قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ألا إنها ستكون فتنة". فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: "**كتاب الله؛ فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط**

---

[١] ذكره ابن الجوزي في تاريخ عمر بن الخطاب ص: وقد أخرجه الدارمي في سننه عن ابن مسعود: ٤٦٩..

[٢] ابن أبي شيبة في تاريخ المدينة ٣/٨٠٠، وأبو زرعة في تاريخه ص ٥٤٣.

(٣) رواه أحمد في المسند ١١/٦٢١ برقم: ٧٠٤٤، وصححه الأرناؤوط في تحقيق المسند، والألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ٢٤٦٢.

[٤] رواه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الأدب، باب من كان يكره كتاب العلم: ٢٦٤٣٩.

المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ} [الجن: ١، ٢]، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدِي إلى صراط مسقيم"، خذها إليك يا أعور[١]..

لا نجعلها مصاحف:

كان كبار الصحابة رضوان الله عليهم يقاومون رغبات العديد من أبناء الجيل التالي لهم في القراءة في الكتب، لأنهم يعلمون تبعات ذلك من إضعاف قدر القرآن في القلوب، وذهاب هيبته منها، ومِن ثَمّ استدعاء العقوبة الإلهية، ويعلمون كذلك أن بني إسرائيل قد ضلت عندما انشغلت بكتب علمائها وتركت التوراة والإنجيل.

عن أبي نضرة قال: قلنا لأبي سعيد: لو كتبتم لنا، فإنا لا نحفظ، قال: لا نكتبكم، ولا نجعلها مصاحف، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا فنحفظ، فاحفظوا عنا كما كنا نحفظ عن نبيكم[٢].

عن أبي نضرة قال: قلت لأبي سعيد: إنك تحدثنا عن رسول الله صلى الله عليه حديثا معجبا فلو اكتتبناه؟ فقال: لن أكتبكموه، ولن أجعله قرآنا[٣].

هذا كلام أخيك أبي الدرداء!!

جاء رجل من أهل الشام إلى عبد الله بن مسعود ومعه صحيفة فيها كلام من كلام أبي الدرداء أو قصص من قصصه، فقال: يا أبا عبد الرحمن ألا تنظر ما في هذه الصحيفة من كلام أخيك أبي الدرداء؟

فأخذ الصحيفة فجعل يقرأ فيها وينظر حتى أتى منزله، فقال: يا جارية ائتني بالإجانة (إناء يغسل فيه الملابس) مملوءة ماء، فجاءت به، فجعل يدلكها ويقول: {**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ (٣)**}[٤] [يوسف: ١ - ٣].

---

[١]رواه والدارمي في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن: ٣٣٣٢، والترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن : ٢٩٠٦، قال أبو عيسى: "هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال." وحسنه حسين سليم أسد في تحقيق الدارمي.

[٢] تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٣٧ رقم ١٩.

[٣] تقييد العلم للخطيب البغدادي ص ٣٩ رقم ٢٧.

[٤]أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم ص ٨٨ رقم ٧٤.

وعن أشعب بن سليم عن أبيه قال: كنت أجالس أناسا في المسجد، فأتيتهم ذات يوم فإذا عندهم صحيفة يقرءونها فيها ذكر وحمد وثناء على الله عز وجل، فأعجبتني، فقلت لصاحبها: أعطنيها فأنسخها. فقال: فإني واعدت بها رجلا فأعد صحفك، فإذا فرغ منها دفعتها إليك. فأعددت صحفي، فدخلت المسجد ذات يوم فإذا غلام يتخطى الخلق يقول: أجيبوا عبد الله بن مسعود في داره. فانطلق الناس فذهبت معهم، فإذا تلك الصحيفة بيده. وقال: ألا إن ما في هذه الصحيفة فتنة وضلالة وبدعة، وإنما هلك من كان قبلكم من أهل الكتاب باتباعهم الكتب وتركهم كتاب الله، وإني أحرّج على رجل يعلم منها شيئا إلا دلني عليه؛ فوالذي نفس عبد الله بيده، لو أعلم منها صحيفة بدير هند[1] لأتيتها ولو مشيا على رجلي، فدعا بماء فغسل تلك الصحيفة[2].

وكان ابن مسعود يقول: إن ناسا يسمعون كلامي ثم ينطلقون فيكتبونه، وإني لا أحل لأحد أن يكتب إلا كتاب الله عز وجل[3].

وعن مرة قال: بينما نحن عند عبد الله إذ جاء ابن قرة بكتاب قال: وجدته بالشام فأعجبني فجئتك به، قال: فنظر فيه عبد الله، ثم قال: إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب وتركهم كتابهم، قال: ثم دعا بطست فيه ماء، فماثه فيه ثم محاه[4].

القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن:

عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال: أصبت أنا وعلقمة صحيفة، فانطلقنا بها إلى عبد الله، فجلسنا بالباب وقد زالت الشمس، أو كادت أن تزول، فاستيقظ، فأرسل الجارية، فقال: انظري من بالباب؟ فرجعت إليه فقالت: علقمة والأسود، فقال: ائذني لهما، فدخلنا، قال: كأنكم قد أطلتم الجلوس في الباب؟ قالا: أجل، قال: فما منعكما أن تستأذنا؟ قالا: خشينا أن تكون نائما، قال: ما أحب أن تظنوا بي هذا، إن هذه ساعة كنا نقيسها بصلاة الليل، قلنا: هذه صحيفة فيها حديث عجيب، فقال: هاتها، يا جارية هاتي الطست، اسكبي فيها ماء، فجعل يمحوها بيده، ويقول: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} [يوسف: ٣]، قلنا: انظر إليها فإن فيها حديثا حسنا، فجعل يمحوها، ثم قال: **إنما هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره**[5].

عن أبي الشعثاء سليم بن أسود، قال: كنت أنا وعبد الله بن مرداس، فرأينا صحيفة فيها قصص وقرآن مع رجل من النخع، قال: فواعَدَنا المسجد، قال: فقال عبد الله بن مرداس:أشتري صحفا

---

١ مكان بالحيرة على طريق النجف.

[2]أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم ١/٥٥.

٣ رواه الدارمي في سننه، المقدمة، باب من لم ير كتابة الحديث: ٤٨١.

[4]أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم ص٥٤ رقم ٧٣.وماثه: أي فَرَكه حتى زال.

[5]أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم ص٥٤ رقم ٧٤.

بدرهم، إنا لقعود في المسجد ننتظر صاحبنا، إذا رجل فقال: أجيبوا عبد الله يدعوكم، قال: فتقوضت الحلقة، فانتهينا إلى عبد الله بن مسعود، فإذا الصحيفة في يده، فقال: إن أحسن الهدي هدي محمد، صلى الله عليه، وإن أحسن الحديث كتاب الله، وإن شر الأمور محدثاتها، وإنكم تُحْدِثون ويَحْدُث لكم، فإذا رأيتم مُحْدَثة فعليكم بالهدي الأول فإنما أهلك أهل الكتابين قبلكم مثل هذه الصحيفة وأشباهها، توارثوها قرنا بعد قرن، حتى جعلوا كتاب الله خلف ظهورهم كأنهم لا يعلمون، فأنشد اللهَ رجلا علم مكان صحيفة إلا أتاني، فوالله لو علمتها بدير هند لانتقلت إليها[١].

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، قال: كنا نسمع الشيء فنكتبه، ففطن لنا عبد الله فدعا أم ولده، ودعا بالكتاب وبإجانة من ماء، فغسله[٢].

وعن مسروق قال: حدث ابن مسعود بحديث فقال ابنه: ليس كما حدثت، قال: وما علمك؟ قال: كتبته، قال: فهلم الصحيفة، فجاء بها، فمحاها[٣].

وإن تُطعني تمحُه:

عن سعيد بن أبي الحسن، قال: لم يكن من أصحاب النبي صلى الله عليه، أكثر من أبي هريرة حديثا عن رسول الله صلى الله عليه، وإن مروان–زمنَ هو على المدينة[٤]– أراد أن يُكتبه حديثه، فأبى، وقال: ارووا كما روينا، فلما أبى عليه، تغفله فأقعد له كاتبا لَقِنًا ثَقِفا ودعاه، فجعل أبو هريرة يحدثه ويكتب الكاتب حتى استفرغ حديثه أجمع، قال: ثم قال مروان: تعلم أنا قد كتبنا حديثك أجمع، قال: وقد فعلتم؟ قال: نعم، قال: فاقرءوه عليّ إذاً، قال: فقرءوه عليه، فقال أبو هريرة: أما إنكم قد حفظتم وإن تطعني تمحه، قال: فمحاه[٥].

وعن أبي بردة قال: كان أبو موسى يحدثنا بأحاديث فنقوم أنا ومولى لي فنكتبها، فحدثنا يوما بأحاديث فقمنا لنكتبها، فظن أنا نكتبها، فقال: أتكتبنان ما سمعتما مني؟ قالا: نعم، قال: فجيئاني به، فدعا بماء فغسله، وقال: احفظوا عنا كما حفظنا[٦].

إنما ضل من كان قبلكم بالكتب:

---

[١] أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم ص ٥٥ رقم ٧٧.

[٢] أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم ص٥٤ رقم ٢٩.

[٣] أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم ص٥٤ رقم ٣٠.

[٤] عندما كان أميرا على المدينة

[٥] أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم ص٥٤ رقم ٣٧.

[٦] أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم ص٥٣ رقم ٣٢.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: " يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الكِتَابِ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْدَثُ الأَخْبَارِ بِاللَّهِ، تَقْرَءُونَهُ لَمْ يُشَبْ، وَقَدْ حَدَّثَكُمُ اللَّهُ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ بَدَّلُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ وَغَيَّرُوا بِأَيْدِيهِمُ الكِتَابَ، فَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا، أَفَلاَ يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ العِلْمِ عَنْ مُسَاءَلَتِهِمْ، وَلاَ وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلًا قَطُّ يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ[1]

وعن حنظلة بن أبي سفيان قال: سمعت طاوسا يقول: لما عمي ابن عباس جعل ناس من أهل العراق يسألونه ويكتبون، قال: فجاء إنسان من أهله فالتقم أذنه ، فلم يتكلم حتى قام[2]..أي: حدثه بحديث لا يسمعه غيره، والظاهر أنه أخبره أن أناسا يكتبون ما يقوله فسكت عن التحديث.

كفى به واعظا:

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن من أشراط الساعة أن يبسط القول، ويخزن الفعل، وإن من أشراط الساعة أن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار، وإن من أشراط الساعة أن تقرأ المثناة على رءوس الملأ لا تغير. قيل: وما المثناة؟ قال ما استكتب من غير كتاب الله. قيل: يا أبا عبد الرحمن، وكيف بما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: ما أخذتموه عمن تأمنونه على نفسه ودينه فاعقلوه، وعليكم بالقرآن فتعلموه وعلموه أبناءكم، فإنكم عنه تسألون وبه تجزون، وكفى به واعظا لمن كان يعقل.[3]

التشخيص الدقيق:

وقد انتبه بعض السلف من الأجيال اللاحقة للصحابة لهذه القضية الخطيرة..

فعن حماد بن زيد قال: قال لي ابن عون: إني أرى هذه الكتب يا أبا إسماعيل ستضل الناس[4].

وقال إسماعيل بن علية: إنما كرهوا الكتاب لأن من كان قبلكم اتخذوا الكتب فأعجبوا بها، فكانوا يكرهون أن يشتغلوا بها عن القرآن.[5]

وعن ابن سيرين قال: كانوا يرون أن بني إسرائيل إنما ضلوا بكتب ورثوها[1].

---

[1]رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها: ٢٦٥٨.

[2]أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم ص٤٤ رقم ٤٤.

[3]رواه أبو عبيد في فضائل القرآن: ص ٣٥ رقم ٣٠، والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم: ٨٦٦٠، وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

[4]أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم ٥٧، والأسماء والكنى للدولابي.

[5]أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم ٥٧.

وعن إبراهيم النخعي أنه كان يكره أن يكتب الحديث في الكراريس، ويقول: يشبه بالمصاحف.[2]

وعن الضحاك قال: لا تتخذوا للحديث كراريس ككراريس المصاحف[3].

ضيعتم كتاب الله وطلبتم كلام فضيل:

عن أبي نصر سعيد الرملي قال: أتينا الفضيل بن عياض بمكة فسألناه أن يملي علينا فقال: ضيعتم كتاب الله عز وجل وطلبتم كلام فضيل وابن عيينة، لو تفرغتم لكتاب الله عز وجل لوجدتم فيه شفاء لما تريدون، قلنا: قد تعلمنا القرآن، قال: إن في تعليم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم وأولاد أولادكم[4].

ويلخص عون بن عبد الله خطورة اللهث وراء كلام الرجال وأحاديثهم على علاقتنا بالقرآن فيقول: مثل الذي يطلب الأحاديث ويترك القرآن مثل رجل أخذ باب زريبة فيها غنم فمرت به ظباء، فاتبعها يدركها فلم يدركها، فرجع فوجد غنمه قد خرجت. فلا هذه أدرك ولا هذه أدرك[5].

لكي تكتمل الصورة:

ولكي تكتمل – بعون الله – الصورة، ولا يظن البعض أننا نبرز وجهة نظر واحدة تؤيد ما نقوله، سنضع بين يديك – أخي القارئ - في الأسطر القادمة بعض الأحاديث والآثار التي تبين جواز الكتابة وتقييد العلم، وكما أسلفنا فهذا هو الرأي الذي نتبناه بأهمية الكتابة، وكذلك اقتناء الكتب والقراءة فيها، ولكن دون أن يكون ذلك على حساب القرآن، فكل ما نقصده هو أن يكون التوجه التلقائي الأول نحو القرآن عند إرادة البحث عن موضوع ما، ثم يكون بعد ذلك التوجه نحو الكتب..

اكتبوا لأبي شاة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتح الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم مكة قام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه؛ ثم قال: "إن الله تبارك وتعالى حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لم تحل لأحد كان قبلي، وإنما أُحلت لي ساعة من النهار، وإنها لن تحل لأحد بعدي، فلا ينفر صيدها ولا يُختلى شوكها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل، فهو بخير النظرين: إما أن يُفدى وإما أن يُقتل" فقال العباس: إلا الإذخر يا رسول الله؛ فإنا نجعله في

---

[1] كتاب العلم لزهير بن حرب: ١٥٢، تقييد العلم للخطيب البغدادي ٦١/١.

[2] رواه الدارمي، المقدمة، باب من لم ير كتابة الحديث: ٤٦٤.

[3] ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الأدب، كتابة الحديث بالكراريس: ٢٦٣٠٧، والخطيب في تقييد العلم ص٤٨.

[4] الكشف والبيان للثعلبي ٨٦/١، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢٥٣/٢.

[5] حلية الأولياء٤/ ٢٤٥.

قبورنا وبيوتنا. فقال: "إلا الإذخر". فقام أبو شاة – رجل من أهل اليمن – فقال: اكتبوا لي يا رسول الله. فقال صلى الله عليه وسلم: "اكتبوا لأبي شاة"[١].

وعن أنس بن مالك أن أبا بكر كتب له فرائض الصدقة الذي سنّه رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢].

وهذا الحسن بن علي يدعو بنيه وبني أخيه فقال: يا بني وبني أخي! إنكم صغار قوم يوشك أن تكونوا كبار آخرين، فتعلموا العلم؛ فمن لم يستطع منكم أن يرويه، فليكتبه، وليضعه في بيته"[٣].

وكان أنس بن مالك يقول لبنيه: يا بني، قيدوا هذا العلم[٤].

الخطيب البغدادي يجمع بين الأمرين:

وقد أورد الخطيب البغدادي في كتابه (تقييد العلم) عن أبي سعيد الخدري قوله: ما كنا نكتب شيئا غير القرآن والتشهد.

ويعلق عليه فيقول: وأبو سعيد هو الذي رُوِي عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تكتبوا عني سوى القرآن، ومن كتب غير القرآن فليمحه"، ثم هو يخبر أنهم كانوا يكتبون القرآن والتشهد، وفي ذلك دليل أن النهي عن كَتْب ما سوى القرآن إنما كان على الوجه الذي بيناه، من أن يضاهى بكتاب الله تعالى غيره، وأن يُشتَغل عن القرآن بسواه؛ فلما أمِن ذلك ودعت الحاجة إلى كتب العلم؛ لم يُكره كَتْبه، كما لم تكره الصحابة كتب التشهد، ولا فرق بين التشهد وبين غيره من العلوم، في أن الجميع ليس بقرآن، ولن يكون كَتْب الصحابة ما كتبوه من العلم وأمروا بكَتبه إلا احتياطا، كما كان كراهتهم لكَتبه احتياطا، والله أعلم[٥].

أليس الذي بين أيدينا كتاب غير القرآن؟!

من المتوقع أن يقفز إلى ذهنك - أخي القارئ – تساؤل في محله وهو: إن الذي بين أيدينا كتاب غير القرآن؛ فلماذا يطرح الكاتب هذه المسألة ويدعو إلى الانشغال بالقرآن عما سواه؟!

ألا يُعتبر ذلك تناقضا بين قوله وفعله؟!

---

[١] متفق عليه. البخاري، كتاب اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة: ٢٣٠٢، ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها...: ٣٣٧١.

[٢] رواه البخاري، كتاب الحيل، باب في الزكاة وألا يفرق بين مجتمع..: ٦٥٥٥.

[٣] أحمد بن حنبل في الجامع في العلل ومعرفة الرجال ٤١٧/٢، والدارمي ١٤٠/١ والبيهقي في المدخل ص ٤٢٠.

[٤] الدارمي، باب من رخص في كتابة العلم: ٤٩١.

[٥] تقييد العلم للخطيب البغدادي ص٩٥.

الإجابة عن هذا التساؤل تتلخص في أن الذي يدفعني لذلك هو دلالة نفسي والناس إلى أهمية القرآن وإلى معانيه، والعمل على زيادة الثقة فيه حتى تعود قيمته الحقيقية إلى نفوس المسلمين، وأن يصبح قبلتهم في طلب العلم والإيمان والتغيير، والله أعلم بالسرائر، وكفى بالله شهيدا.

هل يكفي كتاب الله لتحصيل العلم؟

فإن قلت: ولكن هل يكفي التعامل مع القرآن لتحصيل ما يحتاجه المسلم من علوم؟

كان الجواب: القرآن العظيم يحتوي على العلم النافع المقرب لله عز وجل الذي يحتاجه المسلم لتحصيل العبودية والسعادة في الدارين، مع التأكيد بأن السنة تابعة له مفصلة لما أجمل فيه وشارحة له {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: ٤٤].

وكذلك فإن معرفة السيرة النبوية من الأهمية بمكان كتطبيق عملي للقرآن وتعميق فهمه من خلال الجيل الذي انتفع به، وأيضا معرفة تفاصيل الأحكام العملية التي يحتاجها المسلم وهو ما يطلق عليه الفقه، وكذلك التعرف على فقه الواقع ومخططات الأعداء،... إلخ.

كل هذا حسن، ولكن الخطأ يكمن في الانبهار والانغماس في هذه الكتب وهجر الانتفاع بالقرآن، ويكفي في بيان خطورة ذلك رصد شعورك وأنت متجه إلى قراءتها ومقارنته بشعورك وأنت متجه للقرآن.

ونعود فنكرر أنه لو كان الانكباب والاهتمام والانبهار بالقرآن هو الأساس، والقراءة في الكتب الأخرى على سبيل الاستئناس فلا بأس من ذلك.

بكى الحارث بن عميرة عندما احتضر معاذ بن جبل رضي الله عنه وقال له: إنما أبكي لما يفوتني منك من العلم.

فقال معاذ: **إن الذي تبتغي من العلم بين لوحي المصحف.**[1]

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أخبركم بالفقيه حق الفقيه: الذي لا يقنط الناس من رحمه الله، ولا يرخص لهم في معاصي الله، **ولا يدع القرآن رغبة إلى غيره**[2].

وعن الحسن قال: كان رجل يكثر غشيان باب عمر رضي الله عنه، فقال له: اذهب فتعلم كتاب الله، فذهب الرجل، ففقده عمر، ثم لقيه فكأنه عاتبه، فقال: وجدت في كتاب الله ما أغناني عن باب عمر.[1]

---

[1] سبق تخريجه ص: ٩٤.

[2] سنن الدارمي، باب من قال العلم خشية وتقوى الله:٢٩٧، ٢٩٨.

وعندما سمع الناس بالمدائن أن سلمان بالمسجد فأتوه، فجعلوا يثوبون إليه حتى اجتمع نحو ألف فقام فجعل يقول: اجلسوا اجلسوا، فلما جلسوا فتح سورة يوسف يقرؤها، فجعلوا يتصدعون ويذهبون حتى بقى في نحو من مائة، فغضب وقال: الزخرف من القول أردتم؟! قرأت عليكم كتاب الله فذهبتم[٢]؟!!

القرآن هو المقصود الأعظم:

ويؤكد الحافظ ابن رجب على هذا المعنى فيقول: إن المقصود الأعظم هو القرآن، وإن التفرغ لتلاوته وتدبره وفهم معانيه ومقاصده والعمل بذلك هو الأهم، وتطلب ذلك من الحديث النبوي والآثار، وهذا سبيل علماء الصحابة من المهاجرين والأنصار ومن حذا حذوهم من سلف الأمة والأئمة الكبار[٣].

بل إن الحافظ ابن رجب صنف كتابا سماه: الاستغناء بالقرآن في طلب العلم والإيمان.

الأستاذ المهمل في بيته:

إننا نتمنى أن يكون الاهتمام والانبهار بالقرآن كالكتب الأخرى ولو مؤقتا في المرحلة الأولى من رحلة العودة إلى القرآن، ثم ينتقل إلى مكانه الصحيح بعد ذلك، فللأسف أصبح القرآن كالأستاذ العظيم المهمل في بيته وبين أبنائه، وهذا الوصف أستعيره من كلام أبي الحسن الندوي وهو يتحدث عن العوامل التي أثرت في بناء شخصية محمد إقبال، فعندما تحدث عن القرآن كعامل محوري في ذلك قال: لا يخلو منه بيت من بيوت المسلمين، ولكن ليس الشأن في وجود الأستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه، وإنما الشأن في معرفته وتقديره، وإجلاله، والإفادة منه، وإلا لكان أبناء البيت ورجال الأسرة وأهل الحي أسعد بعالمهم وأكبر انتفاعا من غيرهم، ولكن بالعكس من ذلك رأينا أن العالم الكبير والحكيم الشهير والمؤلف العظيم ضائع في بيته، مهجور في داره، يزهد فيه أولاده ويستهين بقيمته أفراد أسرته.

لا تذهب بكم الظنون ولا يبعد بكم القياس أيها الإخوان، فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن الكريم الذي أثر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية، ولكنه أقبل على قراءة القرآن إقبال رجل حديث العهد بالإسلام، فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار.

وقد وصل هذا المهتدي إليه بشق الأنفس وعلى جسر من الجهاد والتعب.

---

١ مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الزهد، ما قالوا في البكاء من خشية الله: ٣٥٦٣٩.

[٢] سبق تخريجه ص ١٨.

[٣] هداية الإنسان إلى الاستغناء بالقرآن لابن عبد الهادي.

كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور (كولمبس) لما اكتشف العالم الجديد ونزل على شاطئه. أما الذين ولدوا ونشئوا في هذا العالم الجديد، فكانوا ينظرون إلى (كولمبس) وأصحابه باستغراب ودهشة ولا يفهمون معنى لما كان يخامرهم من سرور وفرح، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئا جديدا.

قراءة محمد إقبال للقرآن :

ويستطرد الندوي رحمه الله قائلا:

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن تختلف عن قراءة الناس، ولهذه القراءة الخاصة فضل كبير في تذوقه للقرآن واستطعامه إياه.

وقد حكى قصته لقراءة القرآن قال: كنت تعمدت أن أقرأ القرآن صباح كل يوم، وكان أبي يراني فيسألني ماذا أصنع؟ فأجيبه: أقرأ القرآن، وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله فأجيبه جوابي، وذات يوم قلت له: ما بالك يا أبي تسألني نفس السؤال وأجيبك جوابا واحدا، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد؟ فقال: إنما أردت أن أقول لك يا ولدي: اقرأ القرآن كأنما نُزِّل عليك.

ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست ومن درره ما نظمت، ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن ويطير في أجوائه ويجوب في آفاقه، فيخرج بعلم جديد وإيمان جديد وإشراق جديد وقوة جديدة.

وكلما تقدمت دراسته واتسعت آفاق فكره، ازداد إيمانا بأن القرآن هو الكتاب الخالد والعلم الأبدي، وأساس السعادة، ومفتاح الأقفال المعقدة، وجواب الأسئلة المحيرة، وأنه دستور الحياة، ونبراس الظلمات.

ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب وفهمه، ودراسته والاهتداء به في مشكلات العصر، واستفتائه في الأزمات المدنية وتحكيمه في الحياة والحكم، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب، الذي يرفع الله به أقواما ويضع آخرين.

يقول في مقطوعة شعرية: إنك أيها المسلم لا تزال أسيرا للمتزعمين للدين والمحتكرين للعلم، ما لم تستمد حياتك من حكمة القرآن رأسا، إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة، فيُقرأ عليك سورة (يس) لتموت بسهولة. فواعجبا! قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة يتلى الآن لتموت براحة وسهولة.

وقد أصبح محمد إقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبر، لا يفضل على هذا الكتاب شيئا، ولا يعدل به هدية لأغنى رجل في العالم وأعظم الرجال علما وعقلا، ولذلك لما دعاه نادر خان ملك أفغانستان إلى كابل ونزل ضيفا عليه أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخة من القرآن وقدمها إليه قائلا:

إن هذا الكتاب رأس مال أهل الحق، في ضميره الحياة، وفيها نهاية كل بداية، وبقوته كان علي رضي الله عنه فاتح خيبر.

فبكى الملك وقال: لقد مر على نادر خان زمان وما له أنيس سوى القرآن، وهو الذي فتحت قوته كل باب[1].

---

[1] روائع إقبال لأبي الحسن الندوي ٣٧ – ٤٠ باختصار يسير.

ومن أشد الممارسات الخاطئة مع القرآن:

الإسراع في حفظ حروفه مع عدم العمل به

من أخطر الممارسات التي ساهمت في فتح القرآن وتخفيف هيبته في القلوب: الإسراع في حفظ حروفه، فقد رسخ في أذهان المسلمين ضرورة حفظ القرآن بعضه أو كله، وأن مجرد حفظ حروف القرآن ترفع صاحبها في الدنيا والآخرة، وتجعله من أهل القرآن ورفيقا للسفرة الكرام البررة، وأنه سيستمر في الارتقاء في درجات الجنة حتى آخر آية كان يحفظها، وأنه سيقدم في الإمامة والرئاسة، وأنه سيُتوّج يوم القيامة بتاج الكرامة وحلة الكرامة، وأنه، وأنه.. وغير ذلك مما ورد في أحاديث فضل القراء.

فأدى ذلك إلى حرص الكثير من المسلمين على حفظه شكلا لا موضوعا، وإن فات بعضهم ذلك فإنك تجدهم شديدي الحرص على إلحاق أولادهم بحلقات التحفيظ وبالمدارس التي تعتني بتحفيظه، فإن لم يتيسر للبعض هذا الشكل قام بالتعاقد مع بعض المحفظين للقيام بذلك مع أبنائهم في منازلهم.. يبذلون هذا الجهد والأمل يحدوهم نحو التمتع بفضائل حفظ القرآن، وأنه أفضل وسيلة لتربية أولادهم على الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن.

ما الضير في حفظ حروف القرآن؟

فإن قلت وما الضير في ذلك؟

الإجابة أنه لا ضير في حفظ ألفاظه والعمل بها، ومن ثم المكث في تعلمها فترة من الزمن، كما كان يفعل الصحابة.

أما حفظ حروفه فقط فإن فيه كثيرا من البأس، فهو يعد بمثابة دليل الإدانة الذي يدين صاحبه أمام الله عز وجل بأنه يعرف الصواب ولا يعمل به.

نعم، أغلبنا يعرف الصواب ولا يعمل بالكثير منه، ولكن الذي يحفظ النصوص الدالة على ذلك تقام الحجة عليه أكثر ممن لا يحفظ، وإن كان التقصير يشمل الجميع.

أقوى الأدلة:

عندما يمثل المتهم أمام المحكمة فإن أقوى الأدلة التي تدينه وتثبت عليه التهمة أكثر هي اعترافاته بارتكاب الأخطاء، أو كما يقولون: الاعتراف سيد الأدلة، لذلك فالذي يحفظ النصوص التي تحث على الإنفاق في سبيل الله ثم لا يعمل بها، بل تجده حريصا على المال شحيحا به، فإنه عندما

يُسأل يوم القيامة عن ماله وإنفاقه فإن الذي يثبت عليه التهمة أكثر وأكثر هو حفظه لتلك النصوص عن ظهر قلب!

هذا المثال ينطبق على بقية الأعمال مثل: الاختيال والتكبر والغرور وترك الجهاد والتهاون في أداء الصلاة..

ويكفيك أخي القارئ في تأكيد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: "**أتيت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت وفت**[١]**، فقلت يا جبريل من هؤلاء؟ قال: خطباء أمتك الذي يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به**"[٢].

منطلقات أساسية لفهم موضوع الحفظ:

عندما نتحدث عن حفظ القرآن فلابد أن نستحضر عدة نقاط تشكل منطلقات أساسية لفهم هذه القضية:

لماذا أنزل الله القرآن؟

من أهم النقاط التي ينبغي استحضارها حين التحدث عن حفظ القرآن هي الهدف من نزوله ووجوده بيننا.

فلقد أنزل القرآن لإقامة الحجة على الناس، وهدايتهم إلى صراط الله المستقيم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وشفاء قلوبهم من الأمراض التي تبعدها عن الصحة.

هذا المعنى يستدعي دوام الاتصال بالقرآن لتحصيل الهداية والشفاء والعلم والإيمان.

هذا الاتصال قد يكون من خلال القراءة في المصحف أو عن ظهر قلب؛ فالمقصد هو تحصيل الفوائد المرجوة من القرآن.

وبلا شك فإن وجود قدر من آيات القرآن في جوف المرء ضروري وأساسي للصلاة به، ولقراءته عندما يحال بينه وبين المصحف، شريطة ألا يغيب المقصود الأعظم من التعامل مع القرآن.

قدر القرآن عند الله:

إن القرآن الذي يحمل آيات الله ومعجزته العظيمة الخارقة، له وضع خاص عنده سبحانه.

---

١ رجعت كما كانت.

٢ أخرجه ابن المبارك في الزهد ص:٢٨٢ برقم: ٨١٩، وعبد بن حميد ص: ٣٦٧، برقم: ١٢٢٢، وغيرهم بسند صحيح.

لذلك فلا يجوز التعامل الخاطئ معه، ولا يجوز الإعراض عنه، أو الغفلة عن توجيهاته، أو عدم تقديره حق قدره.. فإن حدث ذلك كان العقاب الفوري منه سبحانه. كما قال تعالى: {**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا**} [الإسراء: ٨٢]

ومفهوم الظالمين - كما أسلفنا - يشمل من يضع آياته في غير موضعها، ومِن ثَمَّ فالذي لا ينتفع بآيات القرآن ويغفل عنها يعرض نفسه لعقوبة الخسران.

ويقول صلى الله عليه وسلم: "**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين**"[١] ، ويقول: "**القرآن شافع مشفع، وماحل مصدق**[٢]"، أي سيصير القرآن إما يحاجّ الله عنا يوم القيامة أو يكون بمثابة دليل الإدانة علينا.

ويؤكد هذا المعنى قول أبي موسى الأشعري عندما جمع عددا من القراء في الكوفة وقال لهم: إن هذا القرآن كائن لكم ذكرا أو كائن عليكم وزرا فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم، فإنه من يتبع القرآن يهبط به في رياض الجنة، ومن يتبعه القرآن يزخ في قفاه حتى يقذفه في نار جهنم[٣].

مفهوم حمل آيات القرآن ينبغي أن يتم تحريره..

إن حمل آيات سورة (ما) يستلزم حفظ حروفها وفهم معانيها، وحمل إيمانها، والعمل بما تدل عليه، وذلك فترة من الزمن حتى يتم التخلق بها .. فسورة الليل على سبيل المثال يمكن للواحد منا أن يحفظ حروفها في بضع دقائق، أما العمل بما تدل عليه من التعرف على السنن الجالبة للتيسير والسعادة وممارستها في واقع الحياة، والسنن الجالبة للتعسير والكآبة وتجنبها، وكذلك التعود على إنفاق المال في سبيل الله الذي تحث عليه آيات السورة .. كل ذلك يحتاج إلى فترة من الزمن ليتحقق الحد الأدنى منه في ذات الإنسان، هذه الفترة قد تتراوح من أسبوع إلى أسبوعين.

فالذي يحمل السورة لابد أن يحملها لفظا ومعنى وإيمانا وعملا حتى يصبح حاملا لها على الحقيقة، فإن لم يحدث هذا واكتفى المرء بحمل الألفاظ فقط دون العمل بها فلا يؤمَن عليه أن يدخل في زمرة من يقول ولا يعمل... يتلو الآيات ولا يطبقها، فيكون ممن قال الله فيهم: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الجمعة: ٥]

---

١ سبق تخريجه ص: ٣.

[٢] سبق تخريجه ص: ٥٢.

[٣] رواه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب فضائل القرآن، باب في التمسك بالقرآن: ٣٠٠١٤، والدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن: ٣٣٢٨.

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**أكثر منافقي أمتي قراؤها**"[1]، لأنهم حملوها لفظا ولم يحملوها معنى وعملا.

فإن قلت: ولكنني حفظت بعض سور القرآن نتيجة لتكرار سماعها، ولم أتكلف ذلك، وبعض هذه السور حفظتها في الصغر، فهل ينطبق عليّ ما قيل في الأسطر السابقة؟!

نعم، ينطبق عليّ وعليك إذا ما قدمنا أنفسنا بأن معنا سور كذا وكذا، أما إذا اعتبرنا ما حفظناه في الماضي – بقصد أو بدون قصد – أنه حفظ للألفاظ فقط، وأننا لم نتعلمها تعلما صحيحا، ومن ثم فلا ينبغي أن يُبنى التعامل معنا على أساس حملنا لها (كالتقدم للإمامة أو المناصب..) فبذلك نكون – والله أعلم –قد رفعنا الحرج عن أنفسنا.

ومما يؤكد هذا المعنى أن عمر بن الخطاب عندما سأل ابنه عبد الله: كم معك من القرآن؟ قال: عشر سور، وسأل ابنه عبيد الله: كم معك من القرآن؟ قال: سورة.. فلم يأمرهم ولم ينههم، كما يقول عبد الله بن عمر[2].

.. فهل كان عبيد الله لا يحفظ من ألفاظ القرآن إلا سورة واحدة؟! بالتأكيد كان يحفظ أكثر من ذلك نتيجة لتكرار قراءتها في الصلوات، وبخاصة السور القصيرة، لكنه يعتبر نفسه لم يتعلم إلا سورة واحدة، أما ما حفظه من ألفاظ فهي خارج حساباته إلى أن يتعلم ما فيها من علم وعمل.

الجمع الحقيقي للقرآن:

فالجمع الحقيقي للقرآن يشمل اللفظ والمعنى والإيمان بالذي تحمله الآيات، ويشمل كذلك التخلق بها، وبهذا نفهم قول السيدة عائشة عن الرسول صلى الله عليه وسلم: **كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه ويرضى لرضاه**[3].

وقول عبد الله بن عمرو بن العاص: من جمع القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه[4].

ويقول محقق مصنف ابن أبي شيبة: أي صار في نفسه خشوع النبوة والأنبياء.

معنى الحفظ:

---

١ المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو: ٦٦٣٣، وصححه الأرناؤوط في تحقيق المسند.

٢ مصنف ابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، باب من كره أن يقول المفصل: ٣٠٠٩٦.

٣ رواه مسلم بلفظ كان خلقه القرآن،والزيادة رواها أبو عبيد في الفضائل ص: ١١١.

٤أخرجه أبو عبيد ص: ١١٣، وابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن: ٢٩٩٥٣،وغيرهم.

الحفظ في اللغة معناه: الرعاية والتعهد كما قال إخوة يوسف لأبيهم: { أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [يوسف: ١٢]، وقد يكون المراد بالحفظ القيام بالحقوق والعمل بالواجبات مثل حديث: احفظ الله يحفظك. أي احفظ أوامر الله ونواهيه، فيحفظك بهذا.. فهو استئمان.

إن من أهم معاني "**حفظ الشيء**" هو الائتمان عليه وعلى ما فيه، ويؤكده قوله تعالى: {**إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ**} [المائدة: ٤٤].

يقول السعدي في قوله تعالى: "**بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ**": أي بسبب أن الله استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن لا يعلمه. وهم شهداء عليه، بحيث أنهم المرجوع إليهم فيه، وفيما اشتبه على الناس منه، فالله تعالى قد حمّل أهل العلم، مالم يحمّله الجهال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا، وألا يقتدوا في ذلك بالجهال بالإخلاد إلى البطالة والكسل..[١].

فالذي يدعي أنه قد حفظ آيات القرآن وهو في الحقيقة لم يحفظ إلا حروفها فقط فقد حمل نفسه مالا يطيق، كمن استؤمن على حفظ بناية سكنية من السرقة، فلم يستشعر صعوبة ذلك، ولم يدرك أبعاد تلك المهمة، بل طلب أن يُستأمن على بنايات الحي كله، وكأنه لا يدرك مدى ما يوقع نفسه فيه من التبعة، لذلك شبَه الله عز وجل من يفعل ذلك بالحمار؛ لأنه لا يفهم حقيقة الأمر، ولو أدرك المفهوم الحقيقي للحفظ لما سارع في ذلك، بل لتمهل وتمهل ولم يورط نفسه.

الحفظ الحقيقي لسور القرآن:

يؤكد الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله على المفهوم الحقيقي للحفظ فيقول:

إن الذي لا يكابد منزلة الإخلاص، ولا يجاهد نفسه على حصنها المنيع، ولا يتخلق بمقام توحيد الله في كل شيء، رغبا ورهبا، لا يُمكن أن يعتبر حافظا لسورة الإخلاص.

وإن الذي لا يذوق طعم الأمان عند الدخول في حِمى (المعوذتين) لا يكون قد اكتسب سورتي الفلق والناس!

ثم إن الذي لا تلتهب مواجيده بأشواق التهجد لا يكون من أهل سورة المزمل!

---

١ تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٢٣٣.

ثم إن الذي لا تحترق نفسه بجمر الدعوة والنذارة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليس من المتحققين بسورة المدثر!

ثم إن المستظهر لسورة البقرة، إذا لم يُسلِم وجهه لله في كل شيء، ولم يسلك بها إلى ربه، متحققا بأركان الإسلام وأصول الإيمان، متخلقا بمقام الجهاد في سبيل الله، صابرا في البأساء والضراء وحين البأس، متنزها عن المحرمات في المطعومات والمشروبات.. إلخ، واضعا عنقه تحت رِبْق الشريعة في دينه ونفسه وماله، متحققا بخلق السمع والطاعة لله على كل حال، من غير تردد ولا استدراك؛ لا يكون حافظا لسورة البقرة!

وإنما الحافظ للشيء هو الحافظ لأمانته، المتحقق بحكمته، العامل بمقتضاه، المكابد لما تلقى عنه من حقوق الله[١].

مفهوم نسيان القرآن:

القرآن كتاب هذه الأمة،وهو رسالة الله الأخيرة للبشرية، يحمل في طياته مفاتح السعادة والهداية والشفاء والتغيير.

ولكي تتم الاستفادة من القرآن في تحصيل ذلك كله؛ لابد من التعامل الصحيح مع آياته وفهمها وتدبرها وعدم نسيان ما تدل عليه، وممارسة ذلك في واقع الحياة.

فأخطر شيء على المسلم أن يستزيد علما من الآية، ويتعرف على ما فيها من دلائل لأسماء الله وصفاته، وما يرشده ذلك إلى الترقي في مدارج السالكين إليه سبحانه، ثم بعد ذلك يهمل هذه المعاني وينساها: {**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ**} [السجدة: ٢٢]

هذا المفهوم مع ما قبله من مفاهيم يحسم بإذن الله مسألة الذم الوارد في نسيان آيات القرآن ويسقطها على نسيان معناها والعمل بها، ويؤكد ذلك قوله تعالى: {**قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى* وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى**} [طه: ١٢٣، ١٢٧]

---

[١] هذه رسالات القرآن، لفريد الأنصاري ص ١٤-١٦.

قال ابن كثير في تفسيره: أي لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك، تناسيتها، وأعرضت عنها، وأغفلتها، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك.. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه فليس داخلا في هذا الوعيد الخاص[1].

وقال الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: { **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤)**} [الأنعام: ٤٤]
يعني لما تركوا العمل بما أمرناهم به على ألسن رسلنا.[2]
فالأحاديث الواردة في ذم نسيان القرآن تنصرف بالأساس على ترك العمل به – كما يقول الإمام أبو شامة – لأن النسيان هو الترك، لقوله تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ} [طه: ١١٥].

وقال: وللقرآن يوم القيامة حالتان:

أحدهما: الشفاعة لمن قرأه ولم ينس العمل به.

والثانية: الشكاية على من نسيه، أي: تركه تهاونا ولم يعمل به.

وقال أيضا: ولا يبعد أن يكون من تهاون به حتى نسي تلاوته كذلك[3].

وأورد القرطبي في التذكار عن سفيان بن عيينة قوله: وليس من اشتُهر بحفظ شيء من القرآن وتفلت منه بناسٍ، إذا كان يحل حلاله ويحرم حرامه.

قال القرطبي: وهذا تأويل حسن جدا، وفيه توجيه[4].

ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

{**وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**} [المائدة: ١٤]

فالنسيان الحقيقي للآيات هو نسيان معناها وما تدل عليه وكذلك ترك العمل بها؛ لأن المرء بذلك يكون قد ظلم بالآية عندما لم يضعها في مكانها الصحيح.

---

[1] تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٦١/٣.

٢ تفسير الطبري ٣٥٨/١١.

٣ الزواجر لابن حجر الهيثمي ص: ٣١٣.

٤ ذكره القرطبي في التذكار في أفضل الأذكار ص ١٦٤. وأسنده ابن عبد البر في الاستذكار ٥٨/٨ مطولا إلى سفيان، وفيه: ولو كان كذلك ما نسي النبي صلى الله عليه وسلم شيئا منه، قال الله عز وجل: {**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ**} [الأعلى: ٦، ٧] وقد أنسي رسول الله صلى الله عليه وسلم منه أشياء وقال: ذكرني هذا آية أُنسيتها، .. ولو كان النسيان الممنوع هو نسيان اللفظ لما أنسى الله نبيه منه شيئا. انتهى بتصرف يسير.

وبهذا ندرك معنى قول أبو العالية رضي الله عنه موقوفا: "كنا نعد من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ثم ينام عنه حتى ينساه"[1].

إن نسيان اللفظ وارد في حق أي إنسان، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم أُنسي بعض الآيات كما ورد في البخاري عن عائشة، قالت: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقرأ في سورة بالليل، فقال: "**يرحمه الله، لقد أذكرني آية كذا وكذا كنت أُنسيتها من سورة كذا وكذا**"[2].

عن أي شيء سيكون السؤال؟!

فعلى سبيل المثال – ولله المثل الأعلى –لو أن رجلا سافر للعمل في مكان بعيد، وفي أثناء سفره أرسل إلى ابنه خطابا يطلب فيه القيام بأعمال موقوتة بزمن محدد كسداد أقساط، وزيارة أرحام، ففرح الابن فرحا شديدا بخطاب أبيه، وظل يقلبه ويعطره، ويتأمل خطه، ويحفظ كلماته دون أن يُعمل عقله في فهمها، ومن ثم لم يقم بأداء الأعمال التي كلفه بها والده، فماذا تتوقع من ردة فعل الأب حين يأتي من سفره؟! هل سيكون فرحا سعيدا بحفظ ابنه لألفاظ خطابه مع عدم قيامه بالأعمال التي كلفه بها؟! أم العكس؟! أترك لك الإجابة أخي القارئ..!

من هنا نقول بأننا لن نُسأل أو نحاسب يوم القيامة عن عدم حفظ القرآن، ولكن سنُسأل عن عدم العمل به: {**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**} [الزخرف: ٤٤].

العمل هو الأساس:

إن كل ما جاء من أحاديث في فضل الحفظ فإنما يتقيد بالعمل بالآيات والتحقق بها، ويشهد على ذلك الحديث الذي رواه النواس بن سمعان الكلبي رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران**، وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال:

"**كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما حزقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما**"[3].

فالحديث يؤكد أرتباط العمل بالقرآن لنيل الفضائل والدرجات العُلى، وليس هذا فحسب، بل إن الأحاديث الواردة في الوعيد لمن جمع ألفاظ القرآن ولم يعمل بها تؤكد على هذا المعنى:

---

١ الزهد لأحمد بن حنبل ص: ٢٠٣.

٢ متفق عليه: البخاري، كتاب الشهادات، باب شهادة الأعمى...: ٢٥١٢، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الأمر بتعهد القرآن وكراهة قول نسيت آية كذا: ١٨٧٣.

٣ رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة: ١٩١٢، ومعنى حزقان: أي جماعتان، والحزق: الجماعة من كل شيء.

روى البخاري من حديث سمرة بن جندب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيها: **فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة، يشدخ به رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق إليه ليأخذه، فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه، وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه، قلت: من هذا؟ قالا: انطلق.**

وفي آخر الحديث: "**والذي رأيته يُشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن، فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار، يفعل به إلى يوم القيامة**"[١].

إن الأمر – أخي القارئ – جد خطير، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرأون القرآن، يقولون: مَنْ أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ ومن أفقه منا؟" ثم قال لأصحابه: "هل في أولئك من خير؟" قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "أولئك منكم من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار**"[٢].

وقبل كل هذه الأحاديث وغيرها؛ ألم يقل الله جل شأنه في كتابه: {**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**} [الجمعة: ٥].

يقول ابن القيم في تعليقه على هذه الآية: فقاس من حمَّله كتابه – سبحانه – ليؤمن به ويتدبره ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا عن ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له، ولا تحكيم له وعمل بموجبه؛ كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظه منها حمله على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره. فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته[٣].

لماذا يقدم الأكثر أخذا للقرآن؟

من هنا نقول بأن الأحاديث الواردة في تقديم الأكثر جمعا للقرآن في الصلاة والإمامة والرئاسة تنطلق من هذا المعنى، وهو معنى صحيح، لأن الأكثر أخذا للقرآن بناء على ما سبق هو الأكثر

---

[١] سبق تخريجه ص: ٨٩.

٢ رواه الطبراني في الأوسط:٢٢١/٦ برقم: ٦٢٤٢، والبزار ٦٩/١ برقم: ٢٨٣، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٧٦/١) والبوصيري في إتحاف الخيرة (٢٥١/١)والهيتمي في الزواجر (٢٤٢/١) : إسناده لا بأس به، وقال الهيثمي في المجمع: رجاله موثقون.

٣ إعلام الموقعين عن رب العالمين ١٥٠/١.

تطبيقا له، وهو الأكثر استقامة على أمر الله عز وجل فيما يبدو للناس، ومن ثم فهو الأحق بالتقديم.

عن عمرو بن سلمة الجرمي قال: لما وفد قومي على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله من يصلي لنا – أو بنا - ؟ فقال: "**أكثرهم جمعا – أو أخذا – للقرآن**"[١].

وعن هشام بن عامر الأنصاري قال: شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم القَرْحَ يوم أُحد، وقالوا: كيف تأمرنا؟ فقال: "**احفروا وأوسعوا وأحسنوا وادفنوا في القبر الاثنين والثلاثة، وقدموا أكثرهم قرآنا**"، قال: فقدم أبي بين يدي ثلاثة[٢].

ولعلنا بذلك ندرك المعنى الذي يرمي إليه الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلا كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم وقد كان قرأ: البقرة وآل عمران، وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا؛ يعني عظم.[٣]

أين فِعْل الصحابة من هذه المنطلقات؟

فإذا ما أسقطنا هذه المفاهيم والمنطلقات على واقع الصحابة لوجدنا مطابقة كاملة، فهم لم يكونوا حريصين على الإسراع في حفظ ألفاظ القرآن، بل كانوا يبقون مدة في حفظ السورة، وكان الحفاظ بينهم قليلين، وكانوا ينهون من بعدهم عن الإسراع في الحفظ، وكانوا ينزعجون من جمع القرآن في السن الصغيرة، وإليك أخي القارئ ما يؤكد ذلك من الأخبار الواردة عنهم:

الصحابة وحفظ القرآن:

كان الحفاظ بين الصحابة قلة، وذلك لشدة اهتمامهم بالعمل والتطبيق، والخوف من حمل الألفاظ وعدم التحقق بمقتضاها، كما سيأتي بيانه، ولم تكن قضية حفظ الحروف تحتل عندهم في اهتماماتهم ما تحتله عندنا، بل إن ما نُقل عنهم من أخبار صحيحة يؤكد العكس، ويكفيك في ذلك أنهم كانوا يتخوفون من كثرة القراء كما سيأتي بيانه، وهذا يدل على فهمهم العميق لأمر القرآن، وتخوفهم من الانحراف عن مساره الصحيح بالاهتمام بألفاظه دون العمل به.

---

١ أصل الحديث في البخاري، وهذه الرواية عند أبي داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الأحق بالإمامة: ٥٨٧

٢رواه أحمد، مسند المدنيين، حديث هشام بن عامر: ١٦٢٩٦، أبو داود، كتاب الجنائز، باب في تعميق القبر: ٣٢١٥، والنسائي، كتاب الجنائز، باب ما يستحب من توسيع القبر: ٢٠١١، والترمذي، كتاب الجهاد، باب ما جاء في دفن الشهداء: ١٧١٣، وصححه الأرناؤوط.

٣ الحديث أصله في الصحيحين، وبهذا اللفظ رواه أحمد في المسند، مسند المكثرين من الصحابة، من حديث أنس بن مالك: ١٢٢٣٦. وصححه الأرناؤوط.

ويكفي هذا الدليل لكل من يرى أفضلية لحفظ الألفاظ فقط، فلو كان الأمر كذلك لتسابق الصحابة إلى حفظ الألفاظ لأنهم أكثر الأجيال حبا للقرآن وإدراكا لأهميته، وتوقا لنيل فضائله، مع سهولة ذلك عليهم لنزول القرآن بلغتهم، فكيف لهم أن يتركوا هذه الفضيلة وهم الذين عاصروا نزوله وذاقوا حلاوته؟

إن عدم تسابق الصحابة لحفظ ألفاظ القرآن ينبغي أن يَحسِم هذه المسألة؛ لأنهم النموذج التطبيقي الصحيح لمعاني الإسلام، وهم القدوة لنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول عبد الله بن عمر: **كان الفاضل من أصحاب رسول الله في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يخفف عليهم القرآن، منهم الصبي والأعمى، ولا يُرزقون العمل به**[1]..

تأمل قول عبد الله بن عمر: كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها.. فماذا نقول بعد ذلك؟

لقد ظل عمر بن الخطاب يتعلم ويحفظ في سورة البقرة ويعمل بها اثنتي عشرة سنة فلما أتمها نحر جزورا، وهذا ابنه عبد الله يتعلمها في ثماني سنوات[2].

ولعل هذا الأثر يرد على من يقول بأن الصحابة لم يتمكنوا من حفظ القرآن لكبر أعمارهم وتقدمهم في السن، فهذا الشاب عبد الله بن عمر يظل ثماني سنوات يحفظ ويتعلم سورة البقرة.

يقول الحسن البصري: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما استكمل حفظ القرآن من الصحابة رضوان الله عليهم إلا النفر القليل، استعظاما له ومتابعة لأنفسهم بحفظ تأويله، والعمل بمحكمه والإيمان بمتشابهه[3].

ويؤكد قول الحسن ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه أنه قال: **مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد.**[4]

---

١ سبق تخريج نحوه ص: ٦٣ وذكره القرطبي بلفظه في مقدمة تفسيره ١/ ٤٠.

٢ الأثر عن عمر رواه البيهقي في الشعب (٣٤٦/٣) كتاب تعظيم القرآن، فصل في تعلم القرآن: ١٨٠٥، ورواه مالك في الموطأ عن ابن عمر، كتاب القرآن، باب ما جاء في القرآن (من رواية يحيى بن يحيى برقم: ٤٧٩).

٣ الحسن البصري لابن الجوزي ص: ٩٨.

٤ البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: ٤٧١٨، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بن كعب: ٦٤٩٤. واللفظ للبخاري.

ولقد غضب عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه أن هناك رجل يُمِلُّ القرآن عن ظهر قلب، ولم يسكن غضبه إلا عندما علم أنه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه باعتباره أحد القلائل الذين جمعوا القرآن بحقه، فعن إبراهيم بن علقمة قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إني جئتك من عند رجل يُمِلُّ المصحف عن ظهر قلب، ففزع عمر وغضب وقال: ويحك! انظر ما تقول؟ قال: ما جئتك إلا بالحق. قال: من هو؟ قال: عبد الله بن مسعود. قال: ما أعلم أحدا أحق بذلك منه. [(١)]

وأخرج ابن أشتة في المصاحف عن ابن سيرين قال: مات أبو بكر ولم يجمع القرآن، وقُتل عمر ولم يجمع القرآن.

وقال الحسن: مات عمر بن الخطاب ولم يجمع القرآن. قال: أموت وأنا في زيادة أحب إلي من أن أموت وأنا في نقصان. قال الأنصاري: يعني نسيان القرآن[٢].

طريقة الصحابة في حفظ القرآن:

مع اهتمام الصحابة الشديد بالقرآن، والحرص على تلاوته كل يوم، وطول المكث معه، إلا أن هذا لم يدفعهم للإسراع في حفظ آياته **لإدراكهم خطورة ذلك**، وليس أدل على هذا الأمر من قول أبي عبد الرحمن السُلمي: حدثنا من كان يُقرئنا القرآن من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا يقرءون من رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل[٣].

وقال عبد الله بن مسعود: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معنايَهُنّ والعمل بهن.[٤]

وقال: كنا إذا تعلمنا من النبي صلى الله عليه وسلم عشرا من القرآن، لم نتعلم من العشر التي نزلت بعدها حتى نتعلم ما فيها، قيل لشريك (راوي الأثر): من العمل؟ قال: نعم[١].

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٢٤/١. وذكره بمعناه النسائي في السنن الكبرى ٣٥٢/٧، وذكر الهيثمي في المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (٣/ ٢١٤): جاء رجل إلى عمر وهو بعرفة فقال: يا أمير المؤمنين جئت من الكوفة وتركت رجلا يملي المصحف عن ظهر قلب غفلا. قال: فغضب عمر وانتفخ حتى كاد يملأ ما بين شعبتي الرحل. فقال: ويحك من هو؟ قال: فقال: عبد الله بن مسعود. فما زال عمر يطفئ ويستر عنه الغضب حتى عاد إلى حاله التي كان عليها، فقال: ويحك والله ما أعلمه بقي أحد من الناس هو أحق بذلك منه.

٢ فضائل القرآن لأبي عبيد ص: ٢٠٤.

٣ رواه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: ٢٣٥٢٩، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن من أجل عطاء.

٤ الطبري في مقدمة التفسير.

لهذا – كما يقول الإمام ابن تيمية – كانوا يبقون مدة في حفظ السورة.

ابن عباس وجمع المُفَصَّل:

إننا نرى اليوم من يحفظ القرآن كله من الأطفال وهو ابن ست أو سبع سنوات، فهل هذا الطفل يعي شيئا مما يحفظه؟ فإذا ما نظرنا لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي نشأ بين الصحابة وفي جو القرآن، وكان صلى الله عليه وسلم يتعاهده، ودعا له بالفقه في الدين وتعلم التأويل.. ألم يكن من الأولى أن يجتهد ابن عباس في حفظ القرآن كله في هذا الجو لو كان هذا الحفظ اللفظي فقط له فضيلة؟!! .. إن الراويات تخبرنا بأن ابن عباس جمع المُفصَّل (أي من سورة ق إلى سورة الناس) ولكن في أي سن؟

روى سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس أنه قال: جمعت المُحكم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني المُفصّل، وكانت سنه إذا ذاك ثلاث عشرة سنة أو دونها[٢].

اللهم غفرا:

لقد كان جمع القرآن عند الصحابة يعني الكثير والكثير، فهذا رجلٌ أتى أبا الدرداء فقال: يا أبا الدرداء إن ابني هذا قد جمع القرآن، فقال: اللهم غفرا، إنما جمع القرآن مَن سمع له وأطاع"[٣].

يُعلق القاضي الباقلاني على هذا الأثر فيقول: فهذا إنكار يدل على أن هذا الوصف عندهم بجمعه إنما يجري على من عمل بموجبه، ووقف عند حدوده[٤].

ويُخبر إبراهيم النخعي عن طريقة تعامل الصحابة مع أولادهم في تعليم القرآن فيقول: كانوا يكرهون أن يعلموا أولادهم القرآن حتى يعقلوا (حتى يفقهوا ما يقرءون)[٥].

كم معك من القرآن؟:

تأمل – أخي - هذا الأثر الذي يحمل دلالات هامة في عدم اهتمام الصحابة بتحفيظ أولادهم القرآن بقدر اهتمامهم بالعمل به، وهذا لا ينفي أهمية وجود قدر من القرآن في جوف المسلم

---

١ الحاكم في المستدرك، كتاب فضائل القرآن، أخبار في فضائل القرآن جملة: ٢٠٤٧ وقال صحيح. والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب الصلاة، جماع أبواب صلاة الإمام: ٥٢٨٩.

٢ صحيح البخاري برقم، كتاب فضائل القرآن، باب تعليم الصبيان القرآن: ٤٧٤٨.

٣ فضائل القرآن للقاسم بن سلام ص: ١٣٣.

٤ الانتصار للقرآن للقاضي الباقلاني ١٧٨/١.

٥ مصنف ابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، في الصبيان متى يتعلمون القرآن: ٣٠٢٨٠.

حتى يتسنى له الصلاة به، والاتصال بالله من خلاله، وإقامة الحجة على الناس واستنقاذهم من الضلال بتلاوته عليهم..

أخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال: سألني عمر: كم معك من القرآن؟

قلت: عشر سور.

فقال لعبيد الله: كم معك من القرآن؟

قال: سورة.

قال عبد الله: فلم ينهنا ولم يأمرنا، غير أنه قال: وإن كنتم متعلمين منه بشيء فعليكم بهذا المُفصَّل فإنه أحفظ[1].

إن هذا الأثر يحمل في طياته الكثير من الدلالات التي تؤكد لنا المفهوم الحقيقي للحفظ، وأنه كان يُقصد به عند الصحابة اللفظ والمعنى والعمل، فبالتأكيد كان عبيد الله يحفظ ألفاظ أكثر من سورة، وذلك بكثرة تكرارها أمامه، وقلة ألفاظها، كسور الإخلاص والكوثر والفلق والناس والنصر وقريش والعصر والكافرون، لكنه لم يتعلم تعلما حقيقيا إلا سورة واحدة، لذلك أجاب عمر بن الخطاب هذه الإجابة، فهو وإن كان يحفظ ألفاظ عدة سور، لكنه يعتبر نفسه ليس معه منها شيء، فالعبرة عندهم كانت بما تعلموه، ويؤكد على هذا المعنى الأثر الذي مر علينا عن عبد الله بن عمر الذي قال فيه: كان الفاضل من أصحاب رسول الله في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها[2]..

فبالتأكيد كانوا يحفظون ألفاظ عدة سور، لكنهم لا يعتبرون أنفسهم قد جمعوها طالما لم يتعلموا ما فيها من علم وإيمان وعمل.

تخوف الصحابة من كثرة القراء:

إننا نجد في زماننا من يقوم بتشجيع النشء والشباب على حفظ القرآن كله، ويرصدون لذلك الجوائز الضخمة، بل إن البعض قام بتوفير أماكن للإقامة الكاملة لكي يتمكن الأفراد من استكمال الحفظ في شهرين أو أقل، وهم بهذه الأفعال يحسبون أنهم يخدمون الدين، ويرفعون من شأن الأمة، ونحن نلتمس لهم العذر، فقد كنا نظن في السابق ظنهم، وبعد أن أرانا الله عز وجل جزءا من حقيقة القرآن كان لزاما علينا توضيح وبيان خطورة ذلك.

---

[1] سبق تخريجه ص: ١١٩.

[2] القرطبي ٤٠/١

لقد ورثنا القرآن ألفاظا تتلى على المقابر، وفي المقاهي، وسرادقات العزاء.. ورثناه كتابا مقدسا لكنه صار مهملا غير منتفع به، لا يُرجع إليه ولا يُستفتى في نازلة، بل تُحفَظُ ألفاظه، وتُزين الجدران بكلماته..

لم ننتبه إلى وظيفة القرآن الأساسية والمتفردة، ولم نفكر في روح القرآن الغائبة وأثره المفقود بيننا، وظننا أن ما نفعله مع القرآن، من تشجيع على حفظه، وكفالة المؤسسات القائمة عليه هو قمة خدمتنا للقرآن!!

وفي المقابل إذا ما عدنا لجيل الصحابة وجدنا عكس ما نفعله، وبخاصة في مجال الحفظ، فلم يكن منهم من الحفاظ إلا قلة، والأعجب أنهم كانوا لا يفرحون بكثرة الحفاظ بينهم، لإدراكهم أن ذلك يُعد بمثابة منزلق خطير يؤدي في النهاية إلى اهتمام المسلمين بحفظ الألفاظ وإهمالهم المعاني والأعمال، فتكون النتيجة الحتمية هي استدعاء العقوبة الإلهية بالحرمان من روح القرآن وأثره.

ولك أخي القارئ أن تتأكد من ذلك بقراءتك لهذه الأخبار الواردة عنهم..

كَتب إلى عمر الخطاب بعضُ عماله في العراق يخبرونه أن رجالا قد جمعوا كتاب الله تعالى، فكتب لهم عمر أن أفرض لهم في الديوان، فكثُر من يطلب القرآن، فكُتب إليه من قابل أنه قد جمع القرآن سبعمائة رجل، فقال عمر: **<u>إني لأخشى أن يسرعوا في القرآن قبل أن يتفقهوا في الدين، فكتب ألا يعطهم شيئا</u>**[1].

وعن الحسن قال: لمّا قدِم أبو موسى البصرة كتب إليه عمر يُقرِئ الناس القرآن، فكتب إليه بعدة ناس قرءوا القرآن فحمد الله عمر، ثم كتب إليه في العام القابل بعدةٍ هي أكثر من العِدة الأولى، ثم كتب إليه في العام الثالث، فكتب إليه عمر يحمد الله على ذلك، وقال: **<u>إن بني إسرائيل إنما هلكت حين كثُرت قراؤهم</u>**[2].

ولك أن تعجب معي أخي القارئ وأنت تقرأ الأخبار القادمة التي يتحدث فيها بعض الصحابة عن فتنة تتغير فيها السنة الصحيحة، فإذا ما خولفت قيل خولفت السُّنَةُ، وكأنهم يتحدثون عن عصرنا، وليس أدل على ذلك مما نراه في موضوع حفظ ألفاظ القرآن الذي أصبح وكأنه من أساسيات الدين عند البعض.

---

١ الحوادث والبدع للطرطوشي ٢٠٦، ٢٠٧.

٢ عزاه المتقي الهندي في كنز العمال ٢٩٤٠٣. إلى كتاب الإيمان للحافظ عبد الرحمن الأصفهاني.

عن عبد الله مسعود قال: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، وتُتخذ سُنة مبتدعة يجري عليها الناس، فإذا غُيّر منها شيء قيل: قد غُيِّرت السُنة، قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: **إذا كثُر قراؤكم**، وقلّ فقهاؤكم، وكثُر أُمراؤكم، وقلّ أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدين[1].

ويؤكد حذيفة بن اليمان على هذا المعنى فيقول: يا معشر العرب كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم عليها الكبير ويربو فيها الصغير، يتخذونها سُنة، **فإذا غُيرت قيل هو منكر**.

قيل: ومتى ذاك؟ قال: **إذا كثرت قراؤكم**، وقلّت فقهاؤكم، وتُفُقِّه لغير الدين، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة[2].

ومما يلفت الانتباه أن الإمام الحافظ المستغفري قد ضمّن كلام حذيفة وابن مسعود رضي الله عنهما تحت باب جعله بعنوان: **باب ما جاء في كثرة القراء وقلة الفقهاء آخر الزمان**.

تخويفهم الدائم للقراء:

كان الصحابة يتخوفون من الاستدراج نحو بريق حفظ ألفاظ القرآن، وكانوا دائمي التوجيه والتخويف والنصيحة للقرّاء بأن يستقيموا على أمر الله وأن يعملوا بما يحملون من كلام الله..

فهذا حذيفة يقول: اتقوا الله يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقا بعيدا **فإن أخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا**[3].

وجمع أبو موسى الأشعري القراء فقال لهم: أنتم قراء أهل البلد، فلا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب أهل الكتاب[4].

كلام نفيس لابن قتيبة عن الصحابة وحفظ القرآن:

وللإمام ابن قتيبة – رحمه الله - كلام نفيس في حفظ الصحابة للقرآن وذلك في كتابه: (تأويل مشكل القرآن)..يقول – رحمه الله –:

---

١ رواه الدارمي، باب تغير الزمان وما يحدث فيه: ١٨٥، ١٨٦، وابن أبي شيبة، كتاب الفتن، من كره الخروج في الفتنة وتعوذ منها: ٣٧١٥٦، والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم: ٨٥٧٠. وصححه حسين سليم أسد.

٢ فضائل القرآن للمستغفري رقم ٢٦٩. بسند ضعيف.

٣ رواه البخاري، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ٦٨٥٣.

٤ سبق تخريجه ص: ٨٥.

"لم يفرض الله على عباده أن يحفظوا القرآن كله، ولا أن يختموه في التعلم، وإنما أنزله ليعملوا بُمحكمه، ويؤمنوا بمتشابهه، ويأتمروا بأمره، وينتهوا بزجره، ويحفظوا للصلاة مقدار الطاقة، ويقرؤوا فيها الميسور.

قال الحسن: نزل القرآن ليُعمل به، فاتخذ الناس تلاوته عملا[1].

وكان أصحاب رسول الله– صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم– وهم مصابيح الأرض وقادة الأنام، ومنتهى العلم – إنما يقرأ الرجل منهم السورتين، والثلاث، والأربع، والبعض، والشطر من القرآن، إلا نفرا منهم وفَّقهم الله لجمعه، وسهَّل عليهم حفظه.

قال أنس بن مالك: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا. أي في عيوننا، وعظُم في صدورنا[2].

وكانت وفود العرب ترِد على رسول الله صلى الله عليه وسلم للإسلام، فيُقرؤهم المسلمون شيئا من القرآن، فيكون ذلك كافيا لهم"[3].

ماذا كان يميز زمان الصحابة؟

لقد كان مما يميز زمان الصحابة هو فقههم العظيم للقرآن ومعانيه وما تدل عليه آياته، ومع هذا الفقه إلا أنهم لم يكونوا يحرصون على حفظ حروف القرآن.

يقول مسروق: ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن[4].

ويوضح الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود هذه السمة فيقول لرجل: إنك في زمان قليل قراؤه، كثير فقهاؤه، تُحفظ فيه حدود القرآن، وتُضيع فيه حروفه، قليل من يسأل، كثير من يُعطي، يطيلون فيه الصلاة، ويقصرون فيه الخطبة، يبدون فيه أعمالهم قبل أهوائهم، وسيأتي على الناس زمان كثير قراؤه، قليل فقهاؤه، تُحفظ فيه حروف القرآن، وتُضيع حدوده، كثير من يسأل، قليل من يُعطي، يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة، ويبدون أهواءهم قبل أعمالهم[5].

---

١ عزاه إليه السمعاني في تفسيره ١١٩/٤، وابن الجوزي في تلبيس إبليس: ١٠٩، وابن القيم في مدارج السالكين: ٤٥١/١. ورواه الآجري في أخلاق حملة القرآن ص ١٨٦ والخطيب في اقتضاء العلم العمل ص ١١٦ عن الفضيل بن عياض.

٢ سبق تخريجه ص: ١٢٥.

٣ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٢٤٨- ٢٥٠ .

٤ أخرجه أبو عبيد في فضائله ص: ٩٦ والبيهقيّ في الشّعب: ٢٢٨٤.

٥ رواه مالك في الموطأ ١٧٣/١، برواية يحيى، وجاء في فضائل القرآن للمستغفري ١/ ٢٧٤، وشعب الإيمان للبيهقي ٢٥٨/٤.

يُعلق ابن عبد الهادي على هذا الأثر في كتابه: هداية الإنسان إلى الاستغناء بالقرآن فيقول:

فبين ابن مسعود رضي الله عنه أن ذلك الزمان كان قراؤه قليلا، وفقهاؤه كثيرا، وأنه كان يُحفظ فيه حدود القرآن، ويضيع حروفه، فإن اهتمامهم بتدبر القرآن، ومعرفة معانيه، والعمل به أشد من اهتمامهم بحفظ ألفاظه، ولذلك كثُر فقهاؤه، وقلّ قراؤه، وحفظت حدوده، وضيعت حروفه، وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم؛ حفاظ ألفاظ القرآن جميعه فيهم قليل، والفقهاء أهل العلم والإيمان فيهم كثير.. وأهل الزمان المذموم الذي أخبر عنه ابن مسعود بعكس ذلك[1].

بداية الانحراف:

كان للقرآن قدر عظيم في نفوس الصحابة، وكانوا يحرصون على الانتفاع الحقيقي به، ولم يكونوا يهتمون بحفظ حروفه قدر اهتمامهم بتحصيل العلم والإيمان والتغيير منه، وكانوا شديدي التحذير لمن بعدهم - كما مر علينا – من تحويل مسار القرآن وجعله وسيلة للأجر والثواب والبركة فقط.

ومما يدعو للأسف أن الأجيال التالية لجيل الصحابة لم تأخذ تحذيراتهم مأخذ الجد، فصاروا يهتمون بألفاظه حفظا وقراءة غير واعية أكثر من اهتمامهم بتدبره، وتحصيل العلم والإيمان والتغيير منه.

جاء في صحيح مسلم عن أبي وائل أن رجلا يقال له نُهيك بن سنان جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال: يا أبا عبد الرحمن: كيف تقرأ هذا الحرف: أَلِفًا تجده أم ياء "من ماء غير آسن" أو "من ماء غير ياسن" قال: فقال عبد الله: وكل القرآن قد أحصيت غير هذا؟ قال: إني لأقرأ المُفصل في ركعة. فقال عبد الله: هذًّا كَهَذِّ الشعر؟! إن أقواما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرَسخ فيه، نفع[2]..

وكان الحسن البصري ربيب الصحابة كثير التحذير من خطورة الانحراف عن المسار الصحيح للقرآن، فمن أقواله:

إنه تعلَّم هذا القرآن عبيد وصبيان، لم يأتوه من قِبل وجهه، ولا يدرون ما تأويله، قال الله تعالى: {**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**} [ص: ٢٩]، وما تدبر آياته إلا إتْباعه بعمله، وإن أولى

---

١ هداية الإنسان (مجموع رسائل بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة).

٢ رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القرآن واجتناب الهذ، وهو الإفراط في السرعة: ١٩٤٥.

الناس بهذا القرآن من اتبعه، وإن لم يكن يقرؤه، يقول أحدهم: يا فلان تعال أُقارئك؟ متى كانت القُرَّاء تفعل هذا؟ ما هم بالقراء ولا الحلماء ولا الحكماء، لا أكثر الله في الناس من أمثالهم[1].

يعلق أبو عبيد على ذلك فيقول: وهذا كله يدل على أن تعلم العلم والإيمان يقدم على حفظ القرآن المجرد عن ذلك، وإن تعلم القرآن تعلم معانيه، وكلما تعلم شيئا منه تعلم معانيه، وإذا تعلم وفَقِه كان بعد ذلك حفظ القرآن.

ولم تجد هذه التحذيرات آذانا مصغية، وتطور الأمر حتى وجدنا من هذه الأجيال من يحرص على حفظ حروف القرآن دون تعلم معانيها والعمل بها، بل زاد الأمر صعوبة أن اشترط بعضهم على طالب العلم ضرورة حفظه للقرآن كاملا حتى يترقى في تعلم العلوم المختلفة، فوجدنا - نتيجة ذلك – من يحفظه في سن صغيرة لا تتعدى العشر، وتناقلت الكتب هذه الأخبار، فكان ذلك سببا رئيسا وحافزا لأهل العصور التالية - وحتى عصرنا هذا – للإسراع في حفظ القرآن وبخاصة في الصغر، ولطلبة العلم والمدارس الدينية على الأخص.

ولقد انتبه بعض السلف لخطورة ذلك فكانوا دائمي التحذير منه، ولكن – للأسف – لم يُسمع لهم، ومن هؤلاء الإمام المُقرئ خلف بن هشام البزار الذي كان يقول:

ما أظن القرآن إلا عارية في أيدينا، وذلك أنا رُوينا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حفظ البقرة في بضع عشرة سنة، فلما حفظها نحر جزورا شكرا لله، وإن الغلام في دهرنا هذا يجلس بين يديّ فيقرأ ثلث القرآن لا يُسقط منه حرفا، فما أحسب القرآن إلا عارية في أيدينا[2].

ما أرى هذا ينبغي!!:

وفي كتابه (الحوادث والبدع) يقول الإمام أبو بكر الطرطوشي:

ومما ابتدعه الناس في القرآن الاقتصار على حفظ حروفه دون التفقه فيه.

ويقول: سُئل الإمام مالك عن صبي ابن سبع سنين جمع القرآن، فقال: "ما أرى هذا ينبغي" وإنما وجه إنكاره ما تقرر في الصحابة رضي الله عنهم من كراهة التسرع في حفظ القرآن دون التفقه فيه، وقد قال تعالى: {**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**} [البقرة: ٧٨].

كانوا يحفظون التوراة ولا يعلمون ما استودع الله فيها من الحكم والعبر، فوصفهم الله تعالى بأنه ليس عندهم من ذلك إلا الأماني، والأماني معناها: التلاوة.

---

١ أخرجه ابن المبارك في الزهد ص: ٢٧٤ برقم: ٧٩٣ وأبو عبيد في الفضائل ص: ٢١٣: ٣٦٥.

٢ الجامع لأحكام القرآن ٣٣/١، والعارية– مشددة وقد تخفف – والعارة: ما تداولوه بينهم (أي ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك).

وقال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة: ٥]، فشبَّه تالي القرآن من غير أن يفهم كمثل الحمار يحمل أسفارا.. فدخل في عموم هذا من يحفظ القرآن من أهل ملتنا ثم لا يفهمه ولا يعمل به[١].

واقعنا مع حفظ القرآن:

إن كان هذا هو حال الصحابة رضوان الله عليهم مع القرآن وحفظه، وهم خير القرون، والنموذج الصحيح لتطبيق الإسلام، فهل سرنا على هداهم وانتهجنا نهجهم؟

نظرة واحدة للكتاتيب ودور تحفيظ القرآن تكفي للإجابة عن هذا السؤال؛ فمن اليسير أن تشاهد في هذه الأماكن، وأيضا في المساجد والبيوت مجالس وحلقات لتحفيظ القرآن، حيث نجد أبناء هذه الحلقات يقرءون على شيخهم أو يختلي كل واحد بنفسه ليراجع المقرر عليه، فيقرأه بسرعة ويهز رأسه، ويكرر ما يقرأ دون أدنى انتباه للخطاب القرآني، فلا فارق عنده بين السؤال والجواب، والوعد والوعيد، والأوامر والنواهي، والجنة والنار.

فما النتيجة المتوقعة لذلك؟

ستفقد تلك الآيات هيبتها في قلبه، وسيرسم القرآن في عقله ألفاظا بلا معنى، فينشأ ويكبر على ذلك ويعتاد عليه.

وليس هذا فحسب بل إن هذه الطريقة في الحفظ والمراجعة ستورث في قلب صاحبها التهاون وعدم التقدير والهيبة لآيات الله،وستؤدي كذلك إلى استدعاء غضب الله وعقوبته على صاحبها وعلى الأمة، وكيف لا وهو قد ظلم بالآيات ولم يضعها في مكانها الصحيح.

من هنا نقول: إن الإسراع في تحفيظ القرآن بالشكل الذي يتم في عصرنا في الكتاتيب والمدارس والمساجد والبيوت لمن أهم أسباب تخفيف القرآن وضياع هيبته في قلوبنا.

لذلك من الضروري أن يتم تعديل الطريقة التي يتم بها حفظ الآيات بالشكل الذي كان عليه الصحابة وما يصاحب ذلك من توقير للقرآن وفهمه والعمل به قدر المستطاع.

ممارسات يندى لها الجبين:

أخي القارئ:

---

[١] الحوادث والبدع لأبي بكر الطرطوشي ص ٢٠٦.

إذا أردت أن يتعمق شعورك بالخطورة تجاه القرآن، ويزداد يقينك بأن الأمة تعاقب من الله عز وجل بسبب ما فعلناه مع كتابه، فما عليك إلا أن تذهب إلى الأماكن التي تجري فيها اختبارات حفظ القرآن التحريرية وسترى العجب العجاب.

لو ذهبت إلى هذه الأماكن فستجد طلابا قد مزقوا المصاحف إلى صفحات ووضعوها في جواربهم حتى يتمكنوا من استخراجها في أثناء الاختبار والغش منها..

سترى بعضهم يخفي المصحف في أماكن قضاء الحاجة قبل دخول قاعة الاختبار ثم تجده يطلب من المراقب وقت الاختبار الإذن له لقضاء حاجته، فيذهب ويغلق الباب على نفسه ويفتش سريعا في المصحف عن مواضع الإجابة،فيقرؤها عدة مرات ويذهب سريعا ليكتبها في ورق إجابته..

ستجد بعضهم يكتب السور في ورق صغير ويخفيه في جيبه..

ستجد بعضهم يكتب السور على أجزاء من جسده..

ومنهم من يضع المصحف تحت الطاولة ويقلب صفحاته بقدمه!!

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وسائل عدم النسيان:

لقد استدرجت الأمة في موضوع حفظ القرآن، وأصبح كأنه غاية في حد ذاته بغض النظر عن فهم الآيات والعمل بها، وبغض النظر عن إضعاف قيمة القرآن في القلوب.

لقد وصل الأمر بالبعض أن أصبح يقوم بقراءة الجزء في خمس دقائق أو يزيد قليلا، فقل لي بربك عن هذا الفعل، ألا يطلق على فاعله أنه يسيء الأدب مع كلام الله ويتهاون به، ولا يقدره حق قدره، ولا يتلوه حق تلاوته.

ومن العجائب والعجائب جمة:

ومما يدخل في باب العجائب ويستحق فاعله العقوبة أنك تجد البعض يخترع ويروج لطرائق في مراجعة القرآن تؤدي من وجهة نظره إلى عدم نسيانه، منها الحفظ أو المراجعة من أسفل الوجه أو اللوح إلى أعلى (أي من الآية الثلاثين مثلا في السورة إلى الآية العشرين).

ونجد بعض المحفظين يقوم بسماع الآيات من أكثر من فرد في آن واحد، وكل فرد منهم يقرأ من سورة مختلفة عن الآخر، ولقد رأيت بنفسي مُحفِّظا يتابع قراءة ثلاثة أو أربعة في وقت واحد.

تصور معي المعنى الذي سينطبع في أذهان الأفراد عندما يشاهدون هذا الأمر، ويمارسونه مرات عدة، هل سيوقرون القرآن بعد ذلك؟ هل سيقدرونه حق قدره؟

الأعاجم والقرآن:

من اليسير أن تجد في العديد من بلدان العالم الإسلامي غير الناطقين بالعربية من يحفظ القرآن بعضه أو كله ويرتله على أحسن ما يكون الترتيل وهو لا يفهم منه شيئا.

ومما يثير الحزن أن البعض يعتبر ذلك مَنْقبة وهو لا يدري أن هذا الفعل من شأنه أن يستدعي مع غيره من أفعالنا الخاطئة مع القرآن الغضب والعقوبة الإلهية

إن من أولويات تعليم القرآن للأعاجم: تعليمهم الحد الأدنى من أساسيات فهم اللغة العربية كلغة تخاطب؛ حتى يتسنى لهم فهم ما يقرءون من آيات الله، ومع أهمية التراجم لألفاظ القرآن باللغات المختلفة إلا أنها لا يمكنها أن تكون سببا لإيصال روح القرآن وتأثيره إلى القلوب، فلابد من قراءة النص القرآني باللغة العربية وبالطريقة الصحيحة التي تضع صاحبها بإذن الله في طريق استجداء الرحمة الإلهية واستمطار روح القرآن وتأثيره الفذ: {**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**} [الزخرف: ٣]

أطفالنا وحفظ القرآن:

التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، بهذه المقولة استُدرج الكثير من الآباء عندما أسقطوها على ضرورة تحفيظ أبنائهم ألفاظ القرآن وإن لم يفهموا معانيها، على اعتبار – كما يزعمون – أن الأطفال في السن الصغيرة يمكنهم أن يحفظوا الألفاظ فقط دون فهم معانيها، وعندما يكبرون يتعلمون تلك المعاني..

فأصبح جل هم الكثير من الآباء إلحاق أبنائهم بمدارس وحلقات التحفيظ، فنتج عن هذا أطفال في سن الخامسة والسادسة والسابعة يحفظون القرآن بعضه أو كله، يحفظون حروفه حفظا جيدا لكنهم لا يفهمون منه شيئا، فهل هذا الأمر يليق بجلال القرآن وقدره؟!! وكيف سترسم الصورة الذهنية عن القرآن في أذهان الأطفال؟ وهل سيفرقون بين الوعد والوعيد، والأمر والنهي والترغيب والترهيب؟

وهل حفظ ألفاظ القرآن سيغير من أخلاقهم كما يظن الآباء؟

إنها قد تغير من أخلاقهم بالسلب؛ بمعنى أنهم سيتكبرون بها ويشعرون أنهم مميزون عن غيرهم بهذا الحفظ، وبخاصة عندما يجدون التشجيع والثناء عليهم من آبائهم وأقربائهم.

فإن قلت: إن لم نشغل ذهن الولد بألفاظ القرآن سينشغل بالأغاني والأشعار السيئة؟

هل هذا منطق صحيح؟

ألا يوجد بديل لحفظ ألفاظ القرآن إلا حفظ الأغاني؟!!

ولماذا لا نستفيد من قاعدة التعليم في الصغر كالنقش على الحجر بتعلم معاني القرآن مع ألفاظه، ونُحفِّظ أولادنا بدءا من ست سنوات آيات قليلة وسوراً من الجزء الأخير تربط اللفظ بالمعنى وتؤسس العقيدة الصحيحة؟

إننا لسنا ضد حفظ القرآن، ولكننا ضد التهاون والامتهان والظلم بآيات القرآن، ولنعلم جميعا أن الفائدة المتحققة للطفل من حفظ الجزء الأخير لفظا ومعنى وتطبيقا - وإن مكث في ذلك سنتين أو ثلاثة - أفضل آلاف المرات من حفظ القرآن كله لفظا فقط.

ونؤكد ما قيل في الصفحات السابقة بأن الأحاديث التي تدل على فضل جمع القرآن أو بعض سوره تربط الفضل بالعمل بما تدل عليه، وإن جاءت أحاديث لم تذكر العمل، فإن الأحاديث الأخرى تقيدها.

نحن لسنا بدعا:

فإن قلت: نحن لسنا بدعا في الأمة، فلقد سبقنا في ذلك سلف هذه الأمة وعلماؤها فقد كانوا يحرصون على حفظ ألفاظ القرآن في الصغر..

نعم كان هذا يحدث لكنه لم يكن صوابا، وهذا ما كان يحذر منه الصحابة كما مر علينا، فلقد كانوا شديدي الحرص ألا تقع الأمة في هذا المنزلق الخطير، وللأسف لم يُلتفت التفاتا صحيحا لتحذيراتهم وحدث ما كانوا يتخوفون منه.

إن الذي يلزمنا هو ما كان يحدث في جيل الصحابة، وفي فترة النبوة والخلافة الراشدة – تحديدا - كما في حديث العرباض بن سارية: "...فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم والأمور المحدثات فإن كل بدعة ضلالة".[١]

وليس معنى هذا هو الاستهانة بحفظ القرآن، ولكن المقصد عدم وضعه كهدف سام يُسعى إليه دون ربطه بالمعنى والعمل.

---

[١] رواه أحمد، مسند الشاميين، حديث العرباض بن سارية: ١٧١٨٤،وأصحاب السنن غير النسائي، وقال الترمذي (أبواب العلم: ٢٦٧٦): حسن صحيح، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح ورجاله ثقات.

علينا أن نفعل مثلما كان يفعل الصحابة: نتعلم بضع آيات ونعرف معانيها وأحكامها، ونربي أنفسنا على العمل بها بضعة أيام أو أسابيع، ونحفظ ألفاظها ثم ننتقل لآيات أخر..

إننا نريد أن يخرج من بيننا من يجمع القرآن كله بهذه الطريقة، وهو بذلك يكون قد جمع خشوع النبوة وأصبح رمزا يلتف الناس حوله، كما مر علينا من قول عبد الله بن عمرو بن العاص: من جمع القرآن فقد جمع أمرا عظيما، فقد استدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه..

نكرر فنقول: إن الذي يلزمنا هو أفعال الصحابة، والآن ونحن نريد بإذن الله أن نعيد للقلوب هيبة القرآن وروحه فلابد من إعادة النظر في تلك الممارسات الخاطئة التي نمارسها مع القرآن، والتي من أخطرها: الحفظ السريع لآياته، ودفع الأطفال في سن صغير لحفظ أكبر قدر منه.

الحفاظ على التواتر:

يقول البعض إن الاهتمام بحفظ القرآن كله ووضعه في برامج التعليم – وخاصة الديني – له وظيفة مهمة في الحفاظ على تواتر القرآن وعدم تحريفه..

إن حفظ القرآن وسيلة وليست غاية، وسيلة إضافية للانتفاع بالقرآن، فإن لم يحدث انتفاع بالقرآن فماذا استفدنا من الحفظ؟

ولنضرب لذلك مثلا:

لو أن رجلا حصل بعد جهد جهيد على دواء نادر يشفي داءه بإذن الله، ولكنه يخاف من أن يسطو عليه أعداؤه فظل ساهرا على حراسته لا يغمض له جفن... ما قيمة ذلك التعب إن لم يتناول الدواء وينتفع به في الشفاء بإذن الله؟

يقول سيد قطب في تفسير قوله تعالى: {**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**} [القيامة: ١٦ - ١٨].

جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحي، وحفظ هذا القرآن، وجمعه، وبيان مقاصده.. كل أولئك موكول إلى صاحبه. ودوره هو التلقي والبلاغ، فليطمئن بالا[١]..

فالإيحاء الذي تتركه - هذه الآيات – في النفس هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن: وحيا، وحفظا، وجمعا، وبيانا، وإسناده إليه سبحانه وتعالى بكليته، وليس للرسول صلى الله عليه وسلم إلا حمله وتبليغه"[١].

---

١ الظلال ٣٧٦٧/٦.

يقول البعض: "إننا نريد أن نحفظ الألفاظ لكي نحافظ على تواتره" وتحت هذا الشعار تجد الحفاظ يراجعون الأجزاء والسور بسرعة حتى لا ينسوها، بل إن بعضهم يقوم بالمراجعة وهو في وسائل المواصلات وفي الأسواق وأمام التلفاز..

لقد نزل القرآن ليكون سببا لهدايتنا وشفائنا وتغييرنا، ولقد أخبرنا سبحانه أنه قد تولى وتكفل بحفظه حتى لا يُحرَّف ومن ثم يستمر في أداء مهمته: {**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**} [الحجر: ٩] ولم يطلب منا سبحانه أن نقوم بذلك، بل طلب منا تحقيق المقصد والغاية من نزوله: {**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**} [ص: ٢٩]

ولم يعاتبنا على تقصيرنا في الحفظ ولكن عاتبنا على عدم تدبره: {**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**} [محمد: ٢٤]

ولقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم هذا الأمر فلم يهتموا بالحفظ كاهتمامنا به، مع أنهم أولى الناس بذلك إن كان مطلوبا.

فلماذا أخي ننشغل بما ضُمِن لنا ولا ننشغل بما هو مطلوب منا؟!!

ولماذا لم يقل الصحابة مثل مقولتنا بضرورة تكثير الحفاظ لاستمرار تواتر القرآن؟!!

أمر يدعو للعجب:

ومن العجيب الغريب في أمر هذه الأمة أن الله عز وجل أكرمها بما لم يكرم به أية أمة سبقتها.. حفظ لها كتابها وسنة نبيها الشارحة له: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩]{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٩] كي تتفرغ للعمل به، ومع ذلك تنشغل بحفظه وتترك تطبيقه.. أليس الأولى أن نشغل أنفسنا بما طلب منا، ولا نشغلها بما ضُمن لنا؟!

فإن قلت وما المقصود بـ «اقرأ وارق »؟

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتِّل، كما كنت تُرتل في دار الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها**»[٢].

أليس المقصود منها الحافظ الذي يقرأ عن ظهر قلب؟!

الجواب:

---

١ السابق ٦/ ٣٧٧٠.

٢ رواه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو: ٦٧٩٩، والترمذي، أبواب فضائل القرآن: ٢٩٥١، وقال: حسن صحيح، وأبو داود، باب تفريع الوتر، باب استحباب الترتيل في التلاوة: ١٤٦٤. وصححه الأرناؤوط.

أولاً: حفظ ألفاظ القرآن لا يدل على ما في القلب من إيمان، والدليل على ذلك أن هناك الآلاف من حفاظ القرآن، ممن حفظوه إجباريًا في المدارس أو الجامعات أو الكتاتيب، تجد أن سلوكهم يبتعد كثيرًا عما يرضي الله... فهل هؤلاء الذين يجهلون على الناس، ويرتكبون ما يغضب الله، ويتركون بعض أوامره.. هل سيقال للواحد منهم اقرأ وارق ورتل...؟!!

إن هذا الفهم يتنافى مع أصول التفاضل بين الناس التي أخبرنا الله عنها أنها مرتبطة بالإيمان والتقوى ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات:١٣].

ثانيًا: الأحاديث الواردة في فضل حفظ القرآن – كله أو بعضه – مرتبطة بالعمل به، وفي المقابل نجد الوعيد الشديد لمن يحمل القرآن ولا يعمل به.

روى البخاري من حديث سمرة بن جندب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيها: «..**فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه، ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة، يشدخ به رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه، وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه فضربه، قلت: من هذا؟ قالا: انطلق...**».

وفي آخر الحديث: «**والذي رأيته يُشدخ في رأسه فرجل علمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار، يُفعل به إلى يوم القيامة**...»[١].

إن الفضل العظيم لحفظ القرآن مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعمل به، فإن لم يُعمل به كان وبالاً على صاحبه، كيف لا وهو يتلو على الناس آيات لا يعمل بها، فيصير ما يقوله في واد، وما يفعله في واد آخر، فيصدق عليه قوله صلى الله عليه وسلم: «**أكثر منافقي أمتي قراؤها**»[٢].

وليس معنى هذا هو إهمال الحفظ، بل معناه الاجتهاد في العمل بما تدل عليه الآيات المحفوظة، وعدم الاستعجال في الحفظ حتى لا يتم إهمال الفهم والعمل.

ثالثاً: الحديث يؤكد على أهمية التأثر بقراءة القرآن، فدرجات الجنة مرتبطة بالإيمان، ولأن كل آية في القرآن تحمل نورًا يزيد الإيمان في القلب حين يدخله، لذلك كلما تأثر القارئ بآية وحصَّل ما فيها من إيمان ارتقى في الجنة درجة، وهذا هو أهم ما يرمي إليه الحديث، فيقال له يوم القيامة: اقرأ كما كنت تقرأ في الدنيا بترتيل وتفهم وتأثر، فيزداد إيمانك، وترتفع به في الجنة بحسب ما حصلت من إيمان في الدنيا حتى آخر آية قرأتها فيها، ولقد وضع ابن حبان لهذا الحديث عنوانا في صحيحه يؤكد هذا المعنى وهو: ذكر البيان بأن آخر منزلة القارئ في الجنة عند

---

١ سبق تخريجه ص: ٨٩.

٢ سبق تخريجه ص: ١١٩.

آخر آية كان يقرؤها في الدنيا.

وفي المقابل لو قرأ المرء القرآن سواء كان عن ظهر قلب أو من المصحف دون تأثر وكان همه نهاية السورة أو الورد، ومن ثمّ لم يزدد بقراءته إيمانًا فلا نظن أن يكون داخلاً في دائرة هذا الحديث، بل لا يستبعد أن يكون القرآن حجة عليه كما ورد في الحديث: "**والقرآن حجة لك أو عليك**"[١]..

من المخاطب؟:

وخلاصة القول أن المخاطب بهذا الحديث هو من يقرأ القرآن سواء عن ظهر قلب، أو من المصحف شريطة تفهمه وتدبره وتأثره بآياته..

تلبيس إبليس:

ولابن الجوزي كلمات تخاطب حفاظ الألفاظ الذين ظنوا أن الحفظ وسيلة لدفع العذاب عنهم مهما قصروا:

يقول ابن الجوزي: ومن تلبيس إبليس أن قوما من القراء يتسامحون بشيء من الخطايا كالغيبة للنُظراء، وربما أتوا أكبر من ذلك الذنب واعتقدوا أن حفظ القرآن يرفع عنهم العذاب، واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم: "**لو جُعل القرآن في إهاب ما احترق**"[٢] وذلك من تلبيس إبليس عليهم؛ لأن عذاب من يعلم أكثر من عذاب من لم يعلم؛ إذ زيادة العلم حجة على المرء، وكون القارئ لم يحترم ما يحفظ ذنب آخر. قال الله عز وجل {**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى**} [الرعد: ١٩]، وقال في أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم {**مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ**}[٣][الأحزاب: ٣٠].

الاستشهاد بالآيات في الدعوة:

قد يقول قائل: إن من أسباب حفظ ألفاظ القرآن هو تيسير الاستشهاد بها في الدعوة..

والجواب: إن الاستشهاد بالآيات يستلزم كون معانيها حاضرة في الذهن ليسهل ربطها بموضوع الدعوة، لذلك فإن من يُحسن الاستدلال بالآيات هو الذي يعيش مع القرآن ويتدبره على الوجه الصحيح، ويجتهد في العمل به..

أما من يحفظ الألفاظ دون فهم معانيها والعمل بها فأنَّى له الاستشهاد بشيء لا يعرفه.

---

[١] سبق تخريجه ص: ٥٢.

٢ أخرجه الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن: ٣٣١٠، وضعفه حسين سليم أسد. والإهاب: الجلد من البقر والغنم والوحش ما لم يدبغ.

٣ تلبيس إبليس ص ١٣٩.

لماذا نحفظ إذن؟

إن كل ما قيل سابقا لا ينبغي أن يُفهم منه أنه دعوة لترك الحفظ، بل هو دعوة لترك الإسراع في حفظ ألفاظ القرآن، وأن يتم التمهل في ذلك وربطه بالعلم والعمل.

.. لا ينبغي علينا أن نزهد في الحفظ نتيجة لما قيل، فكما قال صلى الله عليه وسلم: "الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب"[1].

فلابد أن يكون في جوفنا شيء من القرآن للصلاة والدعوة والقراءة إن حيل بيننا وبين المصاحف.

عن عمر بن الخطاب قال: لابد للرجل المسلم من ست سور يتعلمهن؛ سورتين لصلاة الصبح، وسورتين للمغرب، وسورتين لصلاة العشاء.[2]

الفارق بين التدبر والتعلم:

قد يسأل سائل – بهذا المنطق الذي تم طرحه –: لماذا نقرأ الورد اليومي وفيه أعمال كثيرة لا يمكننا القيام بها خلال يوم واحد؟!

الجواب يكمن في معرفة الهدف من التلاوة اليومية، وهي تحصيل التذكرة بحقائق الإيمان، ومعانيه التي تجعل المرء في حالة من اليقظة الدائمة {**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**} [ص: ٢٩].

وهذا لا يستدعي الوقوف عند كل آية ومعرفة معانيها التفصيلية، وما تدل عليه من أعمال، فالمطلوب هو المعنى الإجمالي الذي يؤدي إلى التذكرة وزيادة الإيمان بصفة عامة.. أما تعلم الآيات فالمقصد منه تعلم كل ما فيها من معان وأحكام، ومعرفة ما تدل عليه من أعمال، والالتزام بها مدة من الزمن حتى يصير صاحبها قد تعلمها وحملها وأخذ بها..

فالقراءة اليومية هدفها دوام التذكرة وزيادة الإيمان، والتعلم هدفه التعرف الدقيق على ما تحمله الآيات من علم وإيمان وعمل.

وهذا يفسر لنا الندب على المداومة على القراءة اليومية، والتمهل في التعلم. والله أعلم.

{**وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا**} [طه: ١١٣]

---

[1] أخرجه أحمد، مسند بني هاشم، مسند عبد الله بن عباس: ١٩٤٧، والترمذي، أبواب فضائل القرآن: ٢٩١٣ وقال: حسن صحيح، وضعفه الأرناؤوط.

[2] رواه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الصلاة، باب لا صلاة إلا بقراءة: ٢٧٥٠.

{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** (٢٨)} [الزمر: ٢٧، ٢٨]

ومن أخطائنا مع القرآن:

تشغيل الآلات الحديثة التي تبث آياته دون الإنصات لها.

من الممارسات الخاطئة التي ساهمت في تخفيف القرآن في قلوبنا، ونزع مهابته من صدورنا: كثرة بث آياته من الإذاعات والفضائيات وغير ذلك من وسائل البث دون الاستماع إليه والانتفاع به.

وقد تندهش أخي القارئ من ذلك، ولكن لو فكرنا مليا لأدركنا الحقيقة، فالقرآن – ذلك الكتاب المقدس المعجز – ينبغي أن تمتلئ القلوب من مهابته وإجلاله وتقديره، وينبغي كذلك الاستعداد الجيد والتهيئة العظيمة لقراءته أو سماعه وكيف لا وهو كلام الله عز وجل، ورسالته الخاتمة للبشرية..

ولكن للأسف كان لظهور وانتشار الإذاعات والفضائيات التي تبث آيات القرآن ليل نهار أثر سلبي على المسلمين.

فإن قلت: لماذا؟!

جاءك بفضل الله الجواب بأنها جعلت الشخص يسمعه شاء أم أبى، في أي وقت، وأي مكان وزمان، وفي أي حالة نفسية هو فيها، وبتكرار إذاعته حدث إلف لنغمته، والإنسان إذا أَلِف شيئا، حال هذا الإلف بينه وبين الانتفاع به.

"إن من طبيعة النفس البشرية أنها إذا أَلِفت الشيء خفي عليها أسراره، وصرفها هذا الإلف عن التفكر فيه، ثم اكتشاف ما فيه"[1].

ولقد انتبه أعداء الإسلام لهذا الأمر فقامت بعض إذاعاتهم ببث القرآن – في بعض الأحيان - بين برامجها.

وفي هذا المعنى يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله - :

لقد حاول أعداء هذا الدين دائما أن يصرفوا الناس نهائيا عن هذا القرآن، فلما عجزوا حولوه إلى ترانيم يترنم بها القراء ويطرب لها المستمعون، وحولوه إلى تمائم وتعاويذ يضعها الناس في جيوبهم، وفي صدورهم، وتحت وسائدهم، فيظن المسلمون بذلك أنهم أدوا حق هذا القرآن.. فالقرآن مصون، وهو يتلى صباحا ومساء وفي كل حين، ويترنم به المترنمون، ويرتله المرتلون.. فماذا تريدون من القرآن بعد ذلك؟[2]

---

[1] التعبير القرآني والدلالة النفسية للجيوسي ص ١٣٦.

[2] في ظلال القرآن ١٥٠٤/٣ ببعض التصرف والاختصار.

ويقول في موضع آخر: إن هذا الكتاب ما يزال يلوي أعناق أعدائه في الأرض كلها ليجعلوه مادة إذاعية في جميع محطات العالم الإذاعية.

وحقيقة إنهم يذيعونه بعد أن نجحوا في تحويله في نفوس المسلمين إلى مجرد أنغام وتراتيل، أو مجرد تمائم وتعاويذ، وبعد أن أبعدوه من أن يكون مصدر التوجيه للحياة، وأقاموا مصادر غيره للتوجيه في جميع الشؤون[١].

تأمل ما حدث مع الشيخ المطوع:

في أحد الأيام قرأت مقالا قديما في مجلة المنار كتبه الشيخ عبد الله المطوع – رحمه الله - وهو يتحدث فيه عن حالته النفسية بعد هزيمة العرب من اليهود، وكيف أنه فتح المذياع وأدار مؤشره ليبحث عن قارئ يتلو آيات للقرآن حتى تهدأ نفسه باستماعه لها، وبالفعل وجد ما يبحث عنه، فقد كان القارئ يقرأ آيات من سورة التوبة {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**} [التوبة:٣٨-٤١]..

وشعر الشيخ المطوع – رحمه الله – أنه يستمع إلى بيان عسكري يحض على الجهاد في سبيل الله، وبعد أن أنهى القارئ تلاوته إذا به يسمع المذيع يقول: هنا إذاعة صوت إسرائيل.. فحدثت له صدمة عنيفة، وظل يُحدث نفسه: هل إذاعتهم هي التي تبُث إلينا القرآن؟! هل وصل بنا الحال إلى هذه الدرجة أن اطمأن أعداؤنا لعدم انتفاعنا بالقرآن فبثوه إلينا ليخدرونا بنغمته؟!!

أترك لك – أخي القارئ – التعليق على هذه القصة المحزنة..

لماذا نقوم ببث القرآن؟

انتشر بين المسلمين بعض الأعراف والأفكار التي ساهمت في كثرة البث المستمر للقرآن دون الاستماع إليه، ومِن ثَم إلفه، ونزع هيبته من القلوب..

---

[١] المصدر السابق.

ومن ذلك: ترك المحطة الإذاعية أو الفضائية التي تبث القرآن تعمل في المنزل أو السيارة أو أماكن العمل دون الاستماع إليها، بل تركها لتخاطب الجدران، فإن سأل سائل عن سبب ذلك كانت الإجابة: لطرد الشياطين، واستجلاب البركة!!!

ألم يعلم هؤلاء أن بركة القرآن تكمن في روحه وأنواره وقدرته بإذن الله على التغيير والشفاء والهداية.

يقول ابن تيمية: ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك[1]..

ليس بمستمع وإن سمع:

يقول عبد الكريم الخطيب: فالذي يقرأ القرآن أو يستمع إليه في غير تدبر وتذكر ليس بقارئ للقرآن وإن قرأ، وليس بمستمع للقرآن وإن سمع، لأنه ليس من الذين وصفهم الله تعالى: {**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**} [الزمر: ٢٣]..

ونحن المسلمين في عصرنا هذا نستمع كثيرا إلى آيات الله تُتلى علينا، حتى لا يكاد بيت من بيوت المسلمين لا تتردد في جنباته في الصباح وفي المساء وفيما بين الصباح والمساء أصوات المقرئين منقولة إلى كل بيت فيه مذياع، أو إلى جيران أي بيت فيه مذياع، فنحن من هذه الوجهة أكثر من أسلافنا سماعا للقرآن لما يسر الله تعالى لنا من وسائل الاتصال به بقصد أو بغير قصد، ولكن الذي لا شك فيه هو أن حظنا من عطائه المبارك، ومن أضواء هديه، ونفحات رحمته أقل بكثير من حظ أولئك الذين كانوا يستمعون إلى آياته أو بضع آيات فيكون لهم منها – ومنها وحدها – زاد حياة، ودستور عمل، ومنهج سلوك، لأنهم استمعوا إلى ما استمعوا إليه من كلام الله بآذان مصغية، وجوارح ساكنة، وقلوب خاشعة، فوقعت منها كلمات الله موقع الغيث من الأرض الجديبة، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم.

لا بديل عن الاستماع والإنصات:

ويستطرد قائلا: يقول الله تعالى فيما يؤدب به المسلمين في مجلس القرآن: {**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**} [الأعراف: ٢٠٤]..

---

[1] مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص: ٤٥.

فالرجاء في رحمة الله المستمطرة من آيات الله رهن بالاستماع والإنصات لما يُتلى من كلمات الله، حيث تسكُن الجوارح، وتخضع المشاعر، وتهيأ العقول والقلوب لتهتدي إلى مواقع العبرة والعظة من آيات الله، فيكون منها الدواء لكل ما في كيان المسلم من داء.

تبديد الوهم:

ويقول عبد الكريم الخطيب في كلمات واضحة لا لبس فيها ولا غموض:

ألا فليعلم أولئك الذين يفتحون المذياع على تلاوة القرآن ثم يدعون صوت المقرئ يملأ جنبات البيت، وهم يحسبون أنهم بهذا قد ملئوا البيت من نفحات آيات الله، ونشروا على أنفسهم وعلى أهليهم الخير والبركة منها، دون أن يجلسوا هم وأهلوهم مجلس القرآن، ودون أن يُحسنوا الاستماع إلى آيات الله، وتدبرها، والوقوف عند كل زاجرة وواعظة منها..

ألا فليعلم هؤلاء أنهم بخسوا القرآن حقه، وظلموا أنفسهم وأهليهم بما فاتهم من حظ عظيم كان دانيا منهم، من نفحات القرآن وبركاته لو أنهم عرفوا للقرآن الكريم قدره، لما اتخذوه "**بخورا**" يطلقونه من المذياع[1].

هل الإنصات خاص بالصلاة؟:

يظن البعض أن الاستماع إلى القرآن والإنصات له خاص بالصلاة فقط، ومن ثَم فلا بأس عليه إن ترك المُقرئ يقرأ وهو منشغل عنه بالقراءة أو أداء واجباته الوظيفية، أو النوم على نغمته لأنها تريح أعصابه، ويدلل على صحة هذا الفعل بقوله: إن المفسرين اختلفوا في تفسير قوله تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٢٠٤].. وهل الاستماع والإنصات يكون للقرآن في الصلاة فقط أم في الصلاة وخارجها، ومن ثم فلا حرج على من لا ينصت للقرآن المقروء خارج الصلاة انطلاقا من هذا الاختلاف..

الرد على هذه المسألة يكمن في قراءة الصفحات السابقة التي تحدثت عن قدر القرآن عند الله عز وجل، وأن آيات القرآن هي آيات الله التي ينبغي علينا ألا نغفل أو نعرض عنها، وأن العقوبات ستنال من يفعل ذلك.

ولو استقرت هذه المعاني في نفوسنا لأزالت الكثير من الإشكاليات وصححت العديد من المفاهيم المغلوطة حول التعامل مع القرآن، والتي من أبرزها ترك المُقرئ يقرأ آيات القرآن من خلال المحطات الإذاعية أو الفضائية والانشغال عنه بالكلام أو بأداء بعض الأعمال، أو بالنوم..

---

[1] مقالات الإسلاميين في رمضان لمحمد موسى الشريف، نقلا عن مجلة الوعي الإسلامي، السنة ٨، العدد الثالث والتسعون، رمضان ١٣٩٢ هـ، ببعض التصرف.

وأشد من ذلك: تركه يتلى في المآتم دون تدبره، وأخذ العبرة منه، لا سيما مع وجود الواعظ الصامت وهو الموت.

ومن صور أخطائنا مع القرآن:

الإسراع في قراءة آياته دون تدبر
وقراءتها في أماكن الصخب واللغو

جعل الله جل شأنه القرآن العظيم سببا للشفاء والهداية والرحمة والعلو وتحصيل العلم والإيمان، وجعله كذلك سببا لحلول النقمة والعذاب والذل والهوان.. هذا قضاء قضاه الله في القرآن كما قال الإمام قتادة.

وقد مر علينا في خلال الصفحات السابقة ما يؤكد هذا المعنى من الآيات والأحاديث النبوية كقوله تعالى:

{**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا**} [الإسراء: ٨٢]

{**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى**} [فصلت: ٤٤]

وكقوله صلى الله عليه وسلم: ".. **والقرآن حجة لك أو عليك**"[١].

وقوله: "**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين**"[٢].

وقوله: "**القرآن شافع مشفع، وماحل مصدّق، من شفع له القرآن يوم القيامة نجا، ومن محل به القرآن يوم القيامة كبه الله في النار على وجهه**"[٣]

فعندما لا يتم التعامل مع القرآن بما يتناسب مع قدره وعظمته وهيبته فالعقاب العقاب.

لا يكن هم أحدكم آخر السورة:

إن القرآن قول ثقيل ينبغي أن يقرأ ببطء وتَرَسُّل وتمهل حتى تُفهم وتُتدبر معانيه: {**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ**} [الإسراء: ١٠٦]

يقول الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا**} [المزمل: ٤]أي: اقرأه على تمهل، فإنه يكون عونا على فهم القرآن وتدبره. وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه.

قالت حفصة: كان يقرأ السورة فيرتلها، حتى تكون أطول من أطول منها.[١]

---

١ سبق تخريجه ص: ٥٢.

٢ سبق تخريجه ص:٣.

٣سبق تخريجه ص: ٥٢.

وفي صحيح البخاري، عن أنس: أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: كانت مدًا، ثم قرأ {**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**} يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم.[2]

وعن أم سلمة: أنها سُئلت عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: كان يقطع قراءته آية آية، {**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**}[3].

وقال عمر بن الخطاب: لا يغرنكم من قرأ القرآن، إنما هو كلام نتكلم به، ولكن انظروا من يعمل به[4].

وعن ابن مسعود أنه قال: لا تنثروه نثر الرمل ولا تهذّوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة[5].

وعندما نتفكر في قوله تعالى: {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ**} [النساء: ٤٣]، فإننا – بعون الله- سندرك بوضوح ضرورة فهم الخطاب القرآني عند سماعه أو قراءته، فالآية تعلل - في مرحلة التمهيد لتحريم الخمر – عدم شرب الخمر قبل الصلاة لأن ذلك من شأنه أن يُذهب العقل فلا يفهم ولا يعلم ما يقول أو يسمع، فماذا نقول لمن لا يشرب الخمر ولكنه يقرأ القرآن ولا يفهم ما يقرأ بسبب غياب عقله عن النظر والتأمل في الآيات؟!!

الواقع الأليم:

الواقع المشاهد أن هناك الكثير والكثير ممن يسرع في قراءة القرآن ووصل الآيات بعضها ببعض، ولا يعطي نفسه فرصة لفهمها، فكل همه هو قطع المسافة بين أول السورة أو الجزء وآخره في أسرع وقت ممكن.

ولم يعد هذا الشكل من القراءة السريعة غير المتأنية التي لا يصحبها فهم ولا تدبر مقصورا فقط على البيوت والمنازل بل تعداه إلى وسائل المواصلات والشوارع، فلم يعد غريبا أن تجد رجلا يحمل مصحفا ويقرأ فيه في وسائل المواصلات وسط الضجيج، تجده إما يقرأ بعينيه أو يتمتم بشفتيه،

---

١ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب جواز النافلة قائما وقاعدا:١٧٤٦.

[2] صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب مد القراءة:٤٧٥٩.

[3] رواه أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث أم سلمة : ٢٦٦٢٥، وأبو داود، كتاب الحروف والقراءات: ٤٠٠١، والترمذي، أبواب القراءات، باب فاتحة الكتاب: ٢٩٢٧،وصححه الأرناؤوط.

٤ذكره سعيد بن منصور في سننه: ٣٩٣/٢، و الخطيب في اقتضاء العلم العمل: ١٠٩.

[5] رواه بنحوه ابن أبي شيبة، كتاب صلاة التطوع والإمامة، باب في قراءة القرآن: ٨٧٣٣، والبيهقي في الشعب ٨/٥.

فإن سألته عن سبب فعل ذلك أخبرك أنه لا يجد وقتا لقراءة ورده إلا في هذه الأماكن، وغير ذلك من التبريرات.

ولكن هل بهذه الأفعال نكون قد احترمنا القرآن وقدرناه حق قدره؟ وهل بهذه الطريقة نكون قد استفدنا من القرآن؟

للأسف: لا.

القرآن يُتعبد بتلاوته:

فإن قلت: إن القرآن يُتعبد بتلاوته بغض النظر عن فهمه أو عدم فهمه، فلماذا يُعد الإسراع في قراءته من الأخطاء؟

كان الجواب على لسان الإمام محمد عبده، والذي نقله تلميذه محمد رشيد رضا:

سأَل سائل من المقلدين حاضري الدرس بأن العلماء قالوا: إن القرآن يتعبد بتلاوته، فقال الأستاذ الإمام: نعم، ولكنهم لم يقولوا إنه أنزل لذلك، وكيف يقولون ذلك، والله الذي أنزله يقول إنه أنزله: (**لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ**) (٣٨ : ٢٩)، فالقرآن وكذلك السنة يصرحان في مواضع كثيرة بخلاف هذا القول إذا أخذ على إطلاقه، وجعل معناه – أو من معناه –أن الله تعالى يطالب عباده بقراءة القرآن بدون تدبر ولا تذكُّر. وقد جاء من الأحاديث ما يصف حال قوم يأتون بعد: **يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ**. وقد سماهم شرار الخلق، فهؤلاء الأشرار قد اتخذوا القرآن من الأغاني والمُطربات، وإذا طالبت أحدهم بالفهم والتدبر أخذته العزة بالإثم واحتج عليك بكلمة قالها فلان أو حلم رآه فلان، وهكذا انقلب على المسلمين وضع الدين، ثم هم يتعجبون مع ذلك كيف حرموا من وعد الله في قوله: (**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**) (٣٠ : ٤٧) (**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**) (٢٣ : ٦٨ ، ٦٩)، وضرب الأستاذ مثلا رجلا يرسل كتابا إلى آخر فيقرؤه المرسل إليه هذرمة أو يترنم به، ولا يلتفت إلى معناه، ولا يكلف نفسه إجابة ما طلب فيه، ثم يسأل الرسول أو غيره: ماذا قال صاحب الكتاب فيه، وماذا يريد منه؟ أيرضى المرسل من المرسل إليه بهذا أم يراه استهزاء به؟ فالمثل ظاهر وإن كان الحق لا يقاس على الخلق، فإن الكتاب لا يرسل لأجل ورقه، ولا لأجل نقوشه، ولا لأجل أن تكيف الأصوات حروفه وكلمه، ولكن ليعلم مراد المرسل منه ويعمل به.

(الأستاذ الإمام): إن الاستهداء بالقرآن واجب على كل مكلف في كل زمان ومكان، فعلى كل قارئ أن يتلو القرآن بالتدبر، وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به، ولا شك أن كل من له معرفة - ولو

قليلة - باللغة العربية، فإنّه يفهم من القرآن ما يهتدي به، ومن كان أميا أو أعجميا فإنه ينبغي له أن يسأل القارئين أن يقرءوا له القرآن ويفهموه معناه.. انتهى كلامه[1].

احذر القراءة في الأسواق:

ومما يلحق بهذه المسألة قراءته في الأسواق والمصانع ومواطن اللغط واللغو وفي أوقات الانتظار في العيادات الطبية والمصالح الحكومية.

يقول الإمام القرطبي: ومن تعظيم القرآن ألا يقرأ في الأسواق ولا في مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء. ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم: {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} [الفرقان: ٧٢] هذا المرور نفسه، فكيف إذا مروا بالقرآن الكريم تلاوة بين ظهراني أهل اللغو ومجمع السفهاء![2]

أخي: إن كانت قراءة القرآن حجة للقارئ أو عليه، ترفعه أو تضعه، فقل لي بربك: في أي اتجاه ستؤدي قراءة القرآن وسط الضجيج؟ هل سترفعه؟ أم تضعه؟ هل ستكون حجة له؟ أم عليه؟

من هنا نفهم ما رواه ابن أبي شيبة عن أبي عبد الرحمن السلمي: القرآن وحشي، ولا يصلح معه اللغط.

ووحشي هنا كما يقول المحقق: تعني حب الهدوء والوحدة والنفرة من الضجيج والصخب[3].

موسم الامتحان:

أما أخطر فترات التعامل الخاطئ الذي يحمل معه مظاهر الامتحان – ونستغفر الله من هذا اللفظ ولكنها الحقيقة: هو شهر رمضان.

فالكثير من المسلمين نتيجة فهمهم الخاطئ عن القرآن وعدم ربط أحاديث فضل قراءة القرآن بالمقصد من نزوله وآداب التعامل معه؛ ينكبون على قراءته وختمه في أسرع وقت ممكن حتى يتمكنوا من ختمه عدة ختمات، بل تحدث مسابقات بينهم في ذلك حتى وصل بعضهم إلى درجة التمكن من ختمه كاملا مرة كل يوم، ولو سألت أحدهم عن موضوع الآيات لم يجبك بل استغرب سؤالك أصلا.

---

١ تفسير المنار ٣٦٩/١، ملاحظة: يقصد بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

٢ التذكار للقرطبي ١٩٠

٣ مصنف ابن أبي شيبة ١٨٩/٧ - والمحقق هو الأستاذ سعيد اللحام.

وفي رمضان كذلك نجد بعض أئمة المساجد يقرأ في صلاة التراويح قراءة سريعة ويصل الآيات بعضها ببعض من أجل سرعة الانتهاء من الصلاة، أو من أجل ختم القرآن كاملا في خلال الشهر، بل إن بعضهم يحرص على ختمه أكثر من مرة في صلاة التراويح والتهجد بقراءة سريعة متواصلة.

إن هذه الممارسات وغيرها لن يتوقف أثرها على تخفيف قدر القرآن في قلوبنا فقط، بل ستستدعي عقوبات كثيرة، وستجعلنا نزداد هوانا وذلا كما قال صلى الله عليه وسلم: "**ويضع به آخرين**"[1].

ممارسات مخزية:

ومن أخطر الممارسات التي أقل ما يطلق عليها أنها مخزية: ما يحدث عند المقابر وفي سرادقات العزاء، حيث يتمايل القراء مع الآيات، وينشغل الحاضرون بالأحاديث الجانبية أو التحدث في الهواتف المحمولة.

ومنها كذلك: ما يحدث في افتتاح الحفلات والمناسبات والأفراح والحوانيت والمعارض، حيث نجد القرآن يُتلى في بداية هذه الحفلات مع غفلة الحاضرين وانشغالهم عنه.. ثم تبدأ الفقرات غير المنضبطة والتي قد تشمل غناء خليعا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومن العجائب والعجائب جمة، ما ذكره الكاتب المصري فهمي هويدي في إحدى مقالاته عن حادثة حدثت في الساحل الشمالي بمصر، حيث أُعلِن عن مسابقة لأجمل من ترتدي لباس البحر بين الإناث، فقالت أم لابنتها وهي تستعد لصعود المنصة لتقديم لباسها: اقرأي الفاتحة حتى يوفقك الله!

اللهم إنا نُشهدك بغضنا لهذه الأفعال.. اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا.

---

١ سبق تخريجه ص: ٣.

ومن الممارسات الخاطئة مع القرآن:

الاهتمام بإقامة حروفه، وإهمال العمل به.

ومن أخطائنا في التعامل مع القرآن: التعمق والتكلف في إقامة حروفه، حتى تحولت قراءة القرآن عند البعض إلى عمل شاق يحتاج إلى كثير من المجهود حتى تخرج الحروف بطريقة صحيحة متقنة من حيث المخارج والصفات وحقها ومستحقها، وأصبح همّ المتعلمين هو الاجتهاد في إقامة حروف القرآن كما يريد لهم معلموهم، فتجد بعضهم يكرر الكلمة مرات ومرات حتى يُخرج حرفاً مثل الراء أو السين من مخرجه الصحيح، ويجتهد في ذلك دون أدنى تفكير في معاني ما يقول.

فإذا ما نجح المتعلم في ذلك ينال حظوة معلمه فيرقيه حتى يجيزه للإقراء، فينتقل إلى مقام التعليم ويفعل مع من يأتيه مثلما فُعل به أو أشد، وياويله من ابتلي بمشكلة في إخراج حرف أو اثنين؛ فإنه يُراجَع مرات ومرات، ويعتريه الهم والغم، ويصبح إصلاحه مخرج هذا الحرف شغله الشاغل في يقظته ومنامه..

وأصبح أمل الحصول على إجازة قراءة من القراءات حلما يراود الكثيرين..

ثم تطور الأمر فأصبح بعض المعلمين يأخذ مبالغ مالية كبيرة مقابل منح الإجازة.

وازداد نهم المتعلمين نحو تحصيل المزيد من القراءات دون تفكير في الفائدة المتحققة بالفعل من وراء ذلك.

كل هذا وغيره أدى إلى رسم صورة ذهنية عن القرآن بأنه حروف منضبطة تخرج من مخارجها الصحيحة، ومن لم يفعل ذلك فقراءته بها لحن وإمالة،... إلخ.

الرسول يحذر!!:

ومما يثير الحزن أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حذر من الاهتمام بالألفاظ دون المعنى، فعن سهل بن سعد الساعدي قال: بينما نحن نقترئ إذا خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "**الحمد لله، كتاب الله واحد، وفيكم الأخيار، وفيكم الأحمر والأسود، اقرءوه قبل أن يأتي أقوام يقيمون حروفه كما يقام السهم، لا يجاوز تراقيهم، يتعجلون أجره ولا يتأجلونه**[١].

---

[١] رواه أبو داود، أبواب تفريع استفتاح الصلام، باب ما يجزئ الأعمى والأمي: ٨٣١، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب قراءة القرآن: ٧٦٠، وصححه الأرناؤوط.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقرأ القرآن وفينا العجمي والأعرابي فقال: فاستمع فقال: "**اقرءوا فكل حسن، سيأتي قوم يقيمونه كما يقيمون القدح، يتعجلونه ولا يتأجلونه**"[1].

قال العيني في شرحه لسنن أبي داود: قوله: " يقيمونه " أي: يقيمون القرآن كما يقام القِدح، القِدح– بكسر القاف وسكون الدال- السهم إذا قوم واستوى قبل أن ينصل ويراش، فإذا رُكب فيه النصل والريش فهو سهم.. وقوله: " يتعجلونه " يقال: أعجله وتعجله وعجله تعجيلاً، إذا استحثه، والمراد يتعجلون أجره في الدنيا، ويطلبون على قراءتهم أجرة من الأعراض الدنيوية، ولا يصبرون إلى الأجر والثواب الذي يحصل لهم في دار الآخرة، وقد وقع مثل ما قال عليه السلام.[2]

وقال أبو الحسن المباركفوري: فكل حسن، أي فكل قراءة من قراءتكم حسنة مرجوة أو محصلة للثواب إذا آثرتم الآجلة على العاجلة، ولا عليكم ألا تقيموا ألسنتكم إقامة القدح – وهو السهم – قبل أن يعمل له ريش ولا نصل، والمقصود: إن قراءة الأعرابي والعجمي وإن كانت بالنظر إلى خروج الألفاظ عن مخارجها ورعاية صفاتها وقواعد لسان العرب غير مستقيمة، ولكن باعتبار ترتب الثواب عليها والقبول عند الله معتبرة، وسيجيئ أقوام يقيمونه –أي حروفه وألفاظه– ويجودونها بتفخيم المخارج وتمطيط الأصوات.

وقال القاري: أي يصلحون ألفاظه وكلماته ويتكلفون في مراعاة مخارجه وصفاته كما يقام القدح، بكسر القاف وسكون الدال، أي: يبالغون في عمل القراءة كمال المبالغة لأجل الرياء والسمعة والمباهاة والشهرة.

والحاصل أنهم يبالغون في التحسين والتطريب، ويجهدون غاية جهدهم في إصلاح الألفاظ ومراعاة صفاتها ومراعاة قواعد الفن رياء وسمعة ومباهاة وشهرة، فليس غرضهم بهذا إلا طلب الدنيا.

وفي الحديث رفع الحرج وبناء الأمر على المساهلة فيما يتعلق بقراءة الألفاظ والحروف على السجية، والفطرة والحرص كل الحرص على فهم المعاني والعلم بالمقاصد والاتباع لشرائعه وأحكامه.

---

[1] أخرجه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند جابر: ١٤٨٩٨. وقال الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد رجاله ثقات غير أسامة بن زيد فحسن الحديث.

[2] ١٢/٤.

قال الطيبي: فيه رفع الحرج وبناء الأمر على المساهلة في الظاهر، وتحري الحسبة والإخلاص في العمل، والتفكر في معاني القرآن والغوص في عجائب أمره[1].

قوله: " **فكل حسن** " أي: كل واحد من قرائكم حسن.

والمعنى هو ذم من يقيمون حروف القرآن كما يقام السهم قبل أن يُعدّ للرمي، فإن القائم عليه يحرص على جعله حادا ليس فيه أي زوائد.

لا تفعل:

ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذرون التابعين من الاهتمام بإقامة حروف القرآن وتضييع حدوده ومعانيه.

فعن الحارث بن قيس قال: كنت رجلا في لساني لُكنة [(٢)]، وكنت أتعلم القرآن، فقيل لي: ألا تعلّم العربية قبل أن تعلم القرآن؟! فذكرت ذلك لعبد الله بن مسعود وقلت: إنهم يضحكون مني، ويقولون: تعلم العربية قبل أن تعلم القرآن، فقال: لا تفعل، فإنك في زمان تحفظ فيه حدود القرآن، ولا يبالون حفظ كثير من حروفه، وإن بعدك زمان تُحفظ فيه الحروف وتضيع فيه الحدود[3].

وهذا فضالة بن عبيد الأنصاري يقول لأبي سكينة: خذ هذا المصحف وأمسك عليّ، ولا ترد عليّ ألِفًا ولا واوًا، فإنه سيكون قوم يقرءون القرآن لا يسقطون منه ألفا ولا واوا، ثم رفع فضالة يده، فقال: اللهم لا تجعلني منهم[4].

من موانع فهم القرآن:

ولقد اعتبر الإمام أبو حامد الغزالي أن من موانع فهم القرآن: أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وُكِّلَ بالقرآء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يُخيِّل إليهم أنهم لم يُخرجوه من مخرجه، فهذا يكون تأملهم مقصوراً على مخارج الحروف فأنَّى تنكشف لهم المعاني؟!! وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعا لمثل هذا التلبيس[5].

---

[1] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢٩٠/٧.

(٢) اللكنة هي العجمة في اللسان والعي، والمقصود عدم القدرة على نطق العربية نطقا فصيحا. (لسان العرب: ٣٩٠/١٣).

[3] فضائل القرآن لابن الضريس رقم٤، ص ٢٧. بسند ضعيف.

[4] فضائل القرآن لأبي عبيد: ص: ٢١٢.بإسناد حسن.

٥ إحياء علوم الدين ٤٣٩/١.

ويقول ابن الجوزي: وقد لبس إبليس على بعض المصلين في مخارج الحروف، فتراه يقول: الحمد، الحمد، فيخرج بإعادة الكلمة عن قانون أدب الصلاة، وتارة يلبس عليه في تحقيق التشديد، وتارة في إخراج المغضوب، ولقد رأيت من يقول: المغضوب، فيخرج بصاقه مع إخراج الضاد لقوة تشديده، وإنما المراد تحقيق الحرف فحسب، وإبليس يُخرج هؤلاء بالزيادة عن حد التحقيق، ويشغلهم بالمبالغة في الحروف عن فهم التلاوة، وكل هذه الوساوس من إبليس[1].

من أصناف المغرورين:

وفي كتابه إحياء علوم الدين، وفي حديثه عن أصناف المغرورين؛ اعتبر الإمام أبو حامد الغزالي أن التكلف في تحقيق مخارج الحروف من أقبح أنواع الغرور.. يقول رحمه الله:

وفرقة أخرى تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء، وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته، لا يهمه غيره، ولا يفكر فيما سواه، ذاهلا عن معنى القرآن والاتعاظ به، وصرف الفهم إلى أسراره، وهذا من أقبح أنواع الغرور **فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام**.

ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان وأُمر أن يؤديها على وجهها، فأخذ يؤدي الرسالة، ويتأنق في مخارج حروفها ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى، وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس، فما أحراه أن تقام عليه السياسة ويُرَد إلى دار المجانين ويُحكم عليه بفقد العقل[2].

فمن ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه فهو مغرور، إذ المقصود من الحروف: المعاني، وإنما الحروف ظروف وأدوات[3].

التحقيق صون القرآن:

وجاء في كتاب المرشد الوجيز لأبي شامة المقدسي:

قال رجل لسليم بن عيسى القارئ (صاحب حمزة بن حبيب): جئت لأقرأ عليك التحقيق، فقال سليم: يا ابن أخي، شهِدت حمزة وقد أتاه رجل في مثل هذا، فبكى وقال: يا ابن أخي إن التحقيق صون القرآن، فإن صنته فقد حققته[1].

---

١ تلبيس إبليس ص ١٢٦.

[2] إحياء علوم الدين ٣/ ٦٢٢.

[3] السابق ٣/٦١٨.

وخلاصة القول كما يقول ابن القيم: أن الأئمة كرهوا التنطع والغلو في النطق بالحروف، ومن تأمل هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقراره أهل كل لسان على قراءتهم؛ تبين له أن التنطع والتشدق والوسوسة في إخراج الحروف ليس من سنته[2].

فإذا ما نظرنا للواقع سنجد عكس ذلك.. سنجد اهتماما شديدا في حلقات تعليم القرآن بمخارج الحروف والتنطع فيها، مما يصرف الأذهان عن حقيقة القرآن، فيكون ذلك سببا من الأسباب التي تستدعى بها عقوبات الحرمان والذل والهوان: "**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين**"[3].

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي نهاية الحديث عن هذا الموضوع نؤكد بأن تحقيق وضبط مخارج الحروف ليس عيبا، بل هو أمر حسن ومطلوب شريطة ألا يكون هو المقصد والغاية، وألا يهتم به حتى يدخل إلى دائرة التكلف، وألا يصرف القارئ عن فهم المراد مما يتلو.

---

[1] المرشد الوجيز ص ٢٠٨.

[2] إغاثة اللهفان ١/٢٥٤.

[3] سبق تخريجه ص:٣.

ومن الممارسات الخاطئة مع القرآن:

قراءته بالألحان المحدثة
وغيرذلك من الأخطاء

أمرنا الله عز وجل بترتيل القرآن والتغني به، قال الله تعالى: {**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا**} [المزمل: ٤]، وقال صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من لم يتغن بالقرآن"[1]

وقال: "زينوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حُسنا"[2]

فترتيل القرآن وتحسين الصوت به له وظيفة عظيمة في استثارة المشاعر مع المعاني التي يحصلها العقل بالتدبر، فينشأ تبعا لذلك الإيمان بإذن الله.

والملاحظ أن أحكام التجويد ترتبط ارتباطا وثيقا بالفهم والعمل، وليس بالشكل فقط، فعلى سبيل المثال: الإظهار الشفهي التام يعني في بعض الأحيان فورية التنفيذ، مثل: {**قُمْ فَأَنْذِرْ**} [المدثر: ٢]{**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا**} [آل عمران: ١٩٣]

بل نجد أن كثرة الغُنّ في قوله تعالى: **وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ**} [النساء: ٧٢] تساعد على توصيل دلالة الآية وهو الإبطاء والقعود وعدم النهوض للعمل والدعوة .. وهكذا..

تلحين القرآن:

من الشائع والمألوف سماع أصوات المقرئين في سرادقات العزاء، ومن خلال ما تبثه الإذاعات وهم يقرءون القرآن بطريقة تخالف قواعد الترتيل، ويغلب عليها الألحان المحدثة..

يقول الحافظ ابن كثير: المطلوب شرعا إنما هو التحسين الباعث على تدبر القرآن وفهمه، والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة.

فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان الملهية، والقانون الموسيقائي؛ فالقرآن يُنزه عن هذا، ويُجَلّ ويُعظَّم أن يسلك في أدائه هذا المذهب، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك[3].

فعن عابس الغفاري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم **يتخوف على أمته ست خصال: إمرة الصبيان، وكثرة الشُّرَط، والرشوة في الحكم، وقطيعة الرحم، واستخفاف بالدم، ونشوًا**

---

[1] رواه البخاري: ٧٠٨٩.

[2] أصل الحديث "زينوا القرآن بأصواتكم" عند أصحاب السنن وغيرهم، ورواه بهذه الزيادة الحاكم في المستدرك ٧٦٨/١ برقم: ٢١٢٥. وصحح هذه الزيادة ابن حجر في التلخيص الحبير وغيره.

[3] فضائل القرآن لابن كثير ١١٤، ١١٥.

يتخذون القرآن مزامير، يُقدمون أحدهم ليس بأفضلهم في الدين، ولكن يُقدمونه ليغنيهم به غناء[1].

ومن الأخطاء كذلك:

جمع القراءات في الكلمة الواحدة.. يقول ابن الجوزي: ومنهم من يجمع القراءات فيقول: "ملك، مالك، ملاك" وهو لا يجوز؛ لأنه إخراج القرآن عن نظمه[2].

ومن الأخطاء كذلك:

وضع الآيات في غير موضعها.

كاستخدام آيات القرآن في الزينة والديكور، وكتابتها على المشغولات الذهبية والفضية والنحاسية، ونقشها على الأطباق، وعلى واجهات الحوانيت، ومداخل البنايات، وجدران المساجد... إلخ.

ولأبصرناها على الأقلام والدفاتر و..

ولشاهدناها في اللوحات والتابلوهات التي تُزين الجدران..

ولقد ساهمت هذه الأعمال في تخفيف قدر القرآن في قلوبنا، لاعتيادنا عليها، وإلفنا لحروفها، ولأنها كذلك ساهمت في رسم صورة ذهنية مشوهة عن هذه الآيات وحصرها في إطار الزينة والديكور، ومِن ثَم فُقدان هيبتها في قلوبنا، مما يتسبب في استدعاء الغضب الإلهي بالحرمان أكثر وأكثر من الانتفاع بالقرآن..

إلا اللوحات القرآنية!!

فإن قيل إن وضع اللوحات القرآنية في المنازل يختلف عن بقية الأشياء التي يكتب عليها الآيات، فنحن نضعها لاستجلاب البركة وطرد الشياطين..

نُجيب بعون الله عن هذا الأمر بمثال فيه – بإذن الله – الكفاية:

---

١ أخرجه أحمد، مسند المكيين، حديث عليم عن عبس: ١٦٠٨٣، والطبراني في معجمه الكبير ٣٤/١٨، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص: ١٦٦، بألفاظ متقاربة، وصححه الأرناؤوط، والألباني في صحيح الجامع الصغير برقم: ٢٨١٢.

رواية أخرى عند أحمد في المسند (٢٤٠١٦) عن عوف بن مالك: عن شداد أبي عمار الشامي قال: قال عوف بن مالك: يا طاعون خذني إليك. قال: فقالوا: أليس قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما عمر المسلم كان خيرا له؟" قال: بلى، ولكني أخاف ستا: إمارة السفهاء، وبيع الحكم، وكثرة الشرط، وقطيعة الرحم،**ونشوا ينشؤن يتخذون القرآن مزامير**،وسفك الدم. وقال الأرناؤوط: صحيح لغيره.

٢ تلبيس إبليس ص ١٣٨.

لو أن رجلا كان قد سافر في إجازة هو وأسرته لعدة أيام، ثم عاد إلى منزله فوجد الفئران تملؤه وترتع فيه، فانزعج انزعاجا شديدا، وسارع بإخبار أحد أصدقائه الذي أنبأه بأن لديه حلا سهلا، وسينتج عنه فرار جميع الفئران، وهو شراء عدة لوحات تحمل صورا لقطط، ثم يقوم بتعليقها على جدران المنزل..

فما رأيك أخي في هذا الاقتراح؟ وماذا تتوقع من الفئران أن تفعل؟!..

هل بالفعل ستهرب عندما تشاهد صور القطط، أم أنها ستستمر في المنزل؟!

ألست توافقني القول بأننا لا نستبعد أن تُقرض وتفسد تلك اللوحات نفسها!!

فإن قلت: ولكنني أحتاج في بعض الأوقات لوضع بعض الآيات أمامي للتذكرة بمعانيها؟

جاءك بفضل الله الجواب بأنه لا بأس من ذلك، والله أعلم، على ألا يدوم وضعها طويلا حتى لا تألفها العين، ومن ثم لا تتذكر بها فتصبح حجة عليك لا لك.

تزيين المصاحف:

ومما يلحق بهذه المسألة: تزيين المصاحف وتحليتها بالزخارف وكتابتها بماء الذهب..

روى الحكيم الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعا: (**إذا زخرفتم مساجدكم، وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم**).

وعن شعيب بن أبي سعيد الخدري قال: قال أبيّ بن كعب: إذا حليتم مصاحفكم وزوقتم مساجدكم فالدمار عليكم[1]..

وأتي عبد الله بن مسعود بمصحف قد زُيّن بالذهب، فقال: إن أحسن ما زين به المصحف تلاوته بالحق.[2]

تصغير المصاحف:

[1]روي هذا المعنى عن عدد من الصحابة، فرواه عن أبي الدرداء مرفوعا:الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٨٥/٦ برقم: ١٣٤٦. ورواه عنه موقوفا: ابن المبارك في الزهد ص٢٧٥، وابن أبي داود في المصاحف ص١٦٨، ورواه عن أبي ذر: أبو بكر ابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، المصحف يحلى: ٣٠٢٣٧، وأبو عبيد في فضائل القرآن ص ٣٧٣. ورواه عن أبي بن كعب ابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، المصحف يحلى: ٣٠٢٣٢. وعن أبي هريرة سعيد بن منصور في جزء التفسير من سننه ٤٨٦/٢. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤٢٥/٣ برقم: ١٣٥١.

[2]رواه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٣٩٦.

ذكر ابن الأنباري عن عمر رضي الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا فقال: من كتب هذا؟ قال رجل: أنا، فضربه بالدرة، وقال: عظموا القرآن.

ويُعلق القرطبي على هذا الخبر فيقول: قال العلماء: ومن المساهلة فيه، وترك الحفل به: أن يُصغَّر فيكون عُرضة للأيدي الخاطئة، وذوي الأمانات المختلفة الناقصة، ولن يفعل هذا أحد بما عنده إلا إذا قلَّ مقداره عنده، وخف على قلبه أمره[1].

ليست هذه فقط:

إن الأخطاء التي نمارسها مع القرآن الكريم أكبر بكثير مما ذُكِر.. نعم، قد لا يقع قارئ هذه الصفحات في كثير منها، لكنها تحدث في الأمة، والله عز وجل يُعامل الأمة على أنها جسد واحد، تأمل قوله تعالى: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} [الحجرات: ١١]، فهل يُعقل أن يلمز ويطعن المرء نفسه؟!! فكيف يطالبنا الله عز وجل بعدم لمز النفس؟!

الجواب هو أن الله عز وجل يعامل الأمة على أنها جسد واحد، وعندما يلمز المرء أخاه فكأنما لمز نفسه..

فالذي يحدث في الأمة من شرقها إلى غربها من ممارسات خاطئة ومتنوعة مع القرآن تجعل العقوبات الإلهية بالحرمان والذل والهوان تُصيب الجميع، وقد لا يستثنى من ذلك إلا من استشعر الخطر الداهم، وشمّر عن سواعد الجد في خوض رحلة العودة الحقيقية إلى القرآن، يصحبه فيها عزم أكيد على بذل غاية جهده في الوصول إليه، ودلالة الناس على هذا الطريق، مع استعداد تام للتضحية وتحمل المشاق والعنت في سبيل ذلك {**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**} [الأعراف: ١٧٠].

{**وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا**} [الفرقان: ٥٢]

كلمة أخيرة حول الممارسات الخاطئة مع القرآن:

تضمنت الصفحات السابقة العديد من الممارسات الخاطئة التي نمارسها مع القرآن، وهي ليست على سبيل الحصر، فهناك ممارسات أخرى متنوعة تُضعِف من هيبة القرآن في قلوبنا وتستدعي العقوبة الإلهية بالحرمان من روح القرآن وأثره؛ لذلك علينا جميعا ألا نكتفي بما قيل سابقا، بل نراجع كل أفعالنا مع القرآن وندقق فيها، ونتوقف عن كل ما فيه شبهة امتهان له.

---

[1] التذكار في أفضل الأذكار ص: ١٤٤.

الفصل السادس

كيف استُدرجت الأمة لهذا الوضع مع القرآن؟

الفصل السادس

كيف استُدرجت الأمة لهذا الوضع مع القرآن؟

في الصفحات السابقة تم ذكر تحذيرات النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم من تخفيف القرآن، وانتقاله عند المسلمين من كونه قولا ثقيلا يحتاج إلى مكابدة وجهد ومشقة لتدبره وحمل ألفاظه، إلى قول خفيف يُقرأ قراءة سريعة لا يُهتم بمقاصد نزوله ولا اتباع توجهاته.

وذكرنا - بفضل الله – أن الأجيال التالية لجيل الصحابة لم تهتم كثيرا بتحذيراتهم، وبدأت في التعامل غير الصحيح مع القرآن، مما استدعى العقوبات الإلهية بابتعاد روح القرآن ونوره عن ألفاظه، مما أدى إلى مزيد من تخفيف قدر القرآن في القلوب، ومزيد من الانشغال عنه، وكان من نتيجة ذلك غياب التغيير الحقيقي لأبناء الأمة، وانحرافها عن الخط المرسوم لها في قيادة البشرية.

وتطرق الحديث في الصفحات السابقة عن قدر القرآن المجيد، وكونه يحتوي على أعظم آيات الله عز وجل؛ لذلك فإن الإعراض عنه سواء كان ذلك بالغفلة أو التكذيب يُعرِّض صاحبه لعقوبات متتالية ومتصاعدة من الله عز وجل.

إن الهدف الأساس الذي ترنو هذه الصفحات إلى تحقيقه – بإذن الله – هو تأجيج الشعور بالخطر تجاه القرآن، والنظر في أفعالنا معه بعين المحاسبة والنقد، لذلك تم التوسع في ذكر أخطائنا تجاهه..

.. وقبل أن ينتقل الحديث إلى ما ينبغي علينا فعله كي نُعيد للقرآن هيبته في القلوب، ونضع أنفسنا في طريق تلقي الفيض الإلهي فتُفتح القلوب بإذن الفتاح العليم لنور القرآن وروحه، تبقى نقطة هامة ينبغي التطرق إليها وهي: **كيف استُدرجت الأمة على مر تاريخها حتى وصل الحال مع القرآن لما نراه الآن:**

"كتاب مقدس" من الناحية الشكلية!!

تُحفظ ألفاظه، وتُضيَّع حدوده، ومعانيه!!

والله ثم والله لو بلغ أحدنا أن هناك أناسا في مكان (ما) يعاملون كتابا من الكتب القيمة التي بين أيديهم بمثل ما نعامل به القرآن لاتهمهم بنقص في قواهم العقلية.

فكيف وصلنا لهذا الحال مع القرآن؟

.. صفحات هذا الفصل تلقي – بعون الله – الضوء بصفة عامة على تاريخ هجر القرآن، والكيفية التي تم من خلالها الوصول لهذه الحالة الغريبة التي نحياها معه.

وهذا الموضوع - بلا شك – يحتاج إلى بحث منفصل يتم فيه التوسع في تتبع منحنى التعامل مع القرآن على مر تاريخ الأمة، ولعدم خروج الكتاب عن موضوعه؛ اقتصر الحديث عن هذا المعنى بإجمال واختصار شديدين.

المعركة المُستَعِرة، والعدو الأول

الإجابة عن السؤال السابق (كيف استدرجت الأمة لهذا الوضع مع القرآن؟) يستدعي تذكر طبيعة المعركة التي يخوضها إبليس ضد آدم – عليه السلام - وبنيه، فلقد توعّد إبليس بعد طرده من رحمة الله أن يعمل جاهدا على الانتقام من آدم وبنيه، بإضلالهم وسوقهم إلى النار، حتى ينتقم لنفسه مما حدث له بسبب آدم – كما يظن – وحتى يثبت للجميع أنه أفضل منه، وأيضا تعبيرا عن حسده وحقده عليه: {**لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**} [الأعراف: ١٦، ١٧].

إنها عداوة تاريخية أبدية بين إبليس وبني آدم لا يمكن نسيانها، وكيف ننساها وإبليس لم يطلب المهلة من الله عز وجل إلا ليُضل الناس {**قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**} [ص: ٧٩ - ٨٣].

ولقد حذرنا الله عز وجل مرارا من عداوته { **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**} [فاطر: ٥، ٦].

.. لقد توعد إبليس بني آدم بأن يصرفهم عن عبادة الله، ونجح في ذلك نجاحا كبيرا، وبخاصة قبل البعثة المحمدية، حيث أصبحت الغالبية العظمى من الناس تسير وراء الشيطان، وليس أدل على ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم وهو يخبرنا عن حال الناس قبل بعثته: "**إن الله نظر لأهل الأرض فمقتهم؛ عربهم وعجمهم، إلا بقية من أهل الكتاب**"[١].

فقد نجح مع اليهود والنصارى في إضلالهم بتحريف التوراة والإنجيل، فتبدلت اليهودية والنصرانية، وابتعد أهلها عن صراط الله المستقيم، وضلت البشرية إلا أعدادا قليلة منهم.

وفي وسط هذا الانتصار الساحق للشيطان كانت البعثة المحمدية، التي تحمل أعظم كتاب وأعظم معجزة.. فماذا تظن بإبليس وهو يرى إرهاصات فجر جديد للبشرية، ونور سيُعيد الناس إلى صراط ربهم، ومِن ثَمّ تفشل خططه، وتفسد أمانيه، وتخيب مساعيه؟!

ماذا تظنه أن يفعل؟!

---

[١] رواه مسلم، الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار: ٧٣٨٦.

في أثناء تفكيرك في الإجابة عن هذا السؤال أسرد عليك ما نقلته كتب السيرة عما حدث من الشيطان في ليلة العقبة الثانية بعد بيعة الأنصار، التي كان من أبرز نتائجها إقامة الدولة الإسلامية في يثرب:

قال كعب بن مالك: كان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن معرور، فكان أول من بايع، ثم تتابع القوم فبايعوا، فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ – والله – صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب (والجباجب: المنازل) هل لكم في مُذَمّم والصُباة معه؟ قد اجتمعوا على حربكم. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**هذا أزب العقبة، هذا ابن أزيب، أتسمع- أي عدو الله – أما والله لأفرغن لك**[١].

فلابد – إذن – ونحن نبحث عن كيفية استدراج الأمة نحو هذا الوضع الشاذ مع القرآن ألا نغفل عن دور الشيطان في ذلك، ويكفيك تأكيدا لهذا المعنى تفكرك في أن العبادة الوحيدة التي أُمرنا بالاستعاذة من الشيطان قبل القيام بها هي قراءة القرآن: {**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**} [النحل: ٩٨].

فنحن لا نستعيذ بالله من الشيطان قبل أن نتصدق، أو نصوم، أو نذكر الله، أو ... .

أتدري أخي لماذا؟

لأن الشيطان يعلم بأن الهداية والتغيير والشفاء سيتحقق – بإذن الله – لو تم الوصال بين القلب والقرآن، لذلك فهو سيعمل جاهدا على الحيلولة دون حدوث ذلك تنفيذا للوعد الذي قطعه على نفسه {**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ**} [الأعراف: ١٦].

ولأن الله عز وجل يريد لنا الخير والنجاح في امتحان العودة إلى الجنة بسلوك الصراط المستقيم، فقد أخبرنا بمداخل الشيطان وكيفية التحرز منها، ومن أهمها الاستعاذة واللوذ به سبحانه قبل الشروع في قراءة القرآن حتى يخنس، ومن ثم ينفتح الطريق لنور القرآن وروحه فيصل للقلب.

عداوة اليهود الأبدية لأمة الإسلام:

ونحن نتحدث عن البُعد التاريخي في استدراج الأمة نحو الوضع الشاذ في تعامل أبنائها مع القرآن، فإن العنصر الأول الذي ينبغي أن نقف عنده طويلا هو كيد الشيطان المتوقع والمتواصل والمتغير الأشكال كما أسلفنا.

---

١ رواه أحمد، مسند المكيين، حديث كعب بن مالك: ١٥٨٣٦، وقال شعيب الأرنؤوط : حديث قوي وهذا إسناد حسن.وأزب: منْ أسْماءِ الشَّيَاطِين.

أما العنصر الثاني الذي لا يقل أهمية عن الأول فهو: كيد اليهود.

فكما نعلم أن الله عز وجل قد جعل في ذرية إبراهيم عليه السلام النبوة والكتاب وتبليغ رسالات الله للناس بتوحيده وعبادته {**وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ**} [العنكبوت: ٢٧]،وكان لإبراهيم عليه السلام إسحاق وإسماعيل عليهما السلام، فكانت النبوة والكتاب في البداية في ذرية إسحاق عليه السلام بدءا من يعقوب (إسرائيل) عليه السلام فيوسف حيث سكن إخوته في زمانه (مصر) واستوطنوها حتى أرسل الله موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون يدعوانه لعبادته سبحانه، فرفض فرعون الدعوة، وزاد تنكيله ببني إسرائيل فصبروا على إيذائه حتى أهلكه الله عز وجل، ونصرهم عليه، وفضلهم على العالمين لقيامهم – في الغالب – آنذاك بحقوق عبادته {**وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**} [الأعراف: ١٣٧].

وبدلا من أن يشكر بنو إسرائيل ربهم على نعمه المتوالية عليهم حدث العكس؛ شعروا بأنهم مفضلون بذواتهم على بقية البشر، وأنهم صنف ممتاز لا يرقى إليه غيرهم من الناس، فتكبروا وتطاولوا، واستمر حلم الله بهم، واستمر إرسال الرسل وإنزال الكتب فيهم، فأرسل إليهم داود وسليمان وأيوب وزكريا ويحيى وغيرهم من الأنبياء الكرام عليهم السلام، لكنهم لم يعودوا إلى المسار الصحيح، فأرسل الله إليهم سبحانه آية عظيمة ممثلة في إرسال عيسى عليه السلام لكي يُصحح انحرافهم، لكنهم لم يفيقوا ويرتدعوا، بل حاولوا قتله فرفعه الله عز وجل إليه، وغضب عليهم{**فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ** } [النساء: ١٥٥ - ١٥٧].

وكان اليهود يقرءون في كتبهم عن نبي سيُرسَل ويهاجر إلى يثرب، فظنوا أنه سيكون منهم كما كان الحال في السابق، فاستوطنوا يثرب انتظارا لمجيئه ففوجئوا بالطامة الكبرى عليهم، وهي أن الرسول الجديد لم يُبعث من بينهم، بل من أمة العرب من بني إسماعيل، فكان الرفض التام والقاطع له، والعداوة الشديدة لرسالته، منطلقين في ذلك من شعورهم بأحقيتهم في بقاء الرسالة عندهم، واستعظام أن يكون الرسول من أمة أخرى وبخاصة العرب وكيف لا وهم يرونهم خدما لهم، ويرون أنفسهم أسياد الأرض، وأبناء الله وأحباءه، ويلخص هذا المعنى الحوار الذي دار بين حُيَي بن أخطب وأخيه أبي ياسر اليهوديين، وذلك في أعقاب رؤيتهما الأولى للنبي صلى الله عليه وسلم، ولقد نقلت هذا الحوار أم المؤمنين صفية بنت حُيي بن أخطب فتقول:

كنت أحَبَّ ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه.

قالت : فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي؛ حيي بن أخطب، وعمى أبو ياسر بن أخطب مُغَلِّسِين، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت : فأتيا كَالَّيْن كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَيْنَى. قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليَّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمى أبا ياسر، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته ؟ قال: نعم، قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت[١].

فهم إذن لم يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم ولا برسالته ليس بسبب شكهم فيها، ولكنه الكِبر والحقد والحسد والخوف من اهتزاز مكانتهم وصورتهم التي رسموها لأنفسهم وصوروا فيها أنهم أبناء الله وأحباؤه، لذلك نجد الخطاب القرآني يقول للمسلمين: {**أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**} [البقرة: ٧٥].

من هنا ظهر حسدهم وحقدهم وعداوتهم للمسلمين {**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** } [البقرة: ١٠٩]

ولك أخي القارئ بهذه الخلفية التاريخية أن تتصور حجم العداوة والحقد الذي تُكِنُّه صدور اليهود تجاه المسلمين، والذي من المتوقع أن يظهر في صورة كيد دائم ورغبة مستمرة ومحاولات دائبة لإسقاط الإسلام والنيل منه وهزيمة المسلمين {**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**} [البقرة: ٢١٧].

ولأنهم يعلمون جيدا قدر القرآن وقيمته[٢]، ويعلمون أن عزة ورفعة أمة الإسلام مرهونتان بتمسكها بكتابها، لذلك فليس بمستبعد أن يكون لليهود دور كبير فيما وصلنا إليه مع القرآن، إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

من هنا نقول بأن أعداء الله – ويقف على رأسهم الشيطان واليهود – قد بدأوا كيدهم للقرآن منذ العصر الأول، وقد تصاعد هذا الكيد حتى وصلنا إلى هذه الحال الشاذة والتقديس الشكلي للقرآن..

---

[١] رواه ابن هشام ٣٢٩/٢-٣٣٠، والبيهقي في دلائل النبوة، باب ما جاء في دخول عبد الله بن سلام ٤٠٣/٣ برقم : ٧٨٦.

[٢] ومن أمثلة ذلك ما رواه الشيخان أن رجلا من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: إنكم تقرءون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال: وأي آية؟ قال: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]، فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم: عشية عرفة، في يوم جمعة. (البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: ٦٨٤٠، ومسلم، كتاب التفسير: ٧٧١٠)

وغني عن البيان أننا لم نصل لهذا الوضع بصورة مفاجئة بل كان هناك تتابع ماكر في استدراج الأمة وإبعادها عن كتابها شيئا فشيئا حتى كان ما كان والذي يبينه قوله تعالى {فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ} [آل عمران: ١٨٧].

وسنستعرض بعون الله سويا – أخي القارئ – الخطوات والمراحل التي أدت بنا إلى هذا الحال، والتي من خلالها استدرجت الأمة إلى هذا التعامل مع القرآن، والتي بدأت مبكرا في العصر الأول للإسلام بأمور يسيرة وقليلة ثم ازدادت بعد ذلك رويدا رويدا.

أولا: الفتوحات الكثيرة التي حدثت في عهد الخلفاء الراشدين، وبخاصة في زمن عمر وعثمان – رضي الله عنهما – والتي أثمرت دخول أعداد هائلة إلى الإسلام، ولقد كان الخلفاء، وبخاصة عمر بن الخطاب يحرص على إرسال الأمراء والقراء لتعليم الناس القرآن في كل مكان جديد، ولكن كانت الأعداد فوق الطاقة، لذلك فمن المتوقع ألا يكون قدر القرآن وقيمته العظيمة عند هؤلاء كما كانت عند الصحابة، وكان منطقيا أن تظهر من بينهم نماذج تتساهل في التعامل مع القرآن.

فإذا ما أضفت إلى هذا العامل أن تدبر القرآن عملية قد تبدو للبعض مُرهقة تحتاج إلى مكابدة وصبر ومصابرة، وأن النفس تميل إلى الاستسهال وتكره المشقة، وأن الشيطان يكيد للقرآن، فإنه من المتوقع أيضا أن توجد نماذج لا تتعامل مع القرآن كما كان يفعل الصحابة، وهذا يؤكد بعض ما ورد عن الصحابة في نهيهم لمن يرونه يتعامل بطريقة غير صحيحة مع القرآن، كقول السيدة عائشة – رضي الله عنها - عندما سمعت رجلا يقرأ قراءة سريعة، فقالت: ما قرأ هذا وما سكت[١].

وعن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، وإني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة في ليلة، فأتدبرها، وأرتلها أحب إليّ من أن أقرأ كما تقول[٢].

وفي رواية قال: لأن أقرأ سورة واحدة أحب إلى من أن أفعل مثل الذي تفعل، فإن كنت فاعلا لا بد فاقرأه قراءة تسمع أذنيك ويعيه قلبك[٣]

وقد مر علينا أنه قد جاء رجل يقال له نهيك بن سنان إلى عبد الله بن مسعود فقال له: يا أبا عبد الرحمن، كيف تقرأ هذا الحرف، ألفا تجده أم ياء {مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ} [محمد: ١٥] أو "من ماء غير ياسن"؟ فقال له عبد الله: وكلَّ القرآن أحصيت غير هذا؟!

قال نهيك: إني لأقرأ المفصل في ركعة. فقال عبد الله: هذًّا كهذِّ الشعر؟! إن أقواما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه، نفع[١].

---

[١] الزهد لابن المبارك ص: ٤٢٢ برقم: ١١٩٧.

[٢] رواه أبو عبيد في فضائل القرآن ص: ١٥٧، وعبد الرزاق في المصنف، كتاب الصلاة، باب الترتيل في القرآن: ٤١٨٧.

[٣] البيهقي في السنن الكبرى، جماع أبواب القراءة، باب مقدار ما يستحب له أن يختم فيه القرآن من الأيام: ٤٠٦١.

وعندما جاء رجل إلى أبي الدرداء يخبره بأن ابنه قد جمع القرآن، انزعج أبو الدرداء وقال له: اللهم غفرا، فإنما جمع القرآن من سمع له وأطاع[٢].

إذن فقد كان الصحابة يقاومون مثل هذه التعاملات الخاطئة مع القرآن، وبخاصة في أوساط حديثي العهد بالإسلام، ولكن كيد الشيطان، وهوى النفس وحبها للاستسهال جعل القرآن خفيفا على ألسنة البعض.

ومما يلحق بهذه المرحلة التي كانت في عهد الصحابة: ظهور الخوارج في زمن الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – والذين وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم: "**يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم**"[٣].

فظهور هذه الطائفة والتي تقرأ القرآن بحناجرها فقط ولا تتفهمه أو تتدبره، يؤكد على أن الانحراف عن التعامل الصحيح مع القرآن بدأ مبكرا، وكان من أهم أسبابه إقبال أعداد كبيرة على الإسلام من الذين لم يأخذوا حظهم من إدراك قيمة القرآن ولا تعلم آياته كما كان يحدث في عصر النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: تمييز القراء

مصطلح (القراء) كان شائعا بين الصحابة، ويُطلق على من يحمل العديد من سور القرآن أو يحملها كلها ويفقهها – وإن كان هؤلاء قلة وسط الصحابة – وكان الخلفاء يقدمون القراء على من سواهم في المناصب لإدراكهم بأنهم أكثر الناس فقها في الدين وعملا به، ولقد رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم في كثير من المواضع الأكثر أخذا للقرآن.

فعن عمرو بن سلمة الجرمي قال: لما قدم وفد قومي على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله من يصلي لنا أو بنا ؟ فقال: "**أكثرهم جمعا أو أخذا للقرآن**"[٤].

ولقد كان هذا الأمر سائدا بين الصحابة:

عن ابن عمر أن سالما (مولى أبي حذيفة) كان يؤم المهاجرين والأنصار في مسجد قُباء فيهم أبو بكر وعمر وأبو سلمة وزيد بن حارثة وعامر بن ربيعة[١].

١سبق تخريجه ص: ١٣٣.

٢ سبق تخريجه ص:١٢٨.

٣ متفق عليه: البخاري، كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم: ٧١٢٣، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم: ٢٥٠٥.

٤سبق تخريجه ص:١٢٥.

وكان الخلفاء يطبقون هذا المعنى بصورة عملية، فقد التقى نافع بن عبد الحارث الخزاعي بعمر بن الخطاب رضي الله عنه بعُسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فسلم على عمر، فقال له: من استخلفت على أهل الوادي؟ فقال نافع: استخلفت عليهم يا أمير المؤمنين ابن أَبْزَى. فقال عمر: وما ابن أبزى؟ فقال نافع: هو من موالينا. فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟! فقال: يا أمير المؤمنين: إنه قارئ لكتاب الله تعالى، عالم بالفرائض. فقال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين"[2]. وفي رواية زاد في آخره: قال عمر: وإني لأرجو أن يكون عبد الرحمن بن أبزى ممن رفعه الله بالقرآن.

لقد كانت الصورة الذهنية عند الصحابة عن جمع القرآن واحدة، ولكنها لم تكن كذلك عند من جاء بعدهم من المسلمين الجدد الذين رأوا الحفاوة والتمييز الذي يلقاه القراء، ولم يفطنوا إلى أنه مرتبط بأخذهم الحقيقي للقرآن مع جمعهم له، فنشطوا إلى جمع ألفاظ القرآن دون التفقه فيه والعمل به، فبدأت تظهر أعداد ليست بالقليلة من هؤلاء، وبدأ الصحابة يستشعرون الخطر، فكانت تحذيراتهم المتكررة من خطورة هذا المسلك – كما مر علينا في الفصل السابق – ولعل ما قاله أبو موسى الأشعري لقراء الكوفة يلخص هذه المسألة:

عن أبي كنانة أن أبا موسى الأشعري جمع الذين قرؤوا القرآن وهم قريب من ثلاثمائة، فعظّم القرآن وقال:

إن هذا القرآن كائن لكم ذخرا، وكائن عليكم وزرا، فاتبعوا القرآن ولا يتبعكم القرآن، فإنه من اتبع القرآن هبط به على رياض الجنة، ومن تبعه القرآن زُجَّ في قفاه فقذفه في النار[3].

ثالثا: أخطر المراحل: افتراق القرآن والسلطان.

نشط اليهود في الكيد للأمة، وكان على رأسهم عبد الله بن سبأ، وحدثت الفتنة الكبرى، ثم تلاها أمور جسام أخطرها هو افتراق القرآن عن السلطان، ونعني بذلك توريث معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – لابنه "يزيد" الحكم دون أن يكون مؤهلا لذلك، فكان ذلك إيذانا باختلال الموازين، وغياب أخلاق القرآن التي تحض على تولية الأصلح والأكفأ، وكان حكم يزيد من أخطر الأحداث التي مرت بالأمة وكيف لا؟ وهو بذلك يؤسس لمرحلة الملك العاض في الأمة حيث ينازع فيها الملك سلطان الله على نفوس الرعية، ولقد حاول الحسين بن علي رضي الله عنه إيقاف هذه

---

١ رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب استقضاء الموالي واستعمالهم: ٦٧٥٤.

[2] سبق تخريجه ص:٣.

[3] سبق تخريجه ص: ٥٢.

الطامة وتنبيه المسلمين للخطورة العظمى التي تحملها هذه المسألة، فضحى بنفسه وبالكثير من أهل بيته فداء لدينه كيلا ينتقص من سلطانه في نفوس المسلمين.

ولأبي الأعلى المودودي كلمات واضحة تحلل فعل الحسين رضي الله عنه، فلقد كتب تحت عنوان: لماذا استشهد الإمام الحسين، يقول رحمه الله:

علينا الآن أن نرى أي هدف استشهد في سبيله الإمام الحسين؟ هل كان يرى نفسه أحق بالحكم فضحى بنفسه لأجله؟ إن من يعرف سيرة بيت الإمام الحسين وسمو أخلاقهم لا يمكن أن يظن – مجرد الظن – أن هؤلاء كانوا يريقون دماء المسلمين من أجل الحصول على السلطة والحكم لأنفسهم. ومن ثم فلا محالة من التسليم بأن الإمام كان يرى آثار تغير كبير في المجتمع المسلم آنذاك وفي روح الدولة الإسلامية ومزاجها ونظامها، وأنه كان يعتبر ضرورة منع هذا التغير وإيقافه – ولو اقتضى الأمر القتال – ليس جائزا فحسب بل فرضا مفروضا.

أي تغيرذاك الذي رآه الإمام الحسين؟

إن الناس – بالطبع – لم يغيروا دينهم بل كان الحكام والمحكومون يؤمنون بالله ورسوله وقرآنه كما كانوا يؤمنون به من قبل. وكان قانون الدولة الإسلامية كما هو لم يتغير، وكانت الأمور في عهد بني أمية يفصل فيها في المحاكم وفق أحكام الكتاب والسنة، كما كان الحال قبل وصولهم إلى السلطة، بل إن تغيير القانون لم يقع في أي دور من أدوار الحكومات الإسلامية قبل القرن التاسع عشر الميلادي.

وبعض الناس يركزون على سلوك يزيد الشخصي، لكن لم تكن هذه هي المشكلة الأهم لأن النظام إن كان قائما على أسس صحيحة فإن محض مجيء شخص فاسد الخلق إلى سدّة الحكم لا يمكن أن يكون أمرا عظيما ينفد منه صبر رجلٍ واعٍ فاهمٍ عالمٍ بالشريعة علما عميقا كالإمام الحسين، لذا فإن هذا الجانب الشخصي في يزيد لم يكن التغير الحقيقي الذي أقلق الإمام.

إن الأمر الواضح الذي يظهر أمامنا جليا من دراسة التاريخ دراسة عميقة أن تغيير دستور الدولة الإسلامية ومزاجها وهدفها كان هو التغيير الذي انتبه له إليه الإمام الحسين وبدأ بولاية عهد يزيد، حتى قرر أن يقاتل ويضحي بروحه في سبيل إعادة الأمة إلى طريقها الصحيح.

نقطة الانحراف

ولكي نفهم هذا الأمر فهما تاما علينا أن نرى ما هي الخصائص الأساسية لدستور الدولة ونظامها الذي ظل ساريا أربعين عاما من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلفاء الراشدين.

وما هي كذلك خصائص النظام في الدولة الملوكية؟

وبهذه المقارنة نستطيع أن نعرف لماذا قام الإمام الحسين بهذه التضحية العظيمة؟ ولماذا لم يبالِ بنتيجة وقوفه أمام هذه القوات ليعيد الخلافة إلى أصلها الراشد؟

كانت أولى خصائص الدولة الإسلامية الإقرار - بالقلوب الصادقة وتأكيد ذلك بالسلوك العملي - بأن الملك لله، وأن الرعية رعية الله، وأن الحكومة مسئولة أمام هذه الرعية، وأنها ليست مالكة للرعية، وأن الرعية ليسوا عبيدا لها، وأن أول فرائض الحكام أن يضعوا في أعناق أنفسهم ربقة العبودية لله، ويذعنوا له ثم بعد ذلك عليهم القيام بمسؤوليتهم في تنفيذ قانون الله في رعية الله.

لكن الملوكية البشرية التي بدأت في المسلمين بولاية عهد يزيد انحصر فيها تصور ملوكية الله في الاعتراف بذلك باللسان فقط، أما من الناحية العملية فتبنت نفس النظرية التي تبنتها كل ملوكية بشرية وهي أن الدولة دولة الملك والأسرة الحاكمة، وأنها هي مالكية أرواح الرعية وأموالهم وكرامتهم وكل شيء.

وإن كان قانون الله قد نفذ في هذه الممالك فعلى العامة فقط في حين بقى الملوك وأسرهم وأمراؤهم وحكامهم مستثنين في الغالب.

الإمام الحسين ودوره الإيماني:

كانت هذه هي التغيرات التي ظهرت بانقلاب الخلافة الإسلامية ملكا عضوضا، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن ولاية عهد يزيد كانت البداية.

لهذا لم يستطع الإمام الحسين على ذلك صبرا، وقرر أن يتحمل أسوأ النتائج التي قد تنتج من جرّاء الثورة على حكومة راسخة مستتبة ويخاطر بمحاولة وقف هذا التبديل.

أما مصير هذه المحاولة فالكل يعرفه، لكن الإمام بنزوله إلى هذا الخطر العظيم، وتحمل نتائج هذا السلوك الرجولي المؤمن أثبت أن الخصائص الأساسية للدولة الإسلامية هي رأس مال الأمة الإسلامية، الذي إن ضحى المؤمن برقبته وأسرته وأهله وعياله في سبيل الحفاظ عليه لا يكون قد عقد صفقة خاسرة. وأن المؤمن إذا ضحى بكل ما يملك في سبيل الحرية والعدل فلا ينبغي له أن يأسف على ذلك قط. وليستحقر هذا من شاء، وليسمِه عملا سياسيا، لكنه كان في عين الحسين بن علي عملا دينيا خالصا، ولهذا اعتبر التضحية بالروح من أجله شهادة، فاسترخص روحه وضحى بها في سبيله[1].

---

[1] نقلا عن كتاب: الدعوة الإسلامية بين ثبات المبادئ وتجدد الوسائل، إعداد: عاطف منصور. بتصرف من رسالة لماذا استشهد الحسين؟ لأبي الأعلى المودودي.

من نتائج الملك العضوض:

لقد تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن القرآن والسلطان سيفترقان، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "**خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه ، ولستم بتاركيه يمنعكم من ذلك المخافة والفقر، ألا وإن رحا الإيمان دائرة ، فدوروا مع الكتاب حيث يدور، ألا وإن السلطان والكتاب سيفترقان، ألا فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء، إن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم، قالوا : كيف نصنع يا رسول الله ؟ قال : كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم، حملوا على الخشب ، ونشروا بالمناشير، موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله**"[1].

فبعد أن كان السلطان في زمن الخلافة الراشدة هو الذي يطبق القرآن ويحمل الناس على تطبيقه كاملا، ويشجعهم على تعلمه، ويحذرهم من التعامل الخاطئ معه؛ حدث أن انفصل السلطان عن القرآن بتولية إمارة المسلمين من لا يستحق، فاختلت الموازين، وسُفكت الدماء، وانتشرت المظالم، وخاف الناس على أنفسهم، وانشغلوا بأمورهم الخاصة، وأصبحوا يهابون السلطان، واختلت موازين التوثيق والتضعيف، والتميز والترقي، فلم تصبح على أساس الكفاءة والصلاح، وازداد ابتعاد المسلمين عن القرآن، وذلك لافتراقه عن السلطان كما أسلفنا.

والجدير بالذكر أن هذا الابتعاد قد زاد بما فعله مؤسسو الدولة العباسية من سفك شديد للدماء، وظلم، وقتل، وسجن، وتشريد..

رابعا: الانفتاح على الثقافات الأخرى

كان من آثار الفتوحات الإسلامية اطلاع المسلمين على تراث الأمم الأخرى كالفرس والروم، وبدأت مرحلة الترجمة والأخذ من هذه الثقافات وعدم التمييز بين غثها وسمينها، وبعد أن كان المصدر الوحيد للتوجيه والتلقي هو القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ تعددت المصادر، واختلط النبع الرائق، وحدث ما كان يخشى منه الرسول صلى الله عليه وسلم من الانبهار بكتب أخرى غير القرآن، فساهم هذا العامل الخطير في تخفيف قدر القرآن في قلوب المسلمين، وتسرب إلى القلب والعقل شيئا فشيئا تقدير كتب أخرى غيره حتى تمت إزاحته من المرتبة الأولى، وتراجعت قيمته تدريجيا حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

---

١ رواه الطبراني في المعجم الكبير ٩/٢٠ برقم: ١٧٢، وقال الهيثمي: فيه مرثد لم يسمع من معاذ، والوضين بن عطاء وثقه ابن حبان وغيره وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات. وقال البوصيري في إتحاف الخيرة ٩٨/٨ فيه سويد بن عبد العزيز المديني وهو ضعيف.

ولقد حدث هذا أيام الدولة الأموية وازداد بقوة في أيام الدولة العباسية، التي وصل فيها الأمر إلى التشجيع الكبير للترجمة، ورصد المكافآت لكل من يترجم شيئا إلى العربية.

إن هذه المرحلة تُعد من أخطر المراحل التي أثرت بالسلب على قيمة القرآن في قلوب المسلمين، ولعلنا بذلك نُدرك بعض أسباب غضب الصحابة الشديد لكل من يقتني كتابا آخر غير القرآن لعلمهم بخطورة ذلك – على المدى البعيد – على وضع القرآن وقدره في نفوس المسلمين.

خامسا: ظهور آثار البعد عن القرآن على فكر الأمة وثقافتها:

كان من نتاج ما سبق وغيره أن ظهرت آثار البعد عن الانتفاع بالقرآن كمصدر متفرد لتحصيل العلم والإيمان والهداية والشفاء، ومن ذلك:

- تغيير الأوزان النسبية للعلوم.
- نشأة علم الكلام وظهور الفرق.
- نشأة الصوفية وتطورها.
- تغيير مدلولات بعض المفاهيم القرآنية.
- وضع منهجية لتلقي العلوم والترقي فيها.

وإليك أخي القارئ بعض الكلمات الموجزة عن هذه العناصر الخمسة التي نتج عنها بعد ذلك مزيد من ابتعاد القرآن عن مكانه الأصلي، ومزيد من هجره، ومزيد من تخفيف قدره في القلب.

تغيير الأوزان النسبية للعلوم:

القرآن العظيم كتاب هداية يحمل معاني هادية وأحكاماً يلتزم بها المرء في عبادته لربه، والملاحظ في القرآن أن مساحة الحديث عن المعاني الهادية يحتل المساحة الكبرى في القرآن، وفي المقابل فإن الحديث عن الأحكام الشرعية التفصيلية يشكل حوالي عشرة بالمائة من الآيات أو أقل، تأمل قوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ} [النحل: ١١٨] [(١)]

---

(١) تتراوح آيات الأحكام بين الثلاثمئة والثمانمئة آية على نحو ما أحصاه المفسرون، وكذلك فإن الأحاديث والآثار الواردة في الأحكام على أوسع جمع لم تزد عن خمسة آلاف حديث وأثر، من نحو بضعة وأربعين ألف حديث نبوي، وعشرات الآلاف من آثار الصحابة والتابعين. والله أعلم.

فالآية لم تكرر ذكر ما تم تحريمه على الذين هادوا باعتبار أنه ذُكِر من قبل في القرآن، وفي المقابل نجد تكرارا لحقائق بعينها مرات ومرات.

وهذا الأمر له حكمة، فالإنسان يحتاج دوما إلى تذكرة وبيان لما ينبغي أن يفعله أمام مستجدات الحياة وتقلباتها.. يحتاج إلى دوام تذكرة بالله سبحانه وبأسمائه وصفاته وبسننه الحاكمة للحياة، وبالعبودية المستحقة في كل موقف، حيث تتنوع بتنوعه ما بين توكل، وإنابة، وخشية، ورجاء، وفرح، واستبشار، ورهبة، ورغبة، وشكر، وصبر، وتوبة واستغفار، وتعظيم، وتقديس..

ويحتاج دوما إلى تذكُّر حقيقة الدنيا وأنها دار امتحان، وحتمية الموت والبعث والحساب، والميزان،... إلخ.

ويحتاج إلى الحذر من معاصي القلوب والجوارح، كالغرور والكبر والعجب، والرياء، والحسد والبغي، والحقد، وسوء الظن، والتعلق بالدنيا، واقتراف المحرمات..

ويحتاج إلى من يُذكِّره بكيفية التعامل مع الآخرين وحقوقهم عليه..

وغير ذلك من المعاني الهادية اللازمة لاستقامة طريق رحلته وعودته إلى الله سبحانه وتعالى..

وفي خضم احتياجه الدائم إلى هذه المعاني فإنه يحتاج كذلك إلى من يُذكِّره ويُعَلِّمه الأحكام العملية لعبادات الجوارح.. نعم، هو لا يحتاج إلى دوام التذكرة بها، مثل احتياجه للمعاني السابقة؛ لأنه إذا طبقها مرة فلن ينساها بإذن الله.

فالوضوء على سبيل المثال قد تم تناوله من خلال آية أو آيتين، وهذا في تقدير الله عز وجل مساحة كافية مناسبة لهذه العبادة مع ما سيتم شرحه لتفاصيلها في السنة، وكذلك المواريث قد تم تناولها في بضع آيات، ولم يتم تكرارها في أكثر من سورة كالمعاني التي أسلفنا ذكرها..

أما التعرف على الله الواحد أو الرب أو الملك أو الرقيب... فكل واحد منها يتم تناوله من خلال مئات الآيات؛ وذلك لاحتياج المرء الدائم لدوام التذكرة بها.

هذه الأوزان النسبية للمعاني لم تأت عبثا - حاشا لله –بل لعلمه سبحانه بأولويات احتياجات العبد، لذلك نجد في عدة مواضع من القرآن يتكرر قوله تعالى: {**تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**} [الواقعة: ٨٠].

فالرب الذي يربي عباده ويتعاهدهم بما يصلحهم أنزل لهم في القرآن ما يحتاجون إليه في رحلتهم إليه.

وعندما هُجِر الانتفاع بالقرآن، وابتعد قدره وسلطانه في نفوس المسلمين كقيمة علمية وتربوية فذة، تم تغيير الأوزان النسبية للعلوم، وازداد الاهتمام بالأحكام العملية التي سُميت بعد ذلك (بالفقه)، وتم التوسع الشديد فيها وصُنفت الكتب التي تضع قواعده وتشرحها، وتضع لهذه الشروح الحواشي، والمختصرات، والتهذيبات.

وفي المقابل أُهملت المعاني الأخرى الهادية، ولم يتم وضعها في سلم أولويات طالب العلم بالترتيب والحجم الذي هي عليه في القرآن، فأدى هذا إلى مزيد من الابتعاد عن أخلاق القرآن وشموله وأولوياته.

نشأة علم الكلام وظهور الفِرَق:

الله عز وجل {**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**} [الشورى: ١١].

ولقد أتاح لنا في القرآن الكثير من الآيات التي تعرفنا بقدره العظيم، وصفات جلاله وكماله، وأخبرنا بأن علينا الاستدلال عليه من خلال التفكر في أسمائه وآثارها في الحياة، ونهانا عن التفكر في ذاته، واختبر استسلامنا لهذه الحقائق بالآيات التي تتحدث عن ذاته كقوله تعالى: {**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**} [الفتح: ١٠]

وقوله: {**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**} [طه: ٥].

وأخبرنا بأنه ينبغي علينا أن نمر على هذه الآيات نؤمن بها ولا نفكر في كنهها، وسُميت هذه الآيات بالمتشابهات {**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**} [آل عمران: ٧].

فالقرآن يُنشئ ويقوي ويُنمي في قلب صاحبه مهابة الله عز وجل وتقديسه وتنزيهه، ويجعله يمر على الآيات المتشابهة، دون التفكير في كنهها كما أمره ربه جل شأنه.

وعندما ضعفت قيمة القرآن تدريجيا في نفوس المسلمين في القرون الأولى – كما مر علينا – ظهرت بعض الطوائف التي تبحث في القضايا التي سكت عنها القرآن كالقدَر، وذات الله عز وجل، فاستثار ذلك الفعل عقول طوائف أخرى للرد عليها ونفي الشُبه التي أثاروها.

وتطور الأمر شيئا فشيئا، وظهر من يرى أننا مجبرون على أفعالنا، وظهر من يبالغ في تنزيه الله حتى نفى عنه بعض الصفات، وتطور الأمر أكثر حتى تجمع أصحاب كل فكر تحت راية، ونشأت

بذلك الفرق كالمعتزلة، والجبرية، والقدرية، وكان ذلك من أخطر الأمراض التي ابتليت بها الأمة كعقوبة للابتعاد عن القرآن.

واقترب المعتزلة من بعض حكام الدولة العباسية، وأقنعوهم بتبني آرائهم، ومنها أن القرآن مخلوق وليس كلام الله، فرفض الإمام أحمد بن حنبل هذه المقولة، وجاهر برفضه، فتم سجنه وتعذيبه، وعاشت الأمة سنين مظلمة تحت وطأة هذه الفتنة، التي ما كانت لتحدث لو كان القرآن في مكانه الطبيعي.

ظهور الصوفية:

المسلم في حاجة دائمة لإصلاح قلبه وتزكية نفسه، ولا يوجد وسيلة تفعل ذلك مثل القرآن {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ** } [يونس: ٥٧].

فالقرآن يزيد الإيمان ويزكي النفوس دون إفراط ولا تفريط: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا} [الكهف: ١]

القرآن لا يدعو للعزلة وترك الناس، ولا يدعو للحركة فقط بالجسد وتُهْمل النفس، فهو يشكل منهجا تربويا متوازنا متفردا لا يوجد له مثيل ولا بديل لكل من يريد التغيير المتكامل: {**تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**} [فصلت: ٤٢]{**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**؟} [الملك: ١٤]

فنموذج المسلم الرباني المجاهد المتواضع الفاهم لدينه لا يمكن ظهوره بدون القرآن، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم: "رهبانا بالليل، فرسانا بالنهار"، وعندما حدث هجران تدريجي للقرآن الحكيم،احتاج المسلمون في العصور التالية لعصر الصحابة لما يمد قلوبهم بالإيمان ويزكي نفوسهم ويقاوم شهواتهم وبخاصة الخفية من حب الذات والعلو على الآخرين.

وازداد الاحتياج كذلك بعد الفتوحات الكثيرة واتساع رقعة الدولة الإسلامية وما صاحب ذلك من شيوع مظاهر الثراء والترف، مما ولّد عند البعض رد فعل عكسي بالزهد في الدنيا وترك التنعم بها.

من هنا ظهرت فكرة الصوفية بصورة تدريجية والتي رفعت شعار (صفاء القلب).

ظهرت في البداية كفكرة منضبطة بأحكام الشرع، ثم تطورت تدريجيا لتطرح منهجا تربويا للأفراد من خلال الالتزام بأوراد مخصوصة، وخلوات، ورياضات، ووُضعت لها مناهج، وبدأت المخالفات الشرعية تظهر فيها؛ من مغالاة في حب الشيوخ والتعلق بهم، ورفعهم من الأتباع إلى درجة عالية تتنافى في بعض الأحيان مع معاني وآداب العبودية الخالصة لله عز وجل، وغيرها من المخالفات، وكذلك فإن غالب مناهج الصوفية ووسائلها لا تُعطي للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله وتبليغ دعوته مساحة معتبرة كما هو في الشرع..

لقد كان ظهور الصوفية نتيجة متوقعة لهجر القرآن، وذلك لشعور الكثيرين بالاحتياج إلى الاشباع الروحي والإيماني، ولقد تصدرت الصوفية لتملأ هذه المساحة الفارغة لكنها لم تملأها بصورة صحيحة دائما، بل كانت سلبياتها أكثر من إيجابياتها، ومن هذه السلبيات ازدياد الشعور عند أبنائها بعدم الاحتياج للقرآن كمصدر متفرد لتحصيل العلم والإيمان، ويكفيك - أخي القارئ – تأكيدا لهذا المعنى عندما تقرأ قول بعضهم: لو جازت الصلاة بغير القرآن لجازت بحِكَم ابن عطاء الله السكندري.. وإنا لله وإنا إليه راجعون، فهذا قول مردود على صاحبه، ويقف في وجهه ابن عطاء نفسه رحمه الله.

تغيير مدلولات بعض المفاهيم القرآنية:

كان من نتيجة الابتعاد عن القرآن كمصدر متفرد لتحصيل العلم والإيمان أن حدث توجه وانبهار نحو الثقافات الأخرى، ونشأة علم الكلام، وظهور فِرقه، وكذلك التوسع في الشرح والبيان للأحكام العملية التفصيلية أكثر من المعاني الهادية إلى صراط الله المستقيم كما أسلفنا، فأثمر ذلك بمرور الوقت تغيير مدلولات بعض المفاهيم القرآنية وابتعادها في أذهان الكثير عن حقيقتها كالفقه والعلم والتوحيد.

ولقد نبه الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) على هذا الانحراف، فكان مما قاله (مختصرا):

اللفظ الأول: الفقه

لقد كان اسم الفقه في العصر الأول يطلق على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، ويدلك عليه قوله عز وجل: {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: ١٢٢]، فما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه، دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة[١]،فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يُقسي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له، ولعمري إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد، قال تعالى: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [الحشر: ١٣]، فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الخلق على قلة الفقه.

---

[١] ليس معنى ذلك هو إهمال هذه المسائل؛ بل المقصد هو وضعها في مكانها المناسب في ترتيب الأولويات في الدين، واقتصارها على المتخصصين.

وسُئل سعد بن إبراهيم الزهري رحمه الله: أي أهل المدينة أفقه؟ فقال: أتقاهم لله تعالى، وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قوله ليزيد الرقاشي وزياد النميري: لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه، يقص أحدكم وعظه على أصحابه، ويسرد الحديث سردا، إنما كنا نقعد فنذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه في الدين، ونعُد نعم الله علينا تفقها.

فسمى تدبر القرآن وعدّ النعم تفقها.

اللفظ الثاني: العلم

وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، فتغير حتى صار يُطلق على من يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها، فيقال: هو العالم على الحقيقة، وهو الفحل في العلم، ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يُعد من جملة الضعفاء، ولا يعدونه في زمرة أهل العلم.. مع أن ما ورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العلماء بالله تعالى، وبأحكامه، وبأفعاله وصفاته.

اللفظ الثالث: التوحيد

جوهر التوحيد أن تُرى الأمور كلها من الله، فيثمر ذلك: الرضا، والتوكل.. فنأخذ بالأسباب ونتوكل على الله في إنجاحها، ونرضى بالنتيجة، كما كان حاله صلى الله عليه وسلم: يأخذ بالأسباب على أعلى مستوى في التخطيط والتنفيذ كمافي رحلة الهجرة ومع كل هذه الدقة والإتقان كان التوكل التام على رب الأسباب: "**ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟**"

لكن هذا اللفظ العظيم (التوحيد) أصبح بعد ذلك متعلقا بعلم الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم، مع أن جميع ما يخص هذه الصناعة لم يكن يُعرف منها شيء في العصر الأول، بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح بابا من الجدل والمماراة، فلقد كان العلم بالقرآن هو العلم كله، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التِفَاتهُ وتعلقه بالأسباب والوسائط.

... ومما استدرجت به الأمة:

وضع منهجية لتلقي العلوم والترقي فيها:

حدث في أواخر عهد الدولة الأموية البدء في كتابة السنة وتدوينها، وهذا أمر طيب وضروري، ولكن كان ذلك على حساب القرآن بسبب الاندفاع الشديد الذي صاحب هذا الأمر،لدرجة أن

الإمام شعبة بن الحجاج كان يقول: اعلموا يا قوم أنكم كلما تقدمتم في الحديث تأخرتم من القرآن[1].

وبدأت تتفرع العلوم ويوضع لها أصول وقواعد، ويظهر لها شيوخ وتلاميذ، واستتبع ذلك وضع منهجية لتلقي العلوم، جعلوا في بدايتها حفظ ألفاظ القرآن، فصار لزاما على طالب العلم أن ينشط في حفظ ألفاظ القرآن في أسرع وقت حتى يتمكن من الترقي في طلب العلم، فنتج عن هذا كله مزيد من تأخير وتقليل قدر القرآن في النفوس.

ومما استدرجت به الأمة كذلك:

كثرة التصانيف في فضائل القرآن، وتضمينها أخبارا لا تصح.

مما أسهم بصورة سلبية على تعامل المسلمين مع القرآن قيام العلماء القدماء بكتابة كتب في فضائل القرآن، وتضمينها أخبارا كثيرة عن تعامل بعض السلف مع القرآن بطريقة تتعارض مع ما قطعت به نصوص كثيرة في القرآن والسنة، بضرورة تدبر القرآن والترسل في قراءته، فشكلت هذه الآثار متكأ يحتج بها الكثير من المسلمين في الإسراع في قراءة القرآن بفهم وبدون فهم، والإسراع كذلك في حفظ ألفاظه دون التفقه فيه والعمل به.

ومما تضمنته هذه الكتب، والتي – للأسف – صنفها علماء مشهود لهم بالصلاح كابن كثير والنووي، قولهم بأن الإمام الشافعي كان يختم القرآن ستين ختمة في رمضان!! وأن فلانا من السلف كان يختم كل يوم ختمة بين الظهر والعصر، وأخرى بين المغرب والعشاء!! وأن فلانا كان يختم كل ليلة أربع ختمات!!.. بل نقل بعضهم أكثر من ذلك كمن كان يختم في الطواف عدة ختمات!! وأن الإمام أحمد بن حنبل رأى رب العزة في المنام فقال له الله تعالى: اقرأ القرآن بفهم وبدون فهم!! وغير ذلك من الأخبار التي لا تصح سندا، وإن صحت فهي لا تُلزمنا لمخالفتها لمقاصد نزول القرآن، ونصوصه القاطعة بضرورة تدبره والترسل في قراءته للانتفاع الحقيقي به، ويؤكده ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، والفصل في هذا القول هو تطبيق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أمرنا بالاقتداء به ولا حجة لأحد يخالفه.

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: كان صلى الله عليه وسلم لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث. [2]

ومما يدعو للأسف أنك قلما تتصفح كتابا قد صُنِّف في فضائل القرآن لا تجد فيه مثل هذه الأخبار، وكأنهم كانوا يجمعون في كتبهم كل ما قيل من آثار دون تمحيص لها، فأدى ذلك إلى وجود

---

[1] حلية الأولياء لأبي نعيم ٧/ ١٤٥.

[2] رواه ابن سعد في الطبقات ٣٧٦/١ بإسناد فيه ضعف، وحسنه الألباني في الصحيحة بشواهده برقم: ٢٤٦٦.

مبررات لدى الكثيرين للإسراع في قراءة القرآن لتحصيل الأجر والثواب فقط، وكذلك الإسراع في حفظ ألفاظه دون التفقه فيه والعمل به، وكانت تلك الآثار المخالفة للثوابت حُجتهم في ذلك.

مرحلة الاستشراق والغزو الفكري

بعد فشل الحملات الصليبية على العالم الإسلامي، وبعد فتح القسطنطينية، وإقامة الخلافة العثمانية؛ حدث زلزال في أوربا فعقدوا المؤتمرات الطويلة التي تبحث عن كيفية وقف الزحف الإسلامي، وإسقاط دولة الإسلام، وكان من نتائج هذه المؤتمرات ضرورة دراسة الإسلام جيدا حتى يتم التعرف على مكامن القوة فيه، فأرسلوا مئات بل آلاف الرجال إلى بلاد الإسلام في زي التجار وطلبة العلم، واختلطوا بالمسلمين، ونقلوا كل ما يمكن نقله من الكتب إلى أوربا، حيث تم العكوف عليها ودراستها، وخلصوا إلى نتائج خطيرة نتج عنها الحملة الفرنسية والإنجليزية وكذلك حملات التنصير، وأخطرها كان الغزو الفكري للأمة الذي يهدف إلى احتلال عقول أبنائها، واستبدال مفاهيم الإسلام بمفاهيم أخرى، وكان للقرآن النصيب الأكبر في هذا الغزو.

وفي هذا المعنى يقول سيد قطب رحمه الله وهو يتحدث في (ظلال القرآن) عما يحول بين المسلمين وبين الانتفاع بالقرآن:

كما يحول بينهم وبين هذا القرآن كيد أربعة عشر قرنا من الحقد اليهودي والصليبي؛ الذي لم يكُف لحظة واحدة عن حرب هذا الدين وكتابه القويم، وعن محاولة إلهاء أهله عنه، وإبعادهم عن توجيهه المباشر. بعدما علم اليهود والنصارى من تجاربهم الطويلة: ألا طاقة لهم بأهل هذا الدين ما ظلوا عاكفين على هذا الكتاب عكوف الجيل الأول لا عكوف التغني بآياته وحياتهم كلها بعيدة عن توجيهاته!.. هو كيد مطرد مصرٌّ لئيم خبيث.. ثمرته النهائية هذه الأوضاع التي يعيش فيها المسلمون[1].

ومما يؤكد هذا الأمر قراءة بعض أقوالهم حول قيمة القرآن وضرورة إبعاد المسلمين عن الانتفاع به، كقول جلادستون: ما دام هذا القرآن موجوداً، فلن تستطيع أوربة السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان.. فقام رجل ومزق المصحف، فقال جلادستون: ما أردت تمزيق أوراقه.. إنما أردت تمزيق آياته من صدور المسلمين[2].

ثامنا: أخطاء في العصر الحديث

---

[1] في ظلال القرآن ١٤٢١/٣.

٢ قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله - لجلال العالم ص: ٣١

وقد سبق ذكرها في الاهتمام بالشكل دون الجوهر، وتحقيق مكاسب مادية من وراء حفظ القرآن كله أو بعضه، دون ربط ذلك بالالتزام بأوامره، والتوسع في استخدام الآلات الحديثة في بث آيات القرآن بالليل والنهار دون الإنصات لها.

وكذلك فإن ترك الكثير من المسلمين العمل من أجل نصرة الدين وإقامته في الأرض وما استتبع ذلك من ترك الجهاد في سبيل الله، لمن أهم الأسباب التي جلبت علينا الحرمان من فهم القرآن والاهتداء بهديه والاستشفاء بشفائه بإذن الله.

الفصل السابع

من أين نبدأ؟

الفصل السابع

من أين نبدأ؟

أخي المسلم.. أختي المسلمة:

إننا في مصيبة.. كارثة.. لقد حُجِبت عنا روح القرآن وأثره المعجز، وفُتحت علينا ألفاظه.. حُجبت روحه وأثره فصرنا لا نقدر على تحصيل شيء منه.. لا نقدر على تحصيل الخشوع والإيمان والشفاء والتغيير.

وفي الوقت ذاته لا ندرك أننا محرومون، فالحجاب الذي حُجبت به روح القرآن: "**حجابا مستورا**".

ولعل من المناسب في هذا المقام أن نتذكر مثال القوم الذين ركبوا سفينة فتحطمت، وألقى بهم الموج على جزيرة بعيدة، فما لبثوا أن نفد الطعام منهم، وبدأوا في أكل ورق الشجر، وشيئا فشيئا طال بهم المقام على هذه الجزيرة حتى نشأ فيهم جيل لا يعرف طعاما غير ورق الشجر... فمهما حدثهم آباؤهم الذين كانوا على السفينة عن ألوان الطعام التي يأكلها الناس خارج الجزيرة لا يشعرون بالخسارة والفقد؛ إذ لم يكن لديهم أي صورة ذهنية عما يتحدث عنه الآباء، ولا يتخيلون طعاما آخر غير ورق الشجر.

استقرار الصورة الذهنية عن القرآن:

وعلى هذا فقس حالنا مع القرآن، فبمرور الزمن وتعاقب الأجيال، استقر أمر القرآن في الأذهان على ما هو حادث الآن: ألفاظ نتفنن في خدمتها من خلال الاجتهاد في نطقها على أحسن ما يكون، والإكثار من قراءتها دون ربطها بالمعنى، وحفظها دون العمل بها، وقمنا بإسقاط كل ما ورد عن فضائل القرآن على أفعالنا معه، فنتج عن ذلك عدم شعورنا بالاحتياج إلى القرآن، وانطبق حالنا إلى حد كبير مع قول عبد الله بن مسعود:

كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير، وتُتخذ سُنة مبتدعة يجري عليها الناس، فإذا غُيِّر منها شيء قيل: قد غُيِّرت السُّنة، قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثُر قراؤكم، وقلّ فقهاؤكم، وكثُر أُمراؤكم، وقلّ أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّه لغير الدين[١].

وماذا بعد؟

---

١ سبق تخريجه ص: ١٣١.

والآن، وبعد هذه الرحلة التي سرنا فيها سويا مع صفحات هذا الكتاب، هل سيستمر تعاملنا مع القرآن على ما كان عليه أم سيتغير؟!

.. ألم يأن لنا أن نشمر عن سواعد الجد، ونعزم على خوض غمار رحلة العودة الحقيقية للقرآن، وإزاحة الحجاب المستور بيننا وبينه؟!

أصدقك القول – أخي القارئ – بأنني أشعر بتفاؤل وأمل بأن هناك من المسلمين من سيفعل ذلك، لأن الله عز وجل قد وعد بإتمام نوره {**وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ**} [الصف: ٨]، {**وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ**} [التوبة: ٣٢].

وكيف يكون ذلك بدون عودة روح القرآن وأثره إلى قلوب الجيل الذي سيستعمله الله في إتمام نوره؟!

هذه واحدة، والثانية أن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى تنبأ بالمراحل التي تمر بها الأمة الإسلامية والتي تبدأ بالنبوة، ثم الخلافة الراشدة، ثم الملك العضوض، ثم الملك الجبري، ثم الخلافة على منهاج النبوة.. يقول صلى الله عليه وسلم:

"**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكا عاضّا ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون مُلكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة. ثم سكت**"[١].

..هذه المرحلة لا يمكن لها أن تظهر للوجود إلا إذا عادت روح القرآن إلى القلوب، لأن منهاج النبوة يعني السير على منهج النبوة من حيث التطبيق الكامل والشامل للإسلام في كل مناحي الحياة، ومن حيث صفات أفراد هذا الجيل، ومن حيث طبيعة المنهج الذي يلتفون حوله، والذي لم يكن في عهد النبوة سوى القرآن.

إن الناظر المتفحص لتاريخ الإسلام يجد أن الفترة المضيئة المتفردة، والتي حدثت فيها شبه مطابقة بين المنهج النظري وتطبيقه الواقعي هي فترة النبوة والخلافة الراشدة، حيث كان القرآن هو المصدر الأساس والمتفرد للتوجيه والتربية، وعندما حدث انحراف – والذي بدأ طفيفا – في التعامل معه؛ حدثت الفجوة بين المنهج النظري وتطبيقه في الواقع، ثم اتسعت تلك الفجوة شيئا فشيئا بعد أن زاد انحراف الأمة في التعامل الصحيح مع القرآن حتى وصلنا لما نحن عليه الآن.

---

[١] سبق تخريجه ص: ٢٨.

ومع هذا كله نرى تلك النبوءة النبوية تقترب من التحقيق – بإذن الله – في هذا الزمان، وتحقيقها يستدعي عودة روح القرآن وأثره إلى القلوب ليظهر الجيل القرآني الذي يسير على منهج النبوة فيحقق الله به: خلافة على منهاج النبوة..

فلماذا لا نكون نحن – أنا وأنت أخي القارئ – من هؤلاء؟!

..نعم، سيحتاج الأمر إلى مجهود كبير، وتضحيات عظيمة، ولكن الجائزة التي وعد الله بها كبيرة كبيرة!

الخطوات العشر اللازمة لرحلة العودة:

فإن عزمت أخي القارئ على خوض رحلة العودة إلى القرآن وإزاحة الحجاب المستور الذي يحول بيننا وبين روحه وأثره؛ فاعلم أن علينا القيام بعدة أعمال مجتمعة، أسردها لك بإجمال ثم تفصيل يسير لكل منها بعون الله:

أولا: إذكاء الشعور بالخطر والمسؤولية التضامنية تجاه ما فعله المسلمون مع القرآن.

ثانيا: التوبة الصادقة المنطلقة من الشعور بالندم تجاه ما فعلناه من أخطاء مع القرآن.

ثالثا: الإقلاع عن كل الممارسات الخاطئة تجاه القرآن.

رابعا: التضرع المتواصل لله عز وجل بأن يعيد إلينا روح القرآن وأثره.

خامسا: حسم أمر الأسئلة والشبهات التي تُضعف العزم نحو العودة الحقيقية إلى القرآن.

سادسا: التحضير الجيد للقاء مع القرآن.

سابعا: طول المكث مع القرآن.

ثامنا: العمل على زيادة الثقة بالقرآن.

تاسعا: عقد مجالس للمدارسات القرآنية، واستخلاص التكاليف العملية بعد كل مجلس.

عاشرا: الدعوة إلى الانتفاع بالقرآن.

أولا: إذكاء الشعور بالخطر والمسؤولية التضامنية تجاه ما فعله المسلمون مع القرآن.

أول وأهم خطوة ينبغي أن نخطوها في رحلة العودة واستجلاب روح القرآن المحجوبة عن قلوبنا: هي إذكاء الشعور الشديد بالخطر تجاه تقصيرنا في حق القرآن، والجرائم التي ارتكبناها معه، وكيف لا والشعور بالخطر هو وقود العزائم؟

ولعل قراءة ما قيل في الصفحات الماضيةيستثير هذا الشعور؛ ومع أهمية ذلك إلا أنه لا يكفي للوصول لحالة التشمير اللازمة لخوض رحلة العودة، لذلك نحتاج - مع هذه القراءة – إلى أن نجلس مع أنفسنا جلسات طويلة نحصر فيها جميع الممارسات الخاطئة مع القرآن على مستوانا الفردي والأُسري والمجتمعي، ونقوم بتدوين ذلك، وعلينا أن نجتهد ونحن نمارس هذا الإحصاء في استحضار قدر القرآن العظيم عند الله عز وجل، وأنه سبحانه اختص به أمة الإسلام، ونستحضر كذلك الوعيد المذكور في القرآن والسنة لمن أعرض وغفل عنه، ولم ينتفع به فيما نزل من أجله..

وعلينا كذلك أن نذكر أنفسنا بما قيل في الصفحات السابقة عن أخطائنا مع القرآن، ثم نجتهد في إسقاطها على واقعنا، فنكتب بالتفصيل الشديد وبأقلامنا ما نقع فيه من أخطاء؛ سواء كانت تلك الأخطاء مما يقع فيه الواحد منا، أو تقع من أي فرد من أفراد الأمة، باعتبار أن الله عز وجل ينظر إلينا كأمة واحدة وجسد واحد[١].

---

[١] إليك أخي القارئ مثالا مفصلا لهذه الممارسات، لك – إن شئت – أن تحتذي به، ثم تقوم باستكمال ما لم يُذكر فيه:

١. القراءة في الأسواق.
٢. القراءة في أماكن اللغو ووسائل المواصلات المزدحمة.
٣. كتابة آيات على الحوانيت تربط بينها وبين نشاط الحانوت.
٤. النوم على صوت قارئ القرآن دون إنصات.
٥. تركه يبث من الراديو ليخاطب جدران المنزل أو السيارة.
٦. القراءة والشخص مرهق ويغلبه النعاس.
٧. القراءة بلا ترتيل.
٨. الخلط بين القراءات.
٩. التنطع في التجويد.
١٠. كتابة الآيات على الحوائط والأسوار.
١١. وصل الآيات ببعضها وعدم الالتزام بالسنة في الوقوف علي رأس الآية.
١٢. الحفظ السريع دون فهم.
١٣. المراجعة السريعة دون فهم.
١٤. عمل مسابقات في المتشابهات.
١٥. ضرب الأولاد علي عدم حفظه ومن ثم يكرهون القرآن.
١٦. عمل معسكرات للحفظ السريع لألفاظ القرآن دون فهم أو تطبيق.
١٧. تصغير المصحف جدا.

ثانيا: التوبة الصادقة إلى الله، المنطلقة من الشعور بالندم تجاه أخطائنا مع القرآن.

علينا أن نجتهد بغاية وسعنا في التوبة إلى الله عز وجل عما فعلناه مع القرآن من امتهان وعدم تقدير، وأن نداوم على الاعتذار له سبحانه عن أنفسنا أولا وعن الأمة ثانيا، وأن نبالغ في إظهار ذلك، شريطة أن يكون منطلقا من حالة شعورية يسيطر عليها الندم والحياء من الله عز وجل..

ومع أهمية التوبة الفردية، إلا أن التوبة الجماعية لها دور عظيم كذلك في رفع العذاب وتجنب غضب الله عز وجل كما حدث مع قوم يونس[1].

فإن قلت: ولكني قد لا أشعر بالندم الذي تتحدث عنه والذي من شأنه أن يستبد بالقلب ويهيمن عليه، فماذا أفعل؟!

اعلم أخي بأن أهم شرط للتوبة هو الندم الشديد، وكلما استبد الندم بالقلب واعتصره كان الرجاء في قبول الله عز وجل للتوبة أشد، ومن أهم الوسائل التي تستثير الندم نحو ما فعلناه مع القرآن: الاجتهاد في إحصاء الأخطاء التي وقعنا فيها على المستوى الفردي والمجتمعي.

.. نعم، الأخطاء كثيرة كثيرة، فما من لحظة تمر إلا والممارسات الخاطئة مع القرآن تتزايد وتتزايد من امتهان واستهزاء وغفلة وعدم هيبة أو تقدير في شتى بقاع الأرض، ولكن علينا الاجتهاد في إحصائها ليشتد ندمنا وشعورنا بالخطر.

ثالثاً: الإقلاع عن كل الممارسات الخاطئة مع القرآن على المستوى الفردي والجماعي:

علينا أن نحدد مما سبق إحصاؤه من الممارسات الخاطئة ما نقع فيه نحن كأفراد، ونعزم على الإقلاع عنها، ونستعين بالله على ذلك، ونبدأ بالتطبيق الفوري لهذا العزم.

---

١٨. طباعة ملابس عليها آيات قرآنية.
١٩. وضع المصحف بالسيارة دون القراءة فيه.
٢٠. تشغيل القرآن في الفضائيات على خلفية مواد إعلانية غير منضبطة.
٢١. إيذاء الناس ببث آياته من الآلات الحديثة بصوت عال.
٢٢. إدخال الآيات القرآنية في الأغاني والقصائد الشعرية.
٢٣. بداية الأفراح والمناسبات بالقرآن ثم الأغاني الهابطة.
٢٤. استخدامه مادة للهزار والمزاح.

١ قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى (٣٩٣/٢): {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس: ٩٨].

قال قتادة: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم وظنّوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، وعجوا إلى الله أربعين ليلة، فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم؛ كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم.

مع ضرورة التنبيه بأن علينا تنفيذ هذه الخطوة على أنفسنا، ومن لنا عليه سلطان فقط، كالزوجة والأبناء، ولا نقوم بها مع الآخرين ولو كانوا الأبوين أو الأشقاء..

لا ينبغي عليك أخي القارئ أن تُزيل وتنزع اللوحات التي تحمل آيات قرآنية من بيت أبويك أو أقاربك أو ..، ولا ينبغي عليك أن تفعل ذلك مع بقية الممارسات الخاطئة، بل عليك - إذا ما سنحت الفرصة - أن توضح لهم الأمر بهدوء وحكمة، فإن قبلوا أن يقوموا هم بذلك فبها ونعمت، وإن لم يقبلوا فقد أعذرت إلى الله، وتذكر قوله تعالى: {كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ} [النساء: ٩٤].

وليس معنى عدم قيامك بوقف الممارسات الخاطئة مع من ليس لك عليه سلطان ألّا تُنكر ذلك بقلبك!! بل عليك أن تُري الله من قلبك إنكارا وضيقا لهذه الأفعال، لعل ذلك يكون سببا في استجلاب رحمته، وفتح القلوب لروح القرآن وتأثيره.

ماذا نفعل مع الكتب؟!

كما قيل سابقا؛ فإننا نريد أن نُعيد للقرآن بريقه وقدره في قلوبنا، وأن نجعله – بعون الله – يحتل المرتبة الأولى في الاهتمام والتقدير بين الكتب الأخرى، وعلامة النجاح في تحقيق هذا الهدف هو التوجه التلقائي للعقول والقلوب إلى القرآن عند إرادة البحث في أي موضوع يتعلق تعلقا مباشرا بمعاني الإسلام، وأن يكون التوجه للكتب تابعا لذلك إن كانت هناك حاجة كإزالة التباس أو التعرف على فهم الآخرين، أو التوسع في التعرف على الموضوع.

ومن المعلوم أن هذا الأمر لن يحدث بين عشية وضحاها، بل سيحتاج إلى وقت ومجهود.. فإلى أن يحدث ذلك بصورة تلقائية علينا أن نُلزم أنفسنا به، فعلى سبيل المثال: عند إرادة التعرف على معنى من المعاني كالصدق أو الجهاد أو الإنفاق أو حقيقة العبودية لله أو التقوى أو التوكل أو الإخلاص أو خطورة الغرور والكبر ،... إلخ. علينا أن نتوجه للقرآن فنبحث فيه ونستخرج منه الآيات التي تتحدث عن المعنى المطلوب، وذلك من خلال تخصيص ختمة كاملة لذلك، أو الجلوس مع الأصدقاء وطرح الموضوع عليهم والتفكير الجماعي فيه، وتسجيل الآيات التي يستخرجونها، أو من خلال البحث عن الكلمات التي تخدم المعنى في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن واستخراج الآيات من خلاله، وبعد ذلك نقوم بوضع العناصر المناسبة للموضوع من خلال الآيات، وشرح تلك العناصر بالآيات كذلك، وكلما تفكرنا أكثر في الآيات فإننا بعون الله سنجد الكثير والكثير.

وبعد أن ننتهي من استخراج الآيات التي تخدم المعنى وتشرحه من القرآن، يمكننا الانتقال للسنة واستخراج الأحاديث الدالة على المعنى وإلحاقها بالآيات في مواضعها.

فإذا شعرنا أن الموضوع لم يكتمل بعد، وأنه بحاجة إلى بعض المكملات فلا بأس من النظر في الكتابات التي تتحدث عنه.

فإن قلت: ولكن هناك مواضيع من الصعب الحصول عليها من القرآن كالأحكام الشرعية، والمعاملات المعاصرة.

بخصوص الأحكام الشرعية فإنها لا تُشكل أكثر من عُشر آيات القرآن، وعلينا أن نتعامل معها بحذر شديد، وألا نستخرج منها أحكاماً نطبقها في حياتنا دون الرجوع إلى العلماء والفقهاء في ذلك، فهذه منطقة محظورة – إن جاز التعبير – على العوام من أمثالنا، ولا مانع من التعرف على المعاني التي تحملها والتفكر في جوانبها الإيمانية والتربوية.

وبخصوص المعاملات المعاصرة فإنه ينطبق عليها ما ينطبق على الأحكام الفقهية.

مع الأخذ في الاعتبار أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

ماذا نفعل مع المقرر من الحفظ في المدارس والكليات الدينية؟

هذه المسألة من أخطر المسائل في أمر التعامل مع القرآن، ووقف الممارسات الخاطئة معه؛ لأن هذا الأمر ليس باختيار الأفراد، فالقدر المقرر حفظه على طلبة المدارس والكليات الدينية كبير للدرجة التي يصعب معها حفظ الألفاظ والتعرف على معانيها، والعمل مدة من الزمن بمقتضاها.. فما الحل في هذه الإشكالية؟

الحل المثالي أن ينتبه القائمون على هذه المدارس بخطورة إلزام الطلاب بحفظ كم كبير من الآيات في مدة قصيرة، لأن ذلك من شأنه أن يرسم القرآن في أذهانهم ألفاظا بلا معنى ولا دلالة، وأنه كذلك يستدعي العقوبة الإلهية بمزيد من الحرمان من القرآن.

وإلى أن يحدث ذلك؛ فالواجب يُحتم علينا أن نفكر في كيفية التعامل مع هذا الأمر، وأن نجتهد في الإلحاح على الله بأن يلهمنا الرشد والصواب والسداد في الخروج الصحيح من هذه الأزمة.

ويمكن تقسيم هذه المدارس إلى قسمين.

فهناك قسم من المدارس والكليات يُلزم الطلاب بحفظ جزء أو جزءين من أجزاء القرآن الثلاثين على مدار العام.. هذا الكم يمكن تقسيمه على أسابيع العام، وأن يكون نصيب الأسبوع عدة آيات (من خمس إلى عشر آيات) ويتم قراءتها بتأن، والبحث عن معانيها وما تدل عليه من عمل، والاجتهاد في القيام به قدر المستطاع طيلة الأسبوع قبل الانتقال إلى الآيات الأُخر.

وعلى الأب والأم أن يتولى هذا الأمر بنفسه، أو يُحضر من وضحت لديه الرؤية حول حقيقة القرآن فيقوم بذلك مع الأبناء.

أما القسم الثاني الذي يتم فيه إلزام الطلاب بعدة أجزاء في السنة الواحدة، فلا أدري ماذا نفعل معه!!!

هل يقوم الطالب بحفظ ما يستطيع حفظه بالطريقة الصحيحة السابقة ويترك الباقي؟! لا أدري!!

ماذا نفعل بأنفسنا؟!

أما بخصوص عموم المسلمين فمن الضروري أن يكون في جوف الواحد منا بعض سور القرآن للصلاة والدعوة بها، وقراءتها عند الحاجة في الأماكن التي لا تتوافر فيها مصاحف.

ويُنصح بالبدء بسور الجزء الأخير من القرآن، وأن يكون ذلك مرتبطا بالمعاني الإيمانية والقيام بالأعمال التي تدل عليها السورة.

وبفضل الله عز وجل وكرمه وتيسيره قامت (مؤسسة الصحابي عقبة بن عامر) في مصر بالبدء في مشروع التحفيظ التربوي تحت شعار: "**معًا نتربى بالقرآن**"، وتتبنى فيه طريقة الصحابة في الحفظ قدر المستطاع، والله المستعان، وسيكون إنتاجها في هذا المضمار متاحا من خلال الموقع الإلكتروني قريبا بمشيئة الله[1].

رابعاً: دوام التضرع إلى الله عزوجل بأن يعيد لقلوبنا روح القرآن وأثره.

أخي:

إن الواقع المشاهد الذي نحياه يخبرنا بأن الله عز وجل قد غضب لكتابه، فحجب روحه وتأثيره عن قلوبنا، لذلك علينا مع التوبة وبعدها أن نلح عليه سبحانه ونناشده، ونتضرع إليه كي يزيل هذا الحجاب المستور الذي يحول بين قلوبنا وبين روح القرآن.

والتضرع حالة تنتفض فيها الأعضاء نتيجة التفاعل الشديد للمشاعر مع الدعاء، فعلينا – إذن- أن نتضرع ونتضرع إلى الله في كل الأوقات، وبخاصة في الثلث الأخير من الليل وفي السجود وبين الأذان والإقامة ويوم الجمعة،... إلخ.

وعلى قدر شعورنا بالاحتياج لروح القرآن ستكون قوة التضرع بإذن الله ..

---

[1] الموقع الخاص بمؤسسة الصحابي عقبة بن عامر : www.snaabel.com

خامسا: حسم أمر الأسئلة والشبهات التي تُثار حول القرآن، والتي من شأنها أن تُضعف العزم نحو السير في طريق عودة روحه وأثره إلى القلوب.

إن ابتعاد الأمة عن القرآن لم يكن وليد هذا العصر، ولكن كان ذلك نتاج قرون خلت، ولقد ورثنا أعرافا، وتعاملات، وأفكارا عن القرآن تحتاج إلى تصحيح ومراجعة وضبط، ولو تركناها دون حسم في نفوسنا فإنها قد تُضعف عزم البعض عندما يتعرض لها من بعض المجادلين له.

ولقد تضمنت صفحات هذا الكتاب الرد على بعض هذه الأمور، ولكن هناك مسائل كثيرة لم يتم الرد عليها، وتحتاج إلى حسم ووضوح رؤية، حتى لا يُفاجأ بها أحدنا وهو في رحلة العودة فتُضعف عزمه، وتُوهن إرادته في المُضي قُدما للأمام..

وإليك أخي القارئ بعضا من هذه التساؤلات والشبهات..

١. كيف تقرأ القرآن وأنت لا تعرف قواعد اللغة العربية ولا أساليبها؟!

٢. تدبر القرآن خاص بالعلماء فقط.

٣. من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار؛ فإياك أن تستخرج خواطر من القرآن.

٤. لا تقترب من القرآن لأن قلبك مليء بالأمراض.

٥. لماذا لا نفعل مثل السلف فنخصص قراءتين للقرآن: قراءة سريعة للثواب، وقراءة هادئة للتدبر؟!

٦. أريد أن أدخل الجنة.. أريد أكبر قدر من الحسنات، فلماذا لا أُكثر من قراءة القرآن بدون تدبر.

٧. ورد أن الشافعي كان يختم في رمضان ستين ختمة، فلماذا لا نفعل مثله؟

٨. تعليم أحكام القرآن هو أفضل عمل، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"[١].

٩. لماذا يتأثر الأعاجم بالقرآن وهم لا يفهمونه؟!

١٠. الحافظ للقرآن يُقدم للإمامة وغيرها، فلماذا لا نحرص على الحفظ؟

١١. لماذا لا نُحفِّظ أولادنا القرآن ألفاظا فقط ثم نعلمهم معانيه عندما يكبرون؟!

---

[١] أخرجه البخاري ٢٠٢٧.

١٢. أجد وجوه الحُفّاظ سَمْحة، يكسوها النور، وفي حياتهم بركة، وهم قدبدءوا بحفظه ألفاظا فقط، أليس هذا دليلا على أهمية الحفظ؟!..

١٣. أضطر للقراءة السريعة والمراجعة خوفا من التعرض لعقوبة النسيان.

١٤. هل القراءة في شهر رمضان مستثناة من التدبر؟ فرمضان موسم لمضاعفة الحسنات.

١٥. أضطر للقراءة السريعة في نهاية الشهر كي أستطيع ختم القرآن مع انتهاء الشهر.

١٦. الخوف من التلقي المباشر من القرآن..

١٧. يوم القيامة يكون التفاضل، والترقي في الجنة بمقدار الحفظ.

وغير ذلك من الأسئلة التي قد ترد للبعض، أو يواجهه بها غيره فتزعزع ثقته فيما قيل، لذلك عليك أخي القارئ أن تقرأ صفحات هذا الكتاب أكثر من مرة، فهي بإذن الله قد تكون كفيلة بالرد على هذه التساؤلات؛ لأننا نحسب أنها تطرح الموضوع من أصله، وعليك بالعودة إلى بعض الكتب التي أكرمنا الله بكتابتها في العلاقة مع القرآن والتعامل معه والانتفاع به، فستجد فيها – بإذن الله – الرد على غالبية هذه الأسئلة، ومن هذه الكتب: "**العودة إلى القرآن؛ لماذا وكيف؟**"، "**إنه القرآن سر نهضتنا**"، "**تحقيق الوصال بين القلب والقرآن**"[١]..

سادسا: التحضير الجيد للقاء مع القرآن:

علينا أن نستعد جيدا للقاء مع القرآن،وذلك بأن نتخير أفضل أوقات اليوم جاهزية من حيث سكون النفس، وعدم الشعور بالإجهاد، وعدم تشتت الذهن..

وعلينا باختيار وتجهيز مكان هادئ لهذا اللقاء، وأن نذهب إليه ونحن على وضوء، ونقوم بغلق الهاتف المحمول..

وعلينا أن نتصدق ولو بالقليل قبل بدء اللقاء.

وحبذا لو قرأنا بعض الآيات أو الأحاديث أو الكلمات التي تتحدث عن قدر القرآن وعظمته وحكمته الباهرة وتأثيره الفذ..

وقبل الشروع في القراءة علينا أن نتضرع إلى الله بأن يزيل الحجاب بين روح القرآن وقلوبنا، وأن يسمح لأنواره أن تغزو كياننا، وأن يفهمنا ويعلمنا من خلال القرآن ما لم نكن نعلم.

---

[١] هذه الكتب متوافرة – بفضل الله – على الموقع الإلكتروني: **www.alemanawalan.com**

.. ومن صور الإعداد الجيد للقاء القرآني كذلك: تجهيز أسئلة مُسبقة..

ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: {**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ**} [يوسف: ٧].

فالسائلون عن سنن الله في الدعوات، وعن طبيعة الطريق، وعن أساليب الشيطان، وعن فقه الدعوة، وعن الصبر، وعن الربانية، وغير ذلك، سيجد إجابات لأسئلته في قصة يوسف عليه السلام وإخوته.

ولعل هذا الأمر سيكون سهلا – بإذن الله – وغير متكلف بعد أن نُلزم أنفسنا بالتوجه نحو القرآن أولا قبل الكتب عند إرادة البحث عن موضوع (ما)، فهذه الطريقة ستجعل أذهاننا تفكر دوما في آيات القرآن ومواضع الإجابة عن الأسئلة فيها، مع الأخذ في الاعتبار أن تكون الأسئلة في العلم النافع الذي ينفعنا في رحلتنا إلى الله عز وجل، كما يقول ابن تيمية: من تدبر القرآن طالبا الهدى منه تبين له الحق[١].

وأنفع أسئلة تلك التي يشعر المرء باحتياجه إليها، سواء كان ذلك في حقائق الإيمان، أو تزكية النفس، أو في الحركة والجهاد في سبيل الله، أو غير ذلك.

سابعا: طول المكث مع القرآن:

علينا بعد أن أكرمنا الله عز وجل بالإعداد الجيد للقاء القرآني أن نُعد أنفسنا لطول المُكث مع القرآن.

وأن نتوضأ ونستاك.

ونستعيذ بالله من الشيطان.

وأن نقرأ من المصحف، وبترتيل وصوت مسموع.

وأن نقرأه بحزن قدر المستطاع.

وأن نجتهد في إشعار أنفسنا بأن الله عز وجل يخاطبنا من خلال القرآن.

وأن نُعمل عقولنا فيفهم الآيات –ولو بصورة إجمالية– وأن نتدبرها.

ونقوم بالأعمال التي يُمكن أن تُؤدى في هذا الوقت، فعندما نجد الآيات تتحدث عن عظمة الله وقدرته وعلمه؛ فعلينا استشعار ذلك وترجمته بالتسبيح، وعندما نجد الآيات تتحدث عن النار

---

[١] العقيدة الواسطية لابن تيمية نقلا عن تدبر القرآن للسنيدي ص ١١١، ١١٢.

فعلينا أن نتفكر فيها ونستعيذ بالله منها، وعند الجنة نستبشر ونسأل الله دخولها برحمته، وعندما نجد سؤالا نُجيب عليه، وهكذا..

وحبذا لو كررنا الآية أو الآيات التي نتفاعل معها ونتأثر بها..

فإن قلت: وهل هناك حد أدنى للقاء مع القرآن؟

الإجابة؛ أنه كلما طالت المدة كان أفضل، ولكن إن لم يتيسر ذلك، وكان المتاح أوقات متقطعة كنصف الساعة مثلا، فلا بأس من ذلك، على أن يكرر اللقاء أكثر من مرة خلال اليوم، فمن المتوقع أنه في كل مرة سيكون لنا - بإذن الله – حالا مختلفا ندخل به على القرآن ونجد فيه ما يتجاوب مع هذه الحال.

ثامنا: العمل على زيادة الثقة بالقرآن.

إن أهم إشكالية نعاني منها هي ضعف الثقة في القرآن، فالقرآن أصبح في قلوبنا كالثوب البالي الذي لا يؤبه له، لذلك فإن من أهم وسائل العودة إلى القرآن، إعادة بناء الثقة فيه شيئا فشيئا، ومن الوسائل المعينة على ذلك:

البحث في القرآن ذاته عن قدر القرآن وعظمته، وعن تأثيره، وعن صفاته، ثم ننتقل إلى السنة وأقوال الصحابة والسلف..

وهناك بعض الكتابات التي يُمكن النظر فيها على سبيل التكميل والاستئناس، فالقرآن – بإذن الله – يكفي ليكون وسيلة ناجعة لبناء الثقة فيه، وأنصح نفسي وإخواني بأن يكون النظر في الكتب أمرا ثانويا قدر المستطاع، مع ضرورة الانتباه إلى ما قد تحويه هذه الكتب من كلمات قد توهن العزم، وتُضعف الإرادة من خلال طرحها بعض أقوال السابقين عن كثرة القراءة بفهم وبغير فهم، وعن الحفظ السريع.

ولنجعل الضابط الذي يضبط كلام هذه الكتب هو ما تضمنه القرآن عن القرآن، وما تضمنته السنة وأقوال وأفعال الصحابة رضوان الله عليهم[١].

---

[١] من هذه الكتب التي يمكنها – بإذن الله – أن تُرشد القارئ – بعد القرآن والسنة – إلى طريق بناء الثقة في القرآن:

- "أخلاق حملة القرآن للآجري".
- "فهم القرآن للحارث بن أسد المحاسبي".
- تفسير الآيات التي تتحدث عن القرآن من تفسير "في ظلال القرآن" لسيد قطب.
- "الإعجاز التأثيري في القرآن" لمصطفى السعيد.
- "هكذا عاشوا مع القرآن" لأسماء الرويشد.

تاسعا: عقد مجالس للمدارسات القرآنية، واستخلاص التكاليف العملية بعد كل مجلس.

من الوسائل المعينة –بإذن الله- على إعادة الثقة في القرآن وعودة روحه إلى قلوبنا: تعلم آياته واستخراج ما فيها من علم وإيمان، وما تدل عليه من عمل، وهذا أمر غاية في الأهمية، وكان يحدث بين الصحابة، ووردت السنة بندبه كما قال صلى الله عليه وسلم: "**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**"[1].

ويمكن أن تتم هذه المدارسات مرة كل أسبوع، وأن يتم فيها مدارسة عدد قليل من الآيات، ويُفضّل البدء بمدارسة الجزء الأخير.

وهناك طريقة أخرى للمدارسة، وهي مدارسة مقاطع قرآنية تتناول مواضيع محددة لها علاقة بواقع الأفراد، كمدارسة آيات من سورة الأنفال تتناول غزوة بدر وما فيها من مواقف إيمانية تربوية، وكذلك غزوة أحد من خلال سورة آل عمران، والأحزاب من خلال سورة الأحزاب، وبني النضير من خلال سورة الحشر، وصلح الحديبية من خلال سورة الفتح...

عاشرا: الدعوة إلى الانتفاع بالقرآن:

أخي القارئ: ما من لحظة تمر علينا إلا ويحدث فيها آلاف الممارسات الخاطئة مع القرآن في مشارق الأرض ومغاربها، لذلك ليس بمستغرب تلك العقوبة التي نُعاقَب بها بالحجاب المستور بين قلوبنا وبين روح القرآن وتأثيره.

- "روح الأمة" للشاهد البوشيخي.
- "مجالس القرآن" لفريد الأنصاري.
- "بلاغ الرسالة القرآنية" لفريد الأنصاري.
- "فضائل القرآن" لأبي عبيد الهروي.
- "فضائل القرآن" للمستغفري.
- "فضائل القرآن" للفريابي.
- "كيف نتعامل مع القرآن" لمحمد الغزالي.
- "منهج السلف في التعامل مع القرآن" لبدر ناصر البدر.
- "التأثر بالقرآن" لبدر ناصر البدر.
- "الاستغناء بالقرآن في طلب العلم والإيمان" لابن رجب الحنبلي.
- "قاعدة في فضائل القرآن" لابن تيمية.
- "مقدمة في ظلال القرآن" لسيد قطب.
- "جيل قرآني فريد" من كتاب "معالم في الطريق" لسيد قطب.

[1] سبق تخريجه ص: ٤٣.

من هنا ندرك حجم المسئولية الملقاة على عاتقنا، فالله عز وجل عندما أرانا بفضله هذا الأمر، فإنه سبحانه يريد منا أن نبذل غاية جهدنا مع أنفسنا أولا لكي نزيل أسباب وجود الحجاب المستورفتعود روح القرآن إلى قلوبنا، ويريد منا كذلك أن نبذل غاية جهدنا في دلالة المسلمين إلى هذا الخير العميم، وأن نرشدهم لقدر القرآن وعظمته، وننبههم لخطورة أفعالهم الخاطئة معه..

جاء في الحديث: "**إن لله أقواما يختصهم بالنعم لمنافع العباد، ويقرهم فيها ما بذلوها، فإذا منعوها، نزعها منهم فحولها إلى غيرهم**"[1].

علينا جميعا أن نفكر في كيفية دلالة العلماء والدعاة وطلبة العلم لهذا الأمر الخطير، وأن يكون حديثنا معهم يكسوه الأدب، ويتشبع بالحكمة والتواضع، وأن نتذكر دائما قوله تعالى: {**كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ**} [النساء: ٩٤].

ولا ننس الدعاء لنا ولهم بأن يفتح الله قلوبنا لروح وأنوار كتابه.

وتذكر أخي أنه لا يكفي صلاحك بالقرآن وتمسكك به، بل لابد أن توقف نفسك للدعوة إليه، وأن تُمسّكه للآخرين، فيتمثل فيك قوله تعالى: {**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**} [الأعراف: ١٧٠].

[1] أخرجه الطبراني في الأوسط ٢٢٨/٥ برقم: ٥١٦٢، وأبو نعيم في الحلية ١١٥/٦، ٢١٥/١٠، والخطيب البغدادي في التاريخ ٤٥٩/٩. وقال الهيثمي في المجمع (١٩٢/٨): فيه محمد بن حسان وثقه ابن معين وغيره وفيه لين، وشيخه أبو عثمان ضعفه الأزدي.

وصايا على الطريق

وقبل أن نغادر صفحات هذا الفصل أوصي نفسي وإياك – أخي القارئ – ببعض الوصايا والنصائح، علينا أن نستصحبها في رحلة عودتنا إلى القرآن واستجلاب روحه وأثره إلى قلوبنا.. .

أولا: عدم الاغترار ببعض الإيجابيات

قد يحدث لنا بعض العلامات الإيجابية كالرؤى الصالحة نراها أو تُرى لنا... .

هذه العلامات ينبغي أن نتعامل معها بحذر شديد، وألا نقف عندها، أو نعتبرها دليلا لرضى الله عنا أو أفضليتنا على غيرنا، بل نجتهد في نسيانها وعدم التحدث بها، فهي في الحقيقة فتنة وابتلاء، علينا أن نرى جانبها الإيجابي فقط، وهو التثبيت والاستمرار في الطريق، ونترك ونتحاشى جوانبها السلبية مثل الشعور بالتميز والسبق على الآخرين أو الاغترار بها والركون إليها..

ثانيا: إياك والعزلة

قد يجد البعض حلاوة ومتعة في لقائه بالقرآن تجعله يكسل عن مخالطة الناس والعمل في الدعوة، باعتبار أن هذه الأمور تُقسي قلبه – كما يزعم – وتفقده تلك الحلاوة والمتعة؛ فيؤدي هذا المنزلق إلى الانعزال والميل إلى الوحدة، وهذا من أشد مكايد ومصايد الشيطان، فهو يريد في البداية أن يُبعدنا عن بعضنا البعض، ثم ينفرد بكل فرد على حدة، ولقد أخبرنا سبحانه أن الإنسان في خُسر، إلا من آمن وعمل صالحا والتزم مع إخوانه بالتواصي بالحق والصبر {**وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**} [العصر: ١ - ٣]

ويقول صلى الله عليه وسلم: "**إنما يأخذ الذئب من الغنم القاصية**"[١].

ومن أقوال سيدنا علي رضي الله عنه: كدر الجماعة ولا صفو الفرد.

وقيل أيضا: نجتمع على نصف الحق، ولا نتفرق على الحق كله.

ثم لنعلم – أخي – أن من علامات الاتصال الحقيقي بالقرآن فهمه وتدبره؛ والذي إن حدث فسيدفعنا للعمل بإذن الله بمقتضى آياته والتي تحُثنا وتدفعنا بدورها إلى الجهاد والدعوة والبذل ونفع الآخرين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر {**وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**} [الحج: ٧٧]، {**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**} [المائدة: ٢]

[١] رواه أحمد، مسند الأنصار، باقي حديث أبي الدرداء: ٢١٧٥٨، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب التشديد في ترك الجماعة: ٥٤٧، والنسائي، كتاب الإمامة، باب التشديد في الجماعة: ٨٤٧، وحسنه الأرناؤوط.

فاحذر ثم احذر ثم احذر من هذا المنزلق الخطير..

واعلم بأننا لن نكتشف أنفسنا وما فيها من ثغرات إلا عند الوجود بين الناس..

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المشروع الإسلامي الذي يهدف إلى إقامة الدين، وقيام الخلافة الإسلامية، وأستاذية العالم يحتاج إلى جهودنا جميعا، فكيف لو تركنا العمل فيه؟! ألن يكون لذلك تأثير سلبي علينا، ويستدعي العقوبة من الله عز وجل كما مر علينا؟!

.. نعم، قد لا تجد وأنت تعمل فيه تلك الحلاوة التي تجدها عند قراءتك للقرآن وخلوتك معه، ولكن صبِّر نفسك بأن هذا هو ما يحبه الله عز وجل ويرضيه، وينبغي علينا أن نفعل ما يحبه الله لا ما تحبه أنفسنا.

ثالثا: خفض الجناح والتواضع وعدم الاستعلاء على الآخرين:

ومن المنزلقات والقواطع التي يمكنها أن تقطع رحلة عودتنا إلى القرآن: الشعور بأن معنا شيئا ليس عند غيرنا، فيؤدي هذا إلى الاستعلاء على الآخرين، والانتقاص منهم، والتقليل من شأن جهودهم، وتسفيه آرائهم.. فيكون ذلك سببا لاستدعاء غضب الله علينا وحرماننا من روح القرآن، وإحباط أعمالنا والعياذ بالله..

يقول صلى الله عليه وسلم: "**فأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**"[1].

فبالغ أخي في التواضع لإخوانك، واخفض جناحك لهم.

ولا تستكثر ما منَّ الله به عليك، فتمن به على ربك، وعلى إخوانك، بل الله يمن عليك وعلى الناس أجمعين.

وأسوق إلى نفسي وإليك – أخي – هذا الحديث، وما فيه من تخويف:

عن حذيفة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: إن مما أتخوف عليكم رجلا قرأ القرآن حتى إذا رئيت بهجته عليه وكان ردءا للإسلام، انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وخرج على جاره بالسيف، ورماه بالشرك، قلت: يا نبي الله أيهما أولى بالشرك الرامي أم المرمي؟ قال: لا بل الرامي. (٢)

---

[1] رواه البزار ٤٩٩/١، برقم: ٣٣٦٦، والطبراني في الأوسط ٤٧/٦ برقم: ٥٧٥٤، وغيرهموقال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (١٧٤/١): أسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٨٠٢

(٢) رواه ابن حبان (٢٨١/١، رقم٨١) ، والبزار (٢٢٠/٧، رقم ٢٧٩٣) وقال البزار: إسناده حسن.

رابعا: عدم الاستغناء عن التوجيه التربوي:

كما ذكرنا من قبل فالقرآن هو الذي يقوم بتغيير الفرد – بإذن الله – ولكن هذا التغيير يحتاج إلى من يتابعه ويتأكد من مطابقته للصورة المطلوبة، ويحتاج الفرد كذلك إلى من يُراقب فهمه، ويشحذ همته، ويوجه حركته في المشروع الإسلامي لتُثمر أفضل النتائج بإذن الله.

من هنا يتضح أهمية تواصل الفرد مع (موجِّه تربوي) وكذلك الوجود وسط إخوانه الذين يشكلون سويا وسطا تربويا يمارسون فيه معاني الإسلام وما تعلموه من القرآن، ويتدارسون فيه آياته، فعليك – أخي– بالاجتهاد في التواجد في هذا الوسط والتواصل مع الموجهين التربويين؛ فإن لم تجد فعليك بالاجتهاد في البحث عنهم حتى يوصلك الله إليهم..

وحتى يحدث هذا فوسائل الاتصال الحديثة يسّرت التواصل عن بُعد مع من يقومون بذلك.

خامسا: الحكمة في الدعوة إلى التعامل الصحيح مع القرآن الكريم:

كما أسلفنا؛ فإن الهجر الحقيقي للقرآن قد بدأ بعد جيل الصحابة، لذلك فإن العودة إليه تحتاج إلى جهد كبير وإلى حكمة عظيمة في دعوة الناس إليه، لذلك أنصح نفسي وإياك – أخي – أن نجتهد في التحلي بها غاية الإمكان.

ومن صور الحكمة في الدعوة إلى التعامل الصحيح مع القرآن:

- تخير أفضل الأوقات والمناسبات في طرح الموضوع.
- التدرج في الدعوة وعدم مصادمة الناس ومفاجأتهم بكل الممارسات الخاطئة.
- تخير الألفاظ المناسبة التي تُجَمِّع ولا تُفرق.

– لنتذكر: إذا أردت أن تكون إمامي فكن أمامي، فأفضل طريق للدعوة هي الدعوة بالقدوة، وعندما يرى الناس الأثر الإيجابي للقرآن في ذات الداعي فإنهم سينجذبون إلى كلامه، ويصدقونه بتلقائية.

– تذكر: لا إكراه في اعتناق الإسلام، فكيف بما هو دون ذلك؟! فلا تقهر أحدا على تبنِّي ما تعتقد مهما كانت درجة صلتك به.

– لنحذر الاستهزاء بالآخرين أو تسفيه آرائهم.

- لنحذر لهجة الاستعلاء والأستاذية، ولنتكلم بلغة الناصح الشفيق الذي يرى الناس جميعا أفضل منه، والناصح في القرآن لايقول: أنصحكم، بل يقول: أنصح لكم. {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ} [الأعراف: ٦٢]

سادسا: الإخلاص وابتغاء رضا الله وجنته:

هذه الوصية أوصي نفسي وإياك بها، فالأسباب التي قد تدفعنا لعدم الإخلاص عديدة... يقول صلى الله عليه وسلم: تعلموا القرآن، وسلوا الله به الجنة، قبل أن يتعلمه قوم، يسألون به الدنيا، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة: رجل يباهي به، ورجل يستأكل به، ورجل يقرأه لله. [1]

---

[1] أخرجه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة ١٧٩/١ والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣٤/٢، رقم ٢٦٣٠) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: ٢٥٨.

الفصل الثامن

مظاهر النجاح
وعلامات الاتصال بالقرآن

الفصل الثامن

مظاهر النجاح وعلامات الاتصال بالقرآن

بفضل من الله وحده تناولت صفحات هذا الكتاب الحديث عن قدر القرآن، وواقعنا معه، وحاجتنا الماسة إليه، وضرورة العودة الحقيقية إليه، وكيفية تحقيق ذلك بإذن الله.

ولأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فلابد من عرض التصور الصحيح لمظاهر النجاح في الاتصال الحقيقي بالقرآن حتى يتسنى لنا الحكم على حالنا، والتعرف على واقعنا، ومدى قربه أو ابتعاده عنه.

وإننا بحاجة كذلك للتعرف على هذه المظاهر لتكون لنا بمثابة الراية التي نرنو للوصول إليها، والمقياس الذي نقيس به مقدار تقدمنا نحو القرآن.

والجدير بالذكر أن المظاهر التي ستتضمنها بإذن الله الصفحات القادمة ليست على سبيل الحصر، لكنها تُشكل نسبة كبيرة من علامات الاتصال الحقيقي بالقرآن– لفظه وروحه – ويقف على رأسها مظهر في غاية الأهمية والخطورة، ولابد من تحققه فيمن يتصل بالقرآن ويدخل إلى دائرة تأثير معجزته، فتسطع أنواره وتسري روحه في قلبه.. هذا المظهر هو: التغيير الإيجابي الجذري في شخصية المسلم على أساس معاني الإسلام الشامل الذي يتناول جميع جوانب الشخصية الأربعة (المعرفية، والإيمانية، والنفسية، والحركية) ولقد سبق بفضل الله الحديث عن هذه العلامة في بداية الفصل الأول، وفي الصفحات القادمة سيتم عرض بقية العلامات، والله المستعان.

العلامة الأولى: التغيير الإيجابي الشامل*

العلامة الثانية: الزلزلة

القرآن العظيم يحتوي على أشد قوة تأثيرية على وجه الأرض، هذا ما أخبرنا الله - جل شأنه - به، لذا فمن المتوقع أنه إذا اتصل به شخص ما – أيا كان وضعه – أن يُحدث فيه زلزلة داخلية عنيفة، تهزه وترُجُّه، وتجعله ينهار ويسجد لمُنزل القرآن سبحانه.

ولقد تضمن القرآن في عدة مواضع وصفا لهذه العلامة وأصحابها، كما في قوله تعالى: {**إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**} [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]

فالآيات تخبرنا بتأثير القرآن السريع والمذهل على هؤلاء الذين ذكرتهم الآية، فعندما استمعوا لآياته لم يتمالكوا أنفسهم، وخارت قواهم، وانهاروا منكبين على الأرض سجدا لله عز وجل وإكبارا له، وعبروا عن هذا الإكبار والانبهار بالتسبيح، ولم يستطيعوا السيطرة على دموعهم فكان بكاؤهم دليلا آخر على تأثير القرآن فيهم.

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال تعقيبا على هذه الآيات: "إنهم لا يتمالكون أنفسهم، فهم لا يسجدون، ولكن {**يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا**} ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده: { **سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا**}. ويغلبهم التأثر؛ فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر الغامر الذي لا تصوره الألفاظ {**وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**} فوق ما استقبلوه به من خشوع"[١].

إن الانهيار أمام قوة تأثير الآيات لمن أهم علامات الاتصال الحقيقي بها {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨].

{**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**} [السجدة: ١٥]

ويحكي سيد قطب عن واقعة حدثت له تصف شيئا قريبا من هذه الزلزلة فيقول:

---

*العلامة الأولى وهي التغيير الإيجابي الشامل تم بفضل الله الحديث عنها في بداية الفصل الأول، وأنصح نفسي والقارئ الكريم بالعودة لقراءتها مرة ثانية.

[١] في ظلال القرآن ٢٢٥٤/٤.

"كنت بين رفقة نسمر حين طرق أسماعنا صوت قارئ للقرآن من قريب، يتلو سورة النجم، فانقطع بيننا الحديث لنستمع وننصت للقرآن الكريم. وكان صوت القارئ مؤثرا وهو يرتل القرآن ترتيلا حسنا.

وشيئا فشيئا عِشت معه فيما يتلوه، عِشت مع قلب محمد صلى الله عليه وسلم في رحلته إلى الملأ الأعلى.. عِشت معه وهو في رحلته العُلوية الطليقة بقدر ما يُسعفني خيالي وتُحلِّق بي رُؤاي، وبقدر ما تُطيق مشاعري وأحاسيسي..

.. ويستطرد قائلا: وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتابعة في المقطع الأخير من السورة..

واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهمة: {**هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ** } [النجم: ٥٦ - ٥٨]

ثم جاءت الصيحة الأخيرة واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعيب: {**أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ**} [النجم: ٥٩ - ٦١]

فلما سمعت {**فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا**} [النجم: ٦٢] كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقا إلى أوصالي، واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي، لم أملك مقاومته، فظل جسمي كله يختلج، ولا أتمالك أن أثبته، ولا أن أكفكف دموعا هاتنة، لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة"[1].

فما لهم لا "يسجدون"؟!!:

ومما يدعو إلى التأمل العميق أن الله عز وجل في معرض خطابه الذي يذم فيه الكفار وينكر عليهم عدم إيمانهم، قد اشتمل كذلك الإنكار عليهم بعدم السجود عند سماع آيات القرآن {**فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ**} [الانشقاق: ٢٠، ٢١]..

وكأن رد الفعل الطبيعي لأي شخص يستمع القرآن هو السجود.

نعم؛ إن جوهر السجود هو خضوع القلب وهبوطه وخشوعه واستكانته لله عز وجل.. استكانة تسيطر على المشاعر وتستبد بها، فهو – إذن – يبدأ من القلب ويترجمه الجسد، فإن اكتفى المرء بسجود قلبه في غير الآيات التي يُسن فيها سجود الجسد فبها ونعمت.

---

[1] في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٠، ٣٤٢١.

"إن كلمات القرآن الكريم كلها تأثير، لأنها من كلام الله رب العالمين، وإن كانت ألفاظه من ألفاظ كلام الناس، لكن الله تعالى أفاض عليها من فيضه، ونفخ فيها من روحه، ومن ثَم تفعل هذه الكلمات هذا الفعل العجيب في النفوس، ويزداد تعميق هذا السلطان القاهر على القلوب"[1].

ويقول أبو عمران الجوني: "**والله لقد صرف إلينا ربنا عز وجل في هذا القرآن ما لو صرفه إلى الجبال لحتَّها وحَنَاها**"[2].

وقرأ مالك بن دينار قوله تعالى: {**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ**} [الحشر: ٢١] ثم قال: أقسم لكم لا يؤمن عبد بهذا القرآن **إلا صدع قلبه**[3].

وقال الضحاك في تفسيره لهذه الآية:

"يقول تعالى: لو أنزلت هذا القرآن على جبل فأمرته بالذي أمرتكم به، وخوفته بالذي خوفتكم به؛ إذًا يصدع ويخشع من خشية الله، فأنتم أحق أن تخشوا وتذلوا وتلين قلوبكم لذكر الله."[4]

تأثير القرآن على كفار مكة:

لقد أقر كفار مكة بقوة تأثير القرآن، لكنهم لم يؤمنوا بسبب كبرهم وعنادهم وخوفهم على امتيازاتهم ومكانتهم بين الناس، لذلك كانوا يقولون: {**لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**} [الزخرف: ٣١]، والدليل على إقرارهم بقوة تأثير القرآن عليهم أنهم قالوا عنه سحر، ومن المعلوم أن جوهر السحر هو تأثير قاهر غلاب يأخذ بالقلوب والألباب: {**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ**} [الأحقاف: ٧].

لقد أقروا بتأثير القرآن لكن الكِبر منعهم من الإيمان {**وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**} [الزخرف: ٣٠، ٣١] لذلك كانوا يتواصون بعدم سماعه والتشويش عليه حتى لا يصل تأثيره إلى عموم الناس فيسلموا بسماعه {**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**} [فصلت: ٢٦]

إن هذا القول من كفار مكة الذي تحمله الآية "ليدل على الذعر الذي كان يضطرب في نفوسهم، من تأثير هذا القرآن فيهم وفي أتباعهم، وهم يرون هؤلاء الأتباع يُسحرون – من وجهة نظرهم –

[1] الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم لمصطفى السعيد ص ٨٢.
[2] حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ٣١١/٢.
[3] أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣٧٨/٢.
[4] الدر المنثور للسيوطي: ٤٧٤/٩.

بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين، والسورة والسورتين، يتلوها محمد أو أحد أتباعه السابقين، فتنقاد إليهم النفوس، وتهوي إليهم الأفئدة..

ولولا أنهم أحسوا في أعماقهم هزَّة روَّعتهم، ما أمروا أتباعهم هذا الأمر، وما أشاعوا في قومهم بهذا التحذير، الذي هو أدل من كل قول على عمق التأثير"[1].

ومما يؤكد هذا المعنى ما نقلته إلينا كتب السيرة من تأثر المشركين بالقرآن كالوليد بن المغيرة الذي عبّر عن تأثره بقوله: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، وما هو من قول البشر[2].

وفي يوم من أيام مكة قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النجم فسجد لها، فما بقي أحد من القوم إلا سجد، المسلمون والمشركون، فأخذ رجل من القوم كفا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال: يكفيني هذا[3] وكان هذا الرجل هو أمية بن خلف الذي قتل كافرا يوم بدر.

"لقد سجد المشركون وهم يمارون في الوحي والقرآن، وهم يجادلون في الله والرسول!

سجدوا تحت هذه المطارق الهائلة التي وقعت على قلوبهم والرسول صلى الله عليه وسلم يتلو هذه السورة عليهم، وفيهم المسلمون والمشركون، ويسجد فيسجد الجميع، المسلمون والمشركون. لا يملكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن؛ ولا أن يتماسكوا لهذا السلطان.. ثم أفاقوا بعد فترة فإذا هم في ذهول من سجودهم كذهولهم وهم يسجدون"[4].

ويصف جبير بن مطعم رضي الله عنه حاله عندما استمع القرآن وكان مشركا، فيقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: {**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)**} **كاد قلبي أن يطير!**[5].

---

١ التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص ١٤، ١٥.

٢ أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، سورة المدثر: ٣٨٧٢ وقال : حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية ص ١٥٩

٣ البخاري، أبواب سجود القرآن: ١٠١٧.

رواية أخرى: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: " أول سورة أنزلت فيها سجدة: والنجم، قال: فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه إلا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه "، فرأيته بعد ذلك قتل كافرا، وهو أمية بن خلف. (صحيح البخاري، في كتاب التفسير، سورة والنجم: ٤٥٨٥)

٤ في ظلال القرآن ٣٤١٩/٦.

٥ أخرجه البخاري، كتاب التفسير، سورة والطور: ٤٥٧٣. وعند البخاري أن سفيان سمع قوله "كاد قلبي أن يطير" عن الزهري بواسطة، وإنما سمعها منه هو بغير هذه الزيادة، والمعنى صحيح روى مثله الطحاوي في شرح معاني الآثار ٢١٢/١، والطبراني في الكبير ١٦٦/٢ برقم: ١٤٩٩، وابن عبد البر في التمهيد ١٤٩/٩، وغيرهم.

التأثير المباشر للقرآن الكريم في الدعوة إلى الإسلام:

معجزة القرآن تشمل الإعجاز البياني والإعجاز الغيبي والإعجاز التشريعي، وأنواعا أخرى ذكرها العلماء، ولكن جوهر معجزته وسرها الأعظم في "إعجازه التأثيري"[١]، وهي المعجزة التي تُشعر من يتعرض لها بأن شيئا مذهلا يسيطر على عقله ومشاعره، ويأخذ بمجامع القلب، ويضعه تحت سيطرته التامة. لذلك كانت الدعوة للإسلام من خلال (تلاوة) القرآن هي الوسيلة الأولى التي استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته، فللقرآن معجزة تأثيرية جبارة لو تعرض لها إنسان **لانهار أمامها وأذعن واستسلم لمُنزله**؛ شريطة ألا يكون بداخله من الكبر ما يقاوم ذلك الإذعان والاستسلام.

ولقد قرر القرآن هذه الحقيقة في قوله تعالى: {**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ**} [التوبة: ٦].

"فلو لم يكن للقرآن العظيم من تأثير بالغ في قلوب سامعيه؛ لَمَا كان هو الحد الفاصل لنهاية إجارة المشرك"[٢].

وهناك نماذج عملية كثيرة تثبت أن ما يقذفه القرآن من تأثير رهيب كان السبب الأول لإسلام الكثير من الصحابة كأبي ذر الغفاري، والطفيل بن عمرو الدوسي، وعمر بن الخطاب، وأسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وأبي موسى الأشعري..

تأثير القرآن على لبيد بن ربيعة:

ونختم الحديث حول هذه النقطة بذكر تأثير القرآن على أحد فحول الشعر الجاهلي، وأحد أصحاب المعلقات السبع الذين سارت بشعرهم الركبان، ألا وهو لبيد بن ربيعة، فبعد إسلامه لم يقل إلا بيتا واحدا، وهو قوله:

والحمد لله الذي لم يأتني أجلي حتى لبست من الإسلام سربالا

وها هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول له يوما ما: أنشدني من شعرك، فيقرأ سورة البقرة، ويقول له: ما كنت لأقول الشعر بعد أن علمني الله سورة البقرة[٣].

---

١ يقول محمد فريد وجدي: لما كان القرآن روحا من أمر الله فلا جرم كانت له روحانية خاصة هي عندنا جهة إعجازه والسبب الأكبر في انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه. دائرة المعارف الإسلامية الجزء السابع مادة "قرأ".

٢ عظمة القرآن لمحمود الدوسري ص ٣٢٨.

٣ المعجزة القرآنية لمحمد حسن هيتو ص ٤٣، ٤٤.

عن الشعبي قال: كتب عمر بن الخطاب إلى المغيرة بن شعبة وهو عامله على الكوفة: أن ادع من قبلك من الشعراء ، فاستنشدهم ما قالوا من الشعر في الجاهلية والإسلام ، ثم اكتب بذلك إليّ . فدعاهم المغيرة، فقال للبيد بن ربيعة: أنشدني ما قلت من الشعر في الجاهلية والإسلام، قال: قد أبدلني الله بذلك سورة البقرة، وسورة آل عمران.

وفي رواية: أرسل إلى لبيد بن ربيعة ، فقال: أنشدني ، فقال: إن شئت أنشدتك مما قد عفي عنه من شعر الجاهلية، قال : لا أنشدني ما قلت في الإسلام . فانطلق إلى أديم فكتب فيه سورة البقرة ، فقال: أبدلني الله مكان الشعر هذا[1].

ماذا حدث للبيد الشاعر:

فإن قلت: هل تعني أن من أهم علامات دخول نور القرآن وسريان روحه فيه هو ذلك التأثر الشديد في المشاعر الذي يصيب القارئ أو السامع للقرآن، مما يدفعه للسجود أو البكاء دون أن يتمالك نفسه؟

..نعم، هو كذلك، ولكن هذا الوصف يوضح التأثر المشاعريالمزلزل فقط، وهناك زلزلة أخرى تحدث في الفكر والتصور، وإليك – أخي القارئ – هذا المثل لتوضيح معنى زلزلة الأفكار والقناعات والتصورات التي يحدثها القرآن:

لو أن ملكا لدولة متقدمة في مضمار التكنولوجيا ووسائل الرفاهية قد استقدم إلى مملكته رجلا من بلدة نائية فقيرة، أُميّ لا يعرف شيئا، وعين له مرافقا يعلمه قوانين المدينة، ويعرفه بها، وبوسائل التقدم والرفاهية فيها، ويُدرِّس له علوما متخصصه ليعده أن يكون من العلماء المتخصصين..

لا شك أن هذا الرجل الأمي بعد أن يرى هذه المدينة وينبهر بها، سيمحو من ذهنه كل نظام الحياة الذي عاشه من قبل، وسيبدأ في التأقلم مع ظروفه الجديدة، ولكي ينجح في ذلك سيرجع لمرافقه هذا، يسأله في كل شيء، وينفذ تعليماته بدقة، وكلما واجهه موقف لا يعرف ماذا يفعل فيه رجع إليه بالسؤال، وكلما رأى شيئا جديدا، استفهم منه عن وظيفته واستخدامه..

هذا تصور قريب من حقيقة الزلزلة التي يُحدثها القرآن في الأفكار والتصورات.. فهي تمحو كل تصور خاطئ ملأ عقولنا، وتضعنا في حالة انبهار غير عادي، وتهز ثقتنا في كل ما تلقيناه سابقا، لدرجة تجعلنا نتوقف عند كل ما نفعل كأنه أمر جديد ننتظر قرار القرآن فيه.. وهذا يُفسر ما حدث للبيد حين ترك الشعر.

---

[1] الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا ح ١٤، وذكرها الحافظ ابن حجر في الإصابة ١/٩٨، ٥/٦٧٥.

حالة يضع القرآن أهله فيها، كأنهم ولدوا من جديد، أو كأنهم انتقلوا إلى عالم آخر فصار لزاما عليهم أن يراجعوا مشاعرهم وتصوراتهم وسلوكياتهم على ميزان القرآن دون النظر لسابق رأيهم وخبرتهم فيها.[1]

[1]لعلنا من خلال ما قيل ندرك بعض تأثير اسم سورة الزلزلة لتهيئة النفس البشرية المؤمنة لتعيد ترتيب حساباتها ودرجة حساسيتها، وتضبط جهاز استقبالها على هذه الموجة: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)} [الزلزلة: ٧، ٨] لأنه لا يمكن أن يصبح ميزان الأعمال بهذه الدرجة من الحساسية الشديدة إلا بعد صدمة الزلزلة وأهوال الكلمات الأولى من السورة وآياتها.

ومما يُعرف به أهل القرآن:

ثالثاً: زيادة الإيمان مع كل لقاء بالقرآن

من معاني الإيمان: التصديق والثقة، وهو ينشأ – بإذن الله - عند إعمال الفكر في معنى من المعاني شريطة أن تتجاوب المشاعر مع مدلول هذا التفكر.

فعندما يتفكر المرء في حقيقة الدنيا، وتمتزج مشاعره بهذا التفكير وتتفاعل معه؛ فإن ذلك يثمر زهدا في الدنيا. فإذا ما داوم على هذا التفكر والتفاعل زاد الزهد، وأيضا: إذا ما اتجه الفكر نحو حقيقة الآخرة وتعانقت العاطفة مع هذا الفكر فإن ذلك من شأنه أن يثمر – بإذن الله – رغبة في الآخرة، وتزداد هذه الرغبة كلما تكرر هذا الأمر، وتلك هي زيادة الإيمان..

وإذا ما اتجه الفكر نحو اسم من أسماء الله الحسنى، وتجاوبت المشاعر مع هذا الفكر فإن النتيجة المتوقعة – بإذن الله – هي زيادة الإيمان بالله من خلال معاني هذا الاسم..

فإذا ما أسقطنا هذه الحقيقة على القرآن لوجدنا أنه من النتائج الثابتة المترتبة على اللقاء بالقرآن (تلاوة أو استماعا) هو **زيادة الإيمان بكل ما ينبغي الإيمان به**، مما ينفع المرء في الدنيا والآخرة، فالقرآن يستثير كوامن العقل للتفكر في جوانب الإيمان المختلفة **ويمزج هذا التفكر بدوام الطَّرْق على المشاعر حتى تستثار، ومن ثَم يحدث التعانق بين الفكر والعاطفة، فينشأ الإيمان – بإذن الله – ويخرج المرء بعد لقائه بالقرآن وهو أشد حبا لله، وخشية منه، ورجاء فيه، وافتقارا إليه، وتوكلا عليه.. ويكون كذلك أشد زهدا في الدنيا، ورغبة في الآخرة..**

ويؤكد هذه العلامة قوله تعالى: {**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**} [الأنفال: ٢]، وقوله: {**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**} [التوبة: ١٢٤].

قال علي رضي الله عنه: كانت السورة إذا نزلت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الآية أو أكثر زادت المؤمنين إيمانا وخشوعا، ونهتهم فانتهوا.[١]

وأذكر لك – أخي القارئ – مثالا للتأثير الإيماني لسورة من سور القرآن على بعض الصحابة:

فقد نزل رجل من العرب ضيفا على عامر بن ربيعة رضي الله عنه، فأكرم عامر مثواه، وكلّم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم واديا ما في العرب وادٍ أفضل منه، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من

---

[١] عزاه المتقي الهندي في كنز العمال (٤٢١٦) لأبي بكر الوراق في أماليه، والعسكري في المواعظ. وقال: إسناده حسن.

بعدك. قال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: {**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ**}[1] [الأنبياء: ١].

وروي أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان يبني جدارا فمر به آخر في يوم نزول هذه السورة فقال الذي كان يبني الجدار: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال الآخر: نزل اليوم {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ} [الأنبياء: ١] فنفض يده منالبنيان وقال: والله لا بنيت أبدا وقد اقترب الحساب[2].

مع الأخذ في الاعتبار أن التوازن في ضبط حركة الإنسان يجعله كلما زاد زهدا فيها كلما زاد إصرارا على السعي والإكثار من أعمال البر والخير، حتى يزيد رصيده في الآخرة التي تعلق قلبه بها بعد أن أفرغه من التعلق بالدنيا.

[1] رواه أبو نعيم في الحلية ١٧٩/١، وابن عدي في الكامل في الضعفاء ٤٤٨/٥، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٢٧/٢٥.

[2] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٦٦/١١.

ومن علامات أهل القرآن:

رابعا: تدبر آياته

ومن علامات حُسن الانتفاع بالقرآن: تدبر آياته، وليس فهمها فقط، فقراءة القرآن تختلف عن قراءة أي كتاب آخر، فنحن حين نتناول كتابا من الكتب ونقرأ فيه فإن هدفنا الأساس يكاد ينحصر في فهم عباراته ومدلولاته، أما بخصوص القرآن فلا ينبغي أن يقتصر الأمر على مجرد فهم آياته، بل لابد وأن يتعدى إلى النظر إلى معانيها وما تؤدي إليه، والنتائج المترتبة عليها وهو ما يطلق عليه لفظ "التدبر"[1]، فالتدبر هو إعمال الذهن بالنظر في آيات القرآن للوصول إلى معانيها وما تدل عليه، وتؤول إليه[2].

فالتدبر - كما نرى – يحتاج إلى إنصات وتركيز شديدين مع بذل الجهد في فهم المراد من الآيات وما تدعو إليه، مما يستلزم في بعض الأحيان تكرار الآية أو الآيات المقروءة.

يقول أبو حامد الغزالي: والمقصود من القراءة التدبر، ولذلك سُنّ الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن.. قال علي رضي الله عنه: لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبر فيها[3]

وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد[4].

من ثمرات التدبر:

إن التدبر بمعناه الحقيقي هو الوسيلة الأكيدة لتحقيق الهدف من نزول القرآن، فهو بوابة التذكر والعظة والاعتبار، وهو الذي يؤجج – بإذن الله – الشعور بالندم تجاه ما يرتكبه المرء من آثام أو ما يقصر فيه من واجبات، وهو الطريق الآمن لشحذ الهمم وزيادة الإيمان، وتقوية الإرادة، وهو البداية الحقيقية للتخلق بأخلاق القرآن.

١ أصل كلمة تدبر: د ب ر وهو مؤخرة الشيء، ومعناه – أي التدبر-: النظر في عواقب الأمور وأواخرها، وما تؤول إليه.ومن معانيه كذلك: التتبع والتعقب، فالتدبر يحتاج إلى التتبع للوصول للغايات وأواخر الأشياء. انظر مفهوم التدبر من ص ١٧-٢١.

- والتاء في تدبر تدل على التكثير والتوكيد (السابق ص ٣٠)، وهو يعني كذلك بذل الجهد والصبر والتحمل للنظر في المقاصد والغايات (السابق ص ٣٢).

- ومجيء التدبر على صيغة التفعُّل فيه دلالة على التكلف في الفعل وحصوله بعد جهد، فالتدبر ملازم لبذل الجهد والمشقة والمعاناة (السابق ٢٤٣).

- والتدبر لا يكون إلا بالتأمل، فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه (السابق ١١٣).

- واعلم أن ثمرة التدبر تحصل بالدوام والاستمرار عليه (السابق: ١١٦).

٢ مفهوم التدبر تحرير وتأصيل، أوراق عمل الملتقى العلمي الأول لتدبر القرآن الكريم ص ٧٧.

٣ أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧٧/١

٤ إحياء علوم الدين: ٢٨٢/١.

والتدبر الصحيح **لابد أن يصحبه تجاوب** من المرء، وذلك بحسب الآيات المقروءة، فهناك آيات تستدعي التجاوب معها بالمشاعر واللسان، وهناك آيات تدفع المرء نحو العمل بمقتضاها.

فعندما نقرأ قوله تعالى: {**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**} [البقرة: ١٦٤]..

.. عندما نتفكر فقط في هذه الآية وذلك بفهم معانيها – ولو بصورة إجمالية – ثم نتجاوزها لما بعدها فإننا بذلك نكون قد تفكرنا فيها دون تدبر، فالتدبر يستدعي التأمل فيها والتفكير فيما ينبغي أن نفعله تجاه ما دلَّت عليه الآية من تأجيج الشعور بعظمة الله وإكباره، ليترجم اللسان هذا الشعور بالتسبيح والحمد والثناء على الله جل شأنه..

وهكذا في بقية الآيات، فمن قرأ آيات ذكر الجنة وفَهِمها ولكنه لم يتأملها ولم تتأجج مشاعر الشوق نحوها، ولم يترجم هذه المشاعر بسؤال الله دخولها فإنه بذلك لم يتدبرها.

ويشرح ذلك الإمام السيوطي فيقول: **وصفة التدبر أن يشغل قلبه بالتفكر في معاني ما يلفظ به، ويتأمل الأوامر والنواهي، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى: اعتذر واستغفر، وإذا مر بآية رحمة: استبشر وسأل، أو عذاب: أشفق وتعوذ، أو تنزيه: نزَّه وعظَّم، أو دعاء: تضرع وطلب**[١].

من أمثلة التدبر:

ومن أمثلة التدبر التي جاء ذكرها في القرآن قوله تعالى: {**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**} [المائدة: ٨٣]. فهؤلاء المذكورون في الآية استمعوا القرآن **ففهموه، وفاضت أعينهم من الدمع تأثرا به،** ولم يكتفوا بذلك، بل تفكروا فيما ينبغي عليهم أن يفعلوه كنتيجة مترتبة على ما سمعوه، فماذا قالوا؟ {**رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ**} [المائدة: ٨٣، ٨٤]..

ومن الأمثلة التي ذكرها القرآن لمفهوم التدبر قوله تعالى: {**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**} [آل عمران: ١٩٠، ١٩١]، فماذا أوصلهم هذا التفكر الصحيح والتأمل في آيات السماوات والأرض؟{**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا**} [آل عمران:

---

[١] الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٨٣/١.

١٩١] فكانت النتائج والمآلات لهذا التفكر: {**سُبْحَانَك فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**} [آل عمران: ١٩١ - ١٩٤].

نماذج عملية من الجيل الأول:

فإذا ما نظرنا إلى الجيل الأول – الجيل القرآني الفريد – لوجدنا تحقق هذه العلامة فيهم وبصورة جلية، وكان إمامهم في ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم.. يقول حذيفة بن اليمان: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح بالبقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، **يقرأ مترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذ مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوَّذ**، ثم ركع فجعل يقول: "**سبحان ربي العظيم**" فكان ركوعه نحوا من قيامه، ثم قال: "**سمع الله لمن حمده**"، ثم سجد فكان سجوده نحوا من قيامه[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي،يتأول القرآن، وذلك بعد أن نزلت سورة النصر {**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**} [النصر: ١ - ٣][2].

وعندما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم: {**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ**} الآية [البقرة: ٢٨٤]، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير.** فلما اقترأها القوم، وذلت بها ألسنتهم فأنزل الله في أثرها {**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ**} الآية [البقرة: ٢٨٥] فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله عز وجل: {**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**}[3] [البقرة: ٢٨٦].

---

[1] مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل: ١٨٥٠.

[2] أصل الحديث في الصحيحين، والتصريح بأن ذلك يعني سورة النصر عند عبد الرزاق في المصنف، كتاب الصلاة، باب القول في الركوع والسجود: ٢٨٧٨

[3] سبق تخريجه ص: ٦٦.

وعن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: {**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**} [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، فأينا لم يظلم؟ فقال: "**إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا إلى ما قال العبد الصالح**: {**يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**} [لقمان: ١٣][١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت {**مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**} [النساء: ١٢٣]، شقَّت على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله أن تبلغ، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**قاربوا وسددوا، فكل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة يُنْكَبها، والشوكة يشاكها**"[٢].

وعن ابن أبي ذئب عن صالح قال: كنت جارا لابن عباس – رضي الله عنهما – وكان يتهجد من الليل فيقرأ الآية ثم يسكت قدر ما حدثتك، وذاك طويل، ثم يقرأ. قلت: لأي شيء فعل ذلك؟ قال: من أجل التأويل يفكر فيه[٣].

---

[١] البخاري، كتاب التفسير، سورة ألم غلبت الروم: ٤٤٩٨، ومسلم، كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه:٣٤٢.

[٢] البخاري، كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرضى: ٥٣٧١، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه...:٦٧٣٤.

[٣] مختصر قيام الليل للمروزي ص: ٢١٥.

خامسا: الشعور بالسكينة

من العلامات البارزة للاتصال الحقيقي بالقرآن: الشعور بالسكينة والطمأنينة والراحة والأمن والهدوء، فالسكينة بمثابة الخيمة التي تنزل من السماء فتُحيط بقارئ القرآن وتَفصِله عن الجو المحيط به، فيشعر وكأنه قد انغمس في الرحمة والطمأنينة..

عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رجلا كان يقرأ سورة الكهف وعنده فرس مربوط بشطنين[١] فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: "**تلك السكينة تنزلت للقرآن**"[٢].

قال النووي: المختار أنها شيء من المخلوقات فيه طمأنينة ورحمة ومعه الملائكة[٣].

إن القرآن – كما يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه – مأدبة الله، فمن دخل فيه فهو آمن[٤].

ومما يؤكد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: "**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**"[٥].

والجدير بالذكر أن الشعور بالسكينة والراحة هو وصف للجو النفسي الذي يعيش فيه قارئ القرآن أو مستمعه، ولا يتنافى هذا الشعور مع تفاعل المشاعر مع الخطاب القرآني من رغبة ورهبة وإجلال لله، كمن يجلس في غرفة مكيفة الهواء في يوم شديد الحرارة، فإنه يشعر بالراحة، ولا يتنافى هذا الشعور مع بقية مشاعره التي قد تكون متأججة في اتجاه ما نتيجة لتعرضه لمؤثر أججها، كمن بلغه مرض أبيه أو ابنه فيقينا ستتملكه مشاعر الحزن.. هذه المشاعر لا تتنافى مع الشعور بالراحة الذي يسببه مبرد الهواء..

[١] شطنين: مثنى شطن وهو الحبل الطويل.

[٢] البخاري، كتاب التفسير، سورة الفتح: ٤٥٥٩، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، نزول السكينة لقراءة القرآن: ١٨٩٢.

[٣] صحيح مسلم بشرح النووي: ٨٢/٦.

[٤] سبق تخريجه ص: ٤٢.

[٥] سبق تخريجه ص: ٤٣.

ومن دلائل الاتصال الحقيقي بالقرآن:

سادسا: الشعور بالسعادة والمتعة والأنس

ما هي السعادة؟

هي الشعور باللذة والمتعة، لذلك يسعى الناس جميعا لتحصيلها بشتى الطرق.

والسعادة من مخلوقات الله {**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**} [الزمر: ٦٢]، وهي في خزائنه {**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ**} [الحجر: ٢١]، ولقد أخبرنا سبحانه أن اللقاء الصحيح بالقرآن يجلب لصاحبه السعادة {**مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**} [طه: ٢] أي بل لتسعد.

{**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**} [التوبة: ١٢٤]

ومما يؤكد هذا المعنى ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: "**ما أصاب عبدا همٌّ ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي؛ إلا أذهب الله غمه، وأبدله مكانه فرحا**"[١].

يقول ابن القيم في قوله صلى الله عليه وسلم: "أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري" الربيع: المطر الذي يحيي الأرض، شبه القرآن به؛ لحياة القلوب به..، ولما كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن، فإنها أحرى ألا تعود، وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو زوجة أو ولد فإنها تعود بذهاب ذلك[٢].

وفي هذا الدعاء دلالة واضحة على أن القرآن من أهم أسباب إزالة الهموم والأحزان، واستجلاب السعادة والفرح، ولو تأملنا في الدعاء لوجدنا أنه مرتبط ارتباطا وثيقا بالتعامل مع القرآن، فالرسول صلى الله عليه وسلم يعلمنا أن نسأل الله عز وجل بأن يجعل القرآن سببا لحياة القلب وإزالة همومه وغمومه، وهل يمكن للقرآن أن يفعل ذلك دون اللقاء به؟!

كلا، فإن الانتفاع بهذا الدعاء في الحقيقة يستلزم اللقاء مع القرآن تلاوة أو استماعا.

---

[١] سبق تخريجه ص: ٣.

[٢] الفوائد لابن القيم ص ٣٩، ٤٠.

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن تيمية: إن اللذة والفرح والسرور، وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمْكن التعبير عنه، إنما هو في معرفة الله سبحانه وتعالى وتوحيده والإيمان به، وانفتاح الحقائق الإيمانية، والمعارف القرآنية[1].

وهذا يفسر لنا سبب تحمُّل عبّاد بن بشر آلام السهام الثلاثة التي أصابت جسده وهو يقرأ القرآن، فالروعة التي ملأت قلبه أنسته تلك الآلام..

ففي غزوة ذات الرقاع يقول جابر بن عبد الله:"... نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلا، فقال: من رجل يكلؤنا ليلتنا؟ قال: فانتدب رجل من المهاجرين، قيل هو عمار بن ياسر، ورجل من الأنصار قيل هو عباد بن بشر، فلما خرج الرجلان إلى فم الشِّعب قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل تحب أن أكفيكه؛ أوله أو آخره؟ قال: بل اكفني أوله، فاضطجع المهاجري فنام وقام الأنصاري يصلي، وأتي عدو سُبيت زوجته، فلما رأى شخصه عرف أنه ربيئة (حارس) القوم فرماه بسهم فوضعه فيه. فانتزعه عنه وثبت قائما، ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه فنزعه وثبت قائما، ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه فنزعه، ثم ركع وسجد ثم أهبّ (أيقظ) صاحبه فقال : اجلس فقد أثبت، فوثب، فلما رآهما الرجل عرف أنه قد نذر به فهرب، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء قال: سبحان الله؛ أفلا أهببتني أول ما رماك؟! قال: **كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تابع عليّ الرمي ركعت فآذنتك.. وايم الله لولا أن أضيع ثغرا أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه <u>لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها</u>**[2].

فالقرآن كما يقول محمد بن واسع: "بستان العارفين، فأينما حلوا منه حلوا في نزهة"[3].

وهذا عبد الله بن مسعود يصف شعوره وهو يقرأ سور آل حم فيقول: "إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن"[4].

وكان عثمان بن عفان يقول: "لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم"[5].

دعني أستمتع بالقرآن:

[1] رسائل ابن تيمية من السجن ص ٣١.

٢ أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، كتاب الوضوء، ذكر الخبر الدال على أن خروج الدم من غير مخرج الحدث لا يوجب الوضوء: ٣٦، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب قراءة القرآن: ١٠٩٦، والحاكم في المستدرك، كتاب الطهارة: ٥٥٧، وقال : حديث صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي.

[3] حلية الأولياء ٣٤٧/٢.

[4] أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب فضائل القرآن، في فضل الحواميم: ٣٠٢٨٥.

والروضة الدمثة: اللينة الموطئ السهلة الخضرة، ومعنى أتأنق فيهن: أتتبع محاسنهن، وأعجب بهن، وأستلذ قراءتهن، وأتمتع بمحاسنهن. [لسان العرب: أنق ٩/١٠]

[5] أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣٠٠/٧.

عن عبد الله بن عمرو قال: جمعت القرآن، فقرأته كل ليلة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**اقرأه في شهر**" قلت: دعني أستمتع من قوتي وشبابي، قال: "**اقرأه في عشرين**" قلت: دعني أستمتع من قوتي وشبابي، قال: "**اقرأه في عشر**" قلت: دعني أستمتع من قوتي وشبابي.. قال: "**اقرأه في سبع" قلت: دعني أستمتع من قوتي وشبابي، فأبى**[١].

فقول عبد الله بن عمرو: "دعني أستمتع من قوتي وشبابي"، وتكرار ذلك يدل دلالة واضحة على أن القرآن عندهم كان مصدر السعادة والمتعة، فهو يريد أن يستمتع بشبابه وقوته بالإكثار من تلاوة القرآن.

ويؤكد الحسن البصري على هذه العلامة فيقول: تفقدوا الحلاوة في الصلاة، **وفي القرآن**، وفي الذكر، **فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق**.

وكان مالك بن دينار يقول: "إن الصديقين إذا قُرئ عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة"[٢].

فالشعور بالسعادة واللذة علامة مميزة للاتصال الحقيقي بالقرآن، يقول فضل الرقاشي: ما تلذذ العابدون، ولا استطارت قلوبهم بشيء كحسن الصوت بالقرآن، وكل قلب لا يجيب على حسن الصوت بالقرآن فهو قلب ميت[٣].

وتصف إحدى جيران داود الطائي حاله بالليل فتقول: كان بيننا وبين داود الطائي حائط قصير، فكنت أسمع حنينه عامة الليل لا يهدأ، قالت: وربما سمعته يقول في جوف الليل: اللهم همك عطل عليّ الهموم، وحالف بيني وبين السُهَّاد، وشوقي إلى النظر إليك أوثقَ مني، وحال بيني وبين اللذات، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب. قالت: **وربما ترنم بالآية فأرى أن جميع نعيم الدنيا جمع في ترنمه**[٤].

ونختم الكلام عن هذه العلامة بقوله صلى الله عليه وسلم: "**ألا من اشتاق إلى الله فليسمع كلام الله، فإن مثل القرآن كمثل جراب مسك أي وقت فتحته فاح ريحه**"[٥].

---

١ أخرجه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو: ٦٥١٦، والحديث عند الشيخين بسياق قريب.

٢ الزهد لأحمد بن حنبل ص ٣٠٠ رقم ١٩٠٠.

٣ حلية الأولياء ٦/ ٢٠٧، والرقة والبكاء لابن أبي الدنيا ح ٧٩.

٤ حلية الأولياء ٣٥٦/٧ ، الثقات لابن حبان ٥٥/٥، تاريخ بغداد ٣١٦/٩، والهم والحزن لابن أبي الدنيا ص٢٩، رقم ١٤٧.

٥ الفردوس بمأثور الخطاب: ١٣٨/١، والسلسلة الضعيفة: ١٩٣/١٤.

سابعا: تحصيل الغنى

إن أهل القرآن هم أغنى أهل الأرض **وذلك بالمفهوم الحقيقي للغنى**.

فغنى المرء هو شعور يتملكه بعدم الرغبة والاحتياج لما في أيدي الآخرين، وهذا ما يُطلق عليه "الاستغناء عن الناس" أما حين تجد شخصا دائم النظر لما في أيدي غيره، شديد التوق والتلهف لتحصيله؛ فهذا الشخص من أشد الناس فقرا وإن كان يمتلك كنوز الدنيا، ويؤكد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم: "**ليس الغنى عن كثرة العَرَض، وإنما الغنى غنى النفس**"[١].

فالعزُّ والغنى الحقيقيان في الاستغناء عن الناس، كما قال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم: "... **واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس**"[٢].

فالفقر الحقيقي هو الرغبة فيما عند الآخرين، والغنى الحقيقي هو انصراف الرغبة عما لديهم.

فإن قلت: ولكن مشاعر الاحتياج والرغبة ملازمة للإنسان ولا يمكنه الانفكاك عنها، فكيف يستغني عن الناس؟

يجيب عن هذا قول الله عز وجل {وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا} [النساء: ٤٥]؛ فالافتقار التام والمطلق إلى الله، والاستغناء به عن كل ما سواه هو الغنى الذي ليس بعده غنى، وهو ما يطلق عليه: "الاكتفاء بالله" ويشهد له ما يؤثر من الدعاء: "اللهم اجعلني أغنى خلقك بك، وأفقر خلقك إليك".

فمن وجد الله فقد وجد كل شيء، ومن فقد الله فقدْفقدَ كل شيء.. "**إلهي ماذا وجد من فقدك؟!! وماذا فقد من وجدك؟!!**".

يقول ابن رجب: ومما ينشأ من معرفة الله تعالى: محبته والاكتفاء به، والاستغناء به عن خلقه[٣]. وأعظم وسيلة لتحصيل المعرفة بالله تعالى والاستغناء به هي القرآن.. يقول صلى الله عليه وسلم: "**القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه**[٤]".

---

[١] البخاري، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس: ٦٠٨١، ومسلم،كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض: ٢٤٦٧.

[٢] أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق: ٧٩٢١، وقال: صحيح الإسناد، ووافقهالذهبى .وأورده المنذري في الترغيب (١١/٢) وقال: "رواه الطبراني في (الأوسط) بإسناد حسن".

[٣] استنشاق نسيم الأنس من مجموع رسائل ابن رجب: ٣٣٩/٣.

٤ أخرجه أبو يعلى ١٥٩/٥، رقم ٢٧٧٣ قال الهيثمى ١٥٨/٧: فيه يزيد بن أبان الرقاشى وهو ضعيف.

إن تحصيل الغنى من خلال القرآن من أهم علامات أهل القرآن، ومن أعظم ثمار الاتصال الحقيقي به، ويكفيك في هذا قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ**} [الحجر: ٨٧، ٨٨].

فالآيات تخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده وكأنها تقول له: لقد أنعمنا عليك يا محمد بمصدر الغنى الحقيقي، بالفاتحة والقرآن العظيم "فلا تعجب بما عند الآخرين إعجابا يحملك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المترفون، واغتر بها الجاهلون، واستغن بما آتاك الله من المثاني والقرآن العظيم"[١].

يقول سفيان بن عيينة: من أُعطي القرآن فمد عينيه إلى شيء مما صغَّر القرآن فقد خالف القرآن.. ألم تسمع إلى قول الله تعالى لنبيه: {**لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**}[٢] [طه: ١٣١]

إن صاحب القرآن يشعر بأنه قد حيزت له الدنيا بأسرها، بل يرى كل ما عليها صغيرا وضئيلا بجوار ما أكرمه به ربه من نعيم الاتصال بالقرآن، فلا تجده يمد عينيه أو يطيل النظر إلى ما عند الآخرين مهما أوتوا من متاع الدنيا، وتجده كذلك لا يتابع بشغف أخبار العملات والأراضي والعقارات والسيارات، فعنده ما يكفيه، لأنه أصبح ذا ميزان قرآني رباني يعظم ما عظم الله، ويحقر ما حقره الله، فتجده يترجم عمليا: {**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ**} [النساء: ٧٧] فيرى أن كل متاع الدنيا منذ أن خلقت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قليل.

[١] تيسير الكريم الرحمن للسعدي ٤٣٤.

[٢] فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١١٤.

ومن تلك العلامات

ثامنا: آثار مادية على الجسد

من علامات الاتصال الحقيقي بالقرآن ظهور آثار التفاعل معه على الجسد.. من هذه الآثار:

- **البكاء**: {**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**} [المائدة: ٨٣].

{إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [مريم: ٥٨].

ولما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه الذي توفي منه قال: "**لِيُصَلِّ للناس أبو بكر**" فقالت عائشة: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق، كثير البكاء حين يقرأ القرآن، فمُر عمر فليصل للناس. قال: "**لِيُصَلِّ للناس أبو بكر، فإنكن صواحب يوسف**"[1].

- **ومنها: قشعريرة الجلد**: {**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ**} [الزمر: ٢٣].

وعندما سأل عبد الله بن عروة بن الزبير جدته أسماء بنت أبي بكر عما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قُرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله، تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم[2].

وكان عبد الرحمن بن عوف يقرأ القرآن على عبد الله بن عباس، فماذا كان حاله؟

يقول ابن عباس: فلم أر رجلا يجد من القشعريرة ما يجد عبد الرحمن بن عوف عند القراءة[3].

- **ومنها: شيب الرأس**: فقد دخل أبو بكر الصديق يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: شبت يا رسول الله قبل المشيب، فقال له: "**شيبتني هود وأخواتها قبل المشيب**"

وفي رواية قال: **شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت**[4].

- **ومنها: صفرة لون الوجه**: يقول محمد بن كعب القرظي: كنا نعرف قارئ القرآن بصفرة اللون[1].

---

١ البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والابتداع والغلو في الدين: ٦٨٧٣.

٢ تفسير بن أبي حاتم ٣٢٥٠/١٠، والزهد لابن المبارك ٣٦٠/١، وشعب الإيمان للبيهقي ٣٦٥/٢.

٣ صحيح ابن حبان، كتاب الإيمان، باب حق الوالدين، ذكر الرغبة عن الآباء إذ رغبة المرء عن أبيه ضرب من الكفر: ٤١٤.

٤ رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن، سورة الواقعة: ٣٢٩٧، وقال: حديث حسن غريب، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، سورة هود: ٣٣١٤ وقال: صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي، ووافقهما الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٩٥٥

ويصف الإمام علي بن أبي طالب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول:

لقد رأيت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أرى اليوم شيئا يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثًا صُفرا غبرا، بين أعينهم أمثال رُكب المعزى، قد باتوا لله سُجدا وقياما، يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم[2].

ويقول الحسن البصري: والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حزِن وذبل، وإلا نصب، وإلا ذاب، وإلا تعب[3].

وكان – رحمه الله – يحلف بالله يقول: والله يا ابن آدم، إن قرأت القرآن ثم آمنت به، **ليطولن في الدنيا حزنك، وليشتدّن في الدنيا خوفك، وليكثرن في الدنيا بكاؤك**[4].

---

١ فضائل القرآن لأبي عبيد ص١١٢.

٢ رواه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل ٢٠٥ ، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٧٦/١، ورواه أبو أحمد الحاكم في الأسامي والكنى ٨٧/٢.

٣ حلية الأولياء ١٣٤/٢، ٢٧١/٦.

٤ حلية الأولياء ١٣٤/٢، ١٩٨/٦، الزهد لأحمد بن حنبل ص٢٥٥.

تاسعا: المبادرة والمسارعة لفعل الخير

من أبرز علامات حسن الاتصال بالقرآن: ما يحدث للمرء مباشرة بعد اللقاء به من مبادرة ومسارعة لفعل الخير بصوره المختلفة، من إنفاق في سبيل الله، ودعوة إليه، وجهاد في سبيله، ومن بر، وصلة، وسعي في قضاء حوائج الناس، فالقرآن يعطي لصاحبه شحنة إيمانية عالية تجعله في حالة من التوقد والاستعداد للبذل والتطبيق الآني والانبعاث نحو كل ما يقربه من حبيبه ومولاه.

ويقص علينا القرآن مثالا للتأثير المباشر للاتصال به في المسارعة للخيرات، وهو ما حدث للنفر من الجن حين استمعوا القرآن، وتأثروا به، وفهموا مقصوده، فسارعوا إلى قومهم ينذرونهم، ويدعونهم إلى الإيمان بالله {**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**} [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

"لقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية، فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه مالا تطيق السكوت عليه أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به. وهي حالة مَن امتلأ حسه بشيء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب، يدفعه إلى الحركة به، والاحتفال بشأنه، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام.

.. لقد مضوا في نذارتهم لقومهم في حماسة المقتنع المندفع، الذي يحس أن عليه واجبا في النذارة لابد أن يؤديه"[١].

ومما يؤكد هذا المعنى ما كان يحدث للرسول صلى الله عليه وسلم، يقول ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض الكتاب على جبريل في كل رمضان، فإذا أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليلة التي يعرض فيها ما يعرض، أصبح وهو أجود من الريح المرسلة، لا يُسأل عن شيء إلا أعطاه[٢]..

وهذا أبو طلحة يقرأ سورة (براءة) فأتى على هذه الآية: {**انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**} [التوبة: ٤١] فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخا وشبابا، جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات، ومع أبي بكر

---

١ في ظلال القرآن ٣٢٧٣/٦، ٣٢٧٤.

٢ البخاري، بدء الوحي: ٦، ومسلم، كتاب الفضائل، باب كان النبي أجود الناس بالخير من الريح المرسلة: ٦١٤٩.

حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد سبعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه فيها[1].

وخرج عبد الرحمن بن يزيد مرة وهو يريد أن يُجاعل في بعث خرج عليه، ثم أصبح يتجهز، فقيل له: ألم تكن أردت أن تجاعل؟ فقال: بلي، ولكن قرأت البارحة سورة براءة فسمعتها تحث على الجهاد[2].

---

[1] أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، ذكر الموضع الذي مات فيه أبو طلحة: ٧١٨٤، والحاكم في المستدرك، كتاب الجهاد، ٢٥٠٣، وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

[2] فضائل القرآن لأبي عبيد ص: ٢٤٣. والجُعل مبلغ من المال يعطيه من وجب عليه الجهاد لرجل آخر ليخرج مكانه.

عاشرا: التعلق بتلاوته وعدم الاستغناء عنها

التعلق الشديد بالشيء: عدم القدرة على الاستغناء عنه، ودوام التفكير فيه، وانتظار وقت الحصول عليه بشغف وترقب.. وهذا ما يحدث لكل من اتصل اتصالا حقيقيا بالقرآن.

فصاحب القرآن الذي يتزلزل عند قراءته ويعيش معه في جو من السكينة، ويشعر بالسعادة والأنس والغنى ..لا يطيق أن يمر عليه يوم دون لقائه، مهما كانت مشاغله، مُنطَلَقُه في ذلك ليس أداء الواجب، بل لأنه قد أدمن تلاوته، ومن ثم فإن قلبه لا يقِر، ومشاعره لا تسكن إلا بلقياه، كالرضيع الذي لا يهدأ أو يستكين إلا في حضن أمه.

والناظر لأحوال النبي صلى الله عليه وسلم يجده كذلك لا يفوِّت يوما ولا ليلة دون تلاوة للقرآن، وقد مر علينا في حديث حذيفة أنه صلى الله عليه وسلم قرأ في ركعة سورة البقرة والنساء وآل عمران.

وعندما جاءه وفد ثقيف أنزلهم في قبة بالمسجد وكان يأتيهم بعد العشاء فيعلمهم الإسلام، فتأخر عليهم ليلة ثم أتاهم، فقالوا له: يا رسول الله لبثت عنا الليلة أكثر مما كنت تلبث! فقال: :**نعم، طرأ عليّ حزبي من القرآن، فكرهت أن أخرج من المسجد حتى أقضيه**"[1].

وكان عليه الصلاة والسلام يسير يوما فسمع امرأة تقرأ: {**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ**} [الغاشية: ١]، فقام يستمع إليها ويقول: "**نعم قد جاءني**"[2].

وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم، فعن عبد الرحمن بن عبدٍ القارّي قال: استأذنت على عمر بالهاجرة، فحبسني طويلا ثم أذِن لي، وقال: كنت في قضاء وردي[3].

وعندما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن انطلق كل واحد منهما إلى عمله وكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه وكان قريبا من صاحبه أحدث به عهدا فسلم عليه فسار معاذ في أرضه قريبا من صاحبه أبي موسى فجاء يسير على بغلته حتى انتهى إليه ..

---

١ سنن أبي داود، : ١٣٩٣، سنن ابن ماجه:١٣٤٥، وصححه ابن حجر في الفتوحات الربانية ٢٢٩/٣.

٢ روي عن عمرو بن ميمون موصولا عن ابن مسعود كما في المشيخة البغدادية لأبي طاهر السلفي (مخطوط) و عند ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٩٣/١٢) موقوفا على عمرو، وهو مخضرم، أدرك الجاهلية، ولم يلقَ النبي صلى الله عليه وسلم، وبقية رجاله ثقات، والله أعلم.

٣ فضائل القرآن للمستغفري ٢٤٠/١، فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٨٥.

وفيه: قال معاذ يا عبد الله كيف تقرأ القرآن؟ قال أتفوقه تفوقا قال فكيف تقرأ أنت يا معاذ ؟ قال أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم فأقرأ ما كتب الله لي فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي[1].

وكان عمر بن الخطاب إذا دخل بيته نشر المصحف وقرأ فيه[2].

ودخلوا على عثمان وهو يقرأ في المصحف فقال: والله إني لأكره أن يأتي عليّ يوم لا أنظر فيه في عهد الله عز وجل.[3]

وكان عبد الله بن مسعود إذا أصبح أمر غلامه فنشر المصحف فقرأه عليه[4].

وقيل لنافع: ما كان يصنع ابن عمر- رضي الله عنهما- في منزله؟ قال: لا تطيقونه: الوضوء لكل صلاة والمصحف بينهما[5].

وكانوا رضي الله عنهم يقرءون القرآن الساعات الطوال كل يوم، فكان منهم من يختمه في سبعة أيام ومنهم في نصف شهر ومنهم في شهر.

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو: أن النبي صلى الله عليه وسلم **أمره أن يقرأه في أربعين، ثم في شهر، ثم في عشرين، ثم في خمس عشرة، ثم في سبع، قال: انتهى إلى سبع**[6].

وقال القاسم: كان ابن مسعود رضي الله عنه يقرأ القرآن من الجمعة إلى الجمعة، وفي رمضان في كل ثلاث، وما يستعين عليه من النهار إلا باليسير[7].

وكان أُبي بن كعب رضي الله عنه يختم القرآن في ثمان ليال[8].

وكان تميم الداري رضي الله عنه يختمه في كل سبع[1].

---

١ سبق تخريجه ص: ٩١.

٢ رواه الطبري في التفسير ٤٩٩/١١، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة.

٣ رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في السنة ١٤٧/١، والبيهقي في الشعب ٥١١/٣، .

٤ ذكره القرطبي في التذكار ١٨١- ١٨٥

٥ رواه ابن سعد في الطبقات ٧٠/٤ .

٦ مر بمعناه رواية الإمام أحمد في المسند ص: ٢٢٣، وفي الصحيحين ما يؤيده، وبهذا اللفظ أخرجه الترمذي في سننه، أبواب القراءات: ٢٩٤٦، وقال: حسن صحيح غريب ، وحسنه الألباني في الصحيحة برقم ١٥١٢

٧ رواه سعيد بن منصور في سننه، من جزء التفسير الذي حققه الدكتور سعد آل حميد ٤٤٨/٢، و البيهقي في السنن الكبرى ٣٩٦/٢.

٨ فضائل القرآن لأبي عبيد ص: ١٧٧.

وإن تعجب فاعجب من حالهم في المعارك، فمع شدة تعبهم وإجهادهم في القتال بالنهار إلا أن ذلك لم يكن يثنيهم عن قيام الليل وتلاوة القرآن كما حدث في القادسية:

فبعد انتهاء المعركة وانتصار المسلمين كتب قائد الجيش سعد بن أبي وقاص كتابا إلى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره فيه بالنصر، فكان مما جاء فيه: ... وأصيب من المسلمين سعد بن عبيد القاري، وفلان وفلان، ورجال من المسلمين لا يعلمهم إلا الله، فإنه بهم عالم..كانوا يدوّون بالقرآن إذا جن عليهم الليل كدوي النحل، وهم آساد في النهار لا تشبههم الأسود[2].

لو أردت أخي تفسيرا لذلك فلن تجد إلا أن حب الله وحب كلامه قد استولى على مشاعرهم وجعلهم في شوق دائم لتلاوة آياته لتهدأ ثائرة مشاعرهم ويتقلبوا في جو من السعادة والأنس لا يوجد له مثيل في دنياهم.

كان يحيى بن معاذ يقول: أشتهي من الدنيا شيئين: بيتا خاليا، ومصحفا جيد الخط اقرأ فيه القرآن[3].

---

[1] أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب صلاة التطوع والإمامة...، باب في القرآن في كم يختم؟: ٨٥٧٦.

[2] أخرجه الطبري في التاريخ ٥٨٣/٣ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٥٠/٧.

[3] التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي ص ١٧٨.

وصية جامعة

ونختم هذه المظاهر العشرة بوصية جامعة، علينا أن نجتهد في تطبيقها قدر استطاعتنا.

اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذى لا يغش، والهادي الذى لا يضل، والمحدث الذى لا يكذب، وما جالس هذا القرآنَ أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدى، أو نقصان من عمى .

واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن منغنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاءً من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق، والغى والضلال، فاسألوا الله به، وتوجهوا إليه بحبه، ولا تسألوا به خلقه؛ إنه ما توجه العباد إلى الله تعالى بمثله.

واعلموا أنه شافع مشفَّع، وماحل مصدَّق، وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شُفِّع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه، فإنه ينادي مناد يوم القيامة:

ألا إن كل حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله ، غير حرَثَةِ القرآن.

فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم.

وفي النهاية

أخي القارئ..

ها نحن قد وصلنا بفضل الله إلى نهاية الكتاب...

فهل وصلتنا رسالته؟

هل أدركنا حجم الجُرم الذي ارتكبناه في حق القرآن ؟!

هل شعرنا بالاحتياج الحقيقي إليه؟!

هل تاقت أنفسنا إلى روحه وعلمه وهدايته وشفائه بإذن الله؟!

إياك أخي أن تجيب بالنفي، فهذا معناه خطير، خطير ..

إننا نعاقب، كل يوم، بسبب تعاملنا الخاطئ مع القرآن، ولا سبيل لرفع تلك العقوبات إلا بالعودة الحقيقية إليه.

يقينا ليس أمامنا خيارات أخرى..

ليس أمامنا إلا طريق واحد؛ إذا أردنا خيرا حقيقيا لأنفسنا وأمتنا.

ألا قد بلغت .. اللهم فاشهد!

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه وسلم.

الفهرس

العنوان	رقم الصفحة
المقدمة	
الفصل الأول: بل نحن محرومون!!	
الاختبارات الكاشفة.	
أخطر صور الحرمان.	
الفصل الثاني: ماذا نخسر بعدم انتفاعنا بالقرآن؟	
وضوح وصراحة (استحالة التغيير بغير القرآن).	
استمرار الفرقة بين المسلمين.	
استمرار الذل والهوان.	
ضياع البشرية.	
غياب الربانية.	
القلق والاضطراب النفسي.	
الفصل الثالث: لماذا حرمنا الانتفاع بالقرآن؟!	
الجزاء من جنس العمل.	
الخسارة العظيمة والعقوبات المتوقعة.	
أليست آيات القرآن من آيات الله؟	
الفصل الرابع: صور وأشكال العقوبة.	
هل فُتح القرآن؟	
الفارق بين تخفيف القرآن وتيسيره للذكر.	
هل سيرفع القرآن؟	
الفصل الخامس: أخطاؤنا مع القرآن.	
الجفاء عن القرآن.	
أخطار الجفاء عن القرآن.	
التوجه نحو الكتب قبل القرآن.	
النتائج الوخيمة.	
لكي تكتمل الصورة.	
الإسراع في حفظ حروفه مع عدم العمل به.	
منطلقات أساسية لفهم موضوع الحفظ.	
الصحابة وحفظ القرآن.	

بداية الانحراف.	
تشغيل الآلات الحديثة التي تبث آياته دون الإنصات له.	
تبديد الوهم.	
الإسراع في قراءة آياته دون تدبر.	
موسم الامتهان.	
الاهتمام بإقامة حروفه، وإهمال العمل به.	
الرسول يحذر.	
قراءته بالألحان المحدثة، وغير ذلك من الأخطاء.	
كلمة أخيرة حول الممارسات الخاطئة مع القرآن.	
الفصل السادس: كيف استدرجت الأمة لهذا الوضع مع القرآن؟	
المعركة المستعرة والعدول الأول.	
عداوة اليهود الأبدية لأمة الإسلام.	
تمييز القراء.	
افتراق القرآن والسلطان.	
الانفتاح على الثقافات الأخرى.	
ظهور آثار البعد عن القرآن على فكر الأمة وثقافتها.	
كثرة التصانيف في فضائل القرآن وتضمينها أخبارا لا تصح.	
مرحلة الاستشراق والغزو الفكري.	
أخطاء في العصر الحديث.	
الفصل السابع: من أين نبدأ؟	
إذكاء الشعور بالخطر والمسؤولية التضامنية تجاه ما فعله المسلمون مع القرآن.	
التوبة الصادقة إلى الله المنطلقة من الشعور بالندم تجاه أخطائنا مع القرآن.	
الإقلاع عن كل الممارسات الخاطئة مع القرآن على المستوى الفردي والمجتمعي.	
دوام التضرع إلى الله عز وجل بأن يعيد لقلوبنا روح القرآن وأثره.	
حسم أمر الأسئلة والشبهات التي تثار حول القرآن.	
التحضير الجيد للقاء القرآن.	
طول المكث مع القرآن.	
العمل على زيادة الثقة بالقرآن.	
عقد مجالس للمدارسات القرآنية.	
الدعوة إلى الانتفاع بالقرآن.	

وصايا على الطريق	
الفصل الثامن: مظاهر النجاح وعلامات الاتصال بالقرآن.	
العلامة الأولى: التغيير الإيجابي الشامل.	
العلامة الثانية: الزلزلة.	
العلامة الثالثة: زيادة الإيمان مع كل لقاء بالقرآن.	
العلامة الرابعة: تدبر آياته.	
العلامة الخامسة: الشعور بالسكينة.	
العلامة السادسة: الشعور بالسعادة والمتعة والأنس.	
العلامة السابعة: تحصيل الغنى.	
العلامة الثامنة: آثار مادية على الجسد.	
العلامة التاسعة: المبادرة والمسارعة لفعل الخير.	
العلامة العاشرة: التعلق بتلاوته وعدم الاستغناء عنه.	
وصية جامعة.	
وفي النهاية.	